الامام

علي بن أبي طالب

الجزء الأول

تأليف

عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان

بيروت



هذا البيت

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ
الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ،
وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ،
وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *
رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ،
وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

١

ايام خزاعة راحت مع التاريخ .. مات سيدهم حليل فانتهى بهذا شرفهم في العرب . وابتــدأت دولة في الناس شمسها تبزغ ، وتملأ بنورها المستفيض رباع مكة .

واشرابت اعناق القبائل الى الملأ تنظر وتدير الأعين بين قصى ومن ظاهره من بطون قريش ، وبين أولئك المغلوبين على أمرهم وأحلافهم من بنى بكر .

ماذلت خزاعة حتى تدع البيت لهذا الصهر الذى عدا على حقها فاستلبه ، وان فيها من هو أولى بها منه ، وأوثق صلة بأجيال من آبائها توارثوا حجارة الكعبة والقيام على شأن حجيجها من رفادة وسقاية . وان دون فوز هذا الفتى من مضر لصبغ هذه البطاح باللون القانى !..

ذاك رأى خزاعة وقد تجنت !.. فما عدا الأمر ـــ اذ أصبحت مفاتيح الـكعبة في يد قصى ـ ان ارتد الحق الى أهله . وانمــا كانت ولاية البيت قبلها في مضر ، ثم بنيه من بعده ، فلما بغت قبيلة اياد في الحرم وأخرجها المضريون منه ومن مكة ، عمد بعضها ذات ليلة الى الحجر الأسود فاقتلعه ثم دفنه في الأرض حتى يذهب باختفائه هذا الشرف الذى تستطيل به مضر في بلاد العرب .

واصبح القوم والبيت غير البيت ، والكعبة غاب عنها الحجر مناط التقديس ومهوى الأرواح والنفوس .. وارسلوا البصر ثم حملقوا ولم يصدقوا . واقبل كل على أخيه لا يقوى على كتمان ما بنفسه من هم غالب .

وفي مثل اللمح طار النبأ واستشرى كالنار . وغشيت الكآبة مكة ولدا وشـــيخا كيفما اختلفت فيهـــا البطون والافخاذ .. ان الحجر الأسود كان رمز ايمانها جميعا ، وكان الثراء والنعمة لأهليها ، بما يجذب نحوها من حجيـــج يطوون النجاد والوهاد ، ويحملون اليهـــا متجرا أو يبذلون مالا تنفق بهما السلع أو تروج الأسواق .

غشيت الكآبة مكة كلها الا نفسا ظلت وحدها هادئة بين هذه الآلاف لا يملأها القلق ولا يفعمها الحزن الذى عم الجميع . بل بقيت ، كلما لاقت من هم الناس ، تشـــيح عنهم حتى لا يروا في عينيها ومضـــة

الهدوء ، ولا على ثغرها بسمة السخر والرثاء .. تلك كانت امرأة شاء لها حظها أن تعلم وهم في بيداء حدسهم يضربون .

واقبلت على قومها في نجوة من غيرهم تهتف :

« يا بنى خزاعة !.. » .

فالتفوا بها . وتسابقوا يسألون :

« فيم هذا الهتاف يا أمة الله ؟ » .

« في عز الدنيا وشرفكم بين العرب ، وان كليهما لفي كفى هاتين! » .

***

وكان حديثها نصيحة وقصة . اما القصة فقد أطرب جرسها الأسماع وافاءت على النفوس السكون . وأما النصيحة فقد ادخرتها لسادة القبيل دون العامة . افضت بها اليهم في حديث خافت كالمناجاة ثم راحت من بعد تحضهم وتقول :

« فاملكوا أمركم بينكم فلا تستطيل عليكم بعدها مضر أبدا .. » .

اجل وانه لكما أوصت . وان الحظ الذى ساقها تلك الليلة الى الخروج لبعض شأنها للذى واتى خزاعة فسودها بولاية البيت الحرام .

كانت المراة تدلج على مقربة من الحرم في ظلال كثيفة من الظلام ، فاذا أشباح رجال يدلفون من البيت في خطى المستريب ، في ايديهم قد احتملوا شيئا .. ووقفت الخزاعية في عجب تنظر ، وتصطنع الحذر قدر الجهد حتى لا يروها . ثم راحت تتأرهم البصر وقد حجبتها عنهم الظلال ، وراتهم يقربون بعيرا ، ثم ينيخونه ، ثم يحملونه .. فما اعجب ان رزح لتوه على الرمال لا ينهض كأنما قد حملوه جبلا أو شد الى أديم الأرض !.. وحاول القوم أن يستنهضوا الدابة فذهبت محاولتهم مع الريح ، فالتمسوا عنها ثانية أقوى أودعوا ظهرها ما ناء به ظهر أختها من قليل ، ثم ضربوا آباطها الى غايتهم . ولكنها رزحت كسابقتها وشد بطنها الى صفحة الرمال ما شد الاولى من اصابع المجهول . وعجب القوم . وعالجوا البعير بالحيلة وبالعنف وبالجهد فأعياهم ما بذلوا من حيلة وعنف وجهد .. وكانت المراة واقفة " تبرح من حيرة ومن ذهول . وترسل نظراتها خلال الظلمة الى ثالثة الدواب رازحة على الرمال كالأخريين تحت حملها الصغير فلم تملك الا الاقتراب مستخفية بستر الليل عساها تقف على ما ملأ قلبها توجسا وخوفا .

وكانما ايس أصحاب الليل ان يستعملوا ظهرا ، او استبدت بهم فزعة، او خشوا ان يفجاهم في مكانهم نور الفجر . فسارعوا الى الوسق يدفنونه في طوايا الرمال .

في هذه اللحظة تبينت الخزاعية الأمر كله اذ التمعت أمام عينيها صفحة الحجر الأسود تنم عنه ، وتكشف عما دعا بني اياد الى اخفائه. لقد علمتهم قوما موتورين ، وجدوا على ولد مضر فارادوا ان يحرموهم ما رفع هامهم على قبائل العرب اجمعين ... وضمت المراة على السر شفتيها كما انضمت على مكنونها هذه الرقعة من الارض ، ثم ذهبت مع الصباح الى قومها تقص الخبر وتزجى النصح لاشياخهم ان يساوموا مضر على رد الحجر لو نزلت لهم عن مفاتيح البيت الحرام يتولونه دونها . واخلق بخزاعة ان يطير بهذا شانها في القبائل .

***

ما كان قصي لينسى هذه الأحدوثة التي سمعها صغيرا ، ثم وعاها كبيرا ، ثم أبت من بعد أن تبرح ذهنه كلما طاف بالبيت فراى شيخ خزاعة يقوم به ويدفع بابه للحجيج من وفود الجزيرة لقضاء حق ربهم فيه . وكان قصي ذكيا آريبا ، نما في قلبه على الأيام حب هذا السؤدد الذى انساب من يدى قومه بمكيدة امراة كما تنساب حفنة مياه من بين أصابع قابض عليها . وأخذ طوال ما فات من سنيه يدبر لاستعادة المجد الذاهب . فاذا بلغ مبالغ الرجال كانت حجابة البيت امنية حياته . ولمن كانت له مثل عزماته وقوة قلبه تتداعى الصعاب وتنهار حتى لتصبح رواسيها الشم في يديه رملا هشا ماله من قوام .

واجال قصي فيما حوله بصره : هذا حليل بن حبشية سيد خزاعة يشرف به العمر على غايته او يكاد ، ويلعب الوهن بجسمه حتى تهجره القوة فلا يستطيع دفع الباب كما اعتاد وهو شاب مفتول عامر بالحياة، بل يرى في الحجابة جهدا فيسلم المفاتيح الى هذا يوما والى ذاك يوما يقومون بالعمل عنه ... ثم يسلمها اياما واياما الى ابى غبشان سليم ابن عمرو وارث الشرف من بعده في القبيل . ثم هذا ابو غبشان صاحب زق وخمر ، لا يكاد ان يرى الا مخمورا . وما على شاكلته يكون سادن بيت الله الحرام ، وما لمثله يستجيب الناس ان اراد القيام فيهم بأمر دينهم او دنياهم .

دبر قصي الحساب فما فاته الصواب ، واصبح عليه صباح مشى فيه الى دار حليل ، يضرب بابه ويستأذن .

وقال الفتى بعد أن استقر به المقام وخاض من الحديث فيما لم يبق بعده الا صفوة الكلام :

« ذكرت اليك حبى يا بن حبشية » .

فرمقه الشيخ برهة ثم سأله :

« لك أنت يا زيد ؟ » .

« نعم وعساك ترضى » .

« مرحبا وأهلا » .

وكان هذا الزواج صفقة رابحة في نظر الشيخ فتهللت اساريره وتاه زهوا بصهره الذى ينتهى اليه أمر قريش سيادة وأصلا ووفرة مال . وانتقلت حبى الى حياة جديدة ودار كسبت لها السمو على كل دار . ولكن احـدا من رجال خزاعة لم يجل بذهنه وقتئذ أن ولاية البيت قد أفلتت منهم الى سواهم . لقد اخذ تفكير حليل يسير في منحى سوى منحاه راحت به مفاتيح الكعبة في كف حبى ثم في كف زوجها يقوم عنها اكثر الأوقات بما هو أجمل بالرجل ان يقوم به . وكلما طالت الأيام طال قيام قصي بحجابة البيت ، وكلما اضطلع بعمله هذا اطبقت أصابعه على المفاتيح شدا . وكلما مر الزمن نبه ذكره وعظم خطره وزاد ولده فزاد بهم قربا من قلب حليل .

ثم ما لبثت اللحظة التى انتظرها بيقين الواثق أن جاءته . فقد احتضر كبير خزاعة . وانه لعلى فراشه يجود بنفسه فيطلب ابنته . ويطلب ولدها وزوجها يملأ من طلعـاتهم عينيه ويلقى عليهم نظـرات الوداع . ثم تأخذه صحوة فيهم ناهضا من فراشه ما وسعه ، وقد اتكأ على حشيته بذراع . ويخاطب سيد قريش في صوت خافت خفيض :

« يا بنى ... انك على أمرى من بعدى ... »

قال قصي يسأل وان لم يفت عن ذكائه الجواب المرجو :

« وسليم ؟ » .

« مالى ولسليم ؟ : هذا أمر ليس يقيمه صاحب خمر » .

« فان أبت خزاعة ؟ »

فصاح به الشيخ كالمستنكر وهو يشير الى أحفاده :

« خزاعة !... وهل خزاعة الا هؤلاء ؟... انما ولدك بنو ابنتى — ولدى — وانت أحق بأمرى حتى يخلفوك » .

وقد تم هذا حقا .. رسمته الوصية ثم ادعمته من بعدها الدماء.
ابت خـزاعة وظاهرتها بنـو بكر ، وابى قصى عليهم ذلك الاباء وظاهره قوم ابيه قريش وكنانة وقوم امه من ربيعة قضاعة .
واقتتل الفريقان قتالا مرا اهلك منهم الخيل والرجل ، وحصد عديدهم حصدا .
واشفقت العرب من عقبى الحرب فمشت بينهما تحضهما على الصلح وفض النزاع حتى قبلا أن يحكما في الأمر يعمر بن عوف .
وقال يعمر يقضي بعد سماع الحجة من كلا الخصمين :
« يا بنى خزاعة اراكم جرتم فانه والله لبيت أبيه .. الا فما كان من دماء رجاله ففيه الدية ، وما كان من دمائكم فاني اضمه !... »
وكذلك انتصر صاحب الحق القديم واستعاد تراثه . اما خزاعة فقد نفاها عن البلدة واخرجها منها ، واما قريش فقد الفها حوله ، وجمعها وكانت قبله مزقا وحلولا متفرقة ، ثم اقطعها بلدة البيت .
وراحت أيام خزاعة من التاريخ ، وبدأت دولة في الناس شمسها تبزغ وتملأ بنورها المستفيض رباع مكة ...



شرف قصى حتى تسنم الذروة . وكان رجلا فيه هيبة ، وفيه حزم ، وفيه فيض ، فأتته الأقوام منقادة ، عن رهبة او عن رغبة . واحسن امساك الزمام ، فما تفلتت منه توافه الأمور ، هو الذى تعلم أن يصانع العظائم حتى تستقيم له ...
واصبحت له مكة ملكا وان قل له أن يصير ملكا . فكان للناس ابا وسعهم حنانه قبل أن يضمهم سلطانه .
وفي الحق لم تر تلك الرقعة من الأرض رجلا مثله تداعت له السيوف والقلوب ، لا يأتمر كلاهما بأمر سواه . وان القوم ليهمون بالحرب فلا يعقد لواءها لهم الا قصى . وان الرجل ليتخذ شريكة حياته بعد أن يرضى عن زواجهما قصى . وان الراحل لا يرحل والعائد لا يعرف الطريق الى داره حتى يمرا اولا بدار قصى ... قوة لا يحدها سلطان ، وسلطان اشبه بايمان لا يملك أن يعصيه انسان .
واقبلت عليه في ملكه الأيام ، ثم تداولته الأعوام حتى شعر أن قد امهل له في عمره ما لم يبق معه بقية امهال ، فانطلق بفكره يتزود من

هذه البقاع الحبيبة الى النفس ، ويتدبر فيمن عسى ان يبقى لها من بعده عزها وعز ولده . حمداً لله فليس ينقصه المال ولا كثرة الرجال!. وهؤلاء قومه قد جمعهم ولفهم حول آله لفا . وهؤلاء بنوه قد شرفوا أمام عينيه واستطال مجدهم . وهم فتية . فايهم تولى امر هـذه الأقوام ، قام به فأحسن القيام .

في دخيلة نفسه احب لو أوصى لولده عبد مناف اذ خبر فيه عزما وهيبة وفيضا كأنما نحله كل ما فيه دون بقية بنيه . ولكن قصيا على قوة قلبه كان امرءا ذا طيرة ــ شأنه في هذا شأن الكافة من سكان الجزيرة الذين غلبت عليهم الأوهام واستعبدت عقولهم ايما استعباد في ذلك الزمن الغابر ... وهن جلده ولم تهن ذاكرته ، فاستطاع أن يرتد القهقرى بخياله ليرى ما حدث ذات ليلة في دار ولده المفضل .

... كانت عاتكة الكبرى بنت مرة قد جاءها ما يجيء النساء عندما توشك أن تنسلخ عنهن حياة جديدة ، واقتعد نسوة البيت حولها ينتظرن . وراح عبد مناف بلا قرار يجوب الحجرات في انتظار ما تأته به زوجه من أخ لبكره المطلب يعز به في الناس نفرا .

واشتد بعاتكة الألم حتى إعتصرت عينيها ، واشتد بالزوج القلق حتى ذهب ذهنه في اليأس كل مذهب ... لم تكن هكذا حالها حين وضعت وليدها الأول ، ولم تلق كهذا العسر . فلما طال اليوم عليها أمرها وحزب ، خشي زوجها المغبة وراح في حرارة يبتهل .

ودخل اذ ذاك قصي ، مديدا فارعا موفور القوة كمن له نصف عمره ، فاتجهت نحوه الأبصار ــ وملأتها ــ اذ بدت طلعته ــ نظرات فيها هدوء وقرار ... ان اليمن لفي محياه ، وان البركة لبين يديه ؛ وان الخير لأينما حل ، فليس اذن ما يخشونه على الأم .

وقد صدقت حقا فراستهم اذ كان ميمون الطلعة مباركا ، ما استوى مجلسه حتى تيسر لعاتكة امرها وجاء البشير بأنها وضعت حملها واستراحت .

لم تعدل فرحة عبد مناف بنجاة زوجه الا الفرحة التي هزت قلبه وهو يرى وليديه قد خلصا من امهما وهمت ان تتلقفهما أيدي النسوة. ولدت له عاتكة توأمين .. ذكرين كانا !.. وان في هذا عزا له ما بعده عز في بلد استحيى ناسها الابن وكرهوا الابنة حتى ليودعونها بطن الأرض ولما يستقر على ظهرها هيكلها الغض . واسرع الرجل تحمله الفرحة ، وسبقه الشيخ الى الوليدين يريد أن يملأ بهما عينيه كما امتلأ ــ قبل

النظر اليهما — فؤاده . ولكنه مامد اليهما كفيه حتى تقبضتا دونهما رهبة،ثم استرسلتا الىجواره وعيناه توليان الصغيرين دهشةوحيرة.

وحق لقصي ان يدهش ، وان تأخذه الحيرة وهو يلمح في الوليدين شذوذا دفع اليهما الأبصار تنتهبهما انتهابا ... كانا متصلين على غير المألوف في التوائم ، لا من جنب ولا من بطن ولا من ظهر ، بل لصقت بجبهة احدهما قدم الآخر كأنما هي منها قطعة .

واسرع القوم اليهمــا يعالجونهما حسبما اسعف كلا جنانه . وكثرت فيهما الآراء وتشعبت نواحيها . ولكن رأيا واحدا لم يلم على جانب من التوفيق . وما أجدت المحاولات شيئا .

واقبل عجوز من خزاعة له كهانة وله علم ، كانوا قد استقدموه ليستخبروه ما جهلوا : قلب الوليدين في يده برهة يفحصهما ؛ ثم قال بهدوء :

« ما ارى الا ان ينفصلا عن دم » .

فسأله عبد مناف بلهفة :

« ولا خطر » .

فكان الى العمل منه الى الجواب أسرع ، فما لبث الطفلان أن انفصلا كلا الى ناحية ، جبهة من اسموه عبد شمس تشخب دما ، وقدم توأمه عمرو خضيبة بذلك الدم .

وقال الكاهن ، وهو يهم أن يبرح ، وعلى شفتيه بسمة خابية ، وفي عينيه سهوم كمن كان يستوحى المجهول :

«الا انها والله لآية لمن علم ، وليكونن بين ولديهما خصومة ودم ! »

وكان من هذه الكلمات لقصي طيرة ... وفي مجلسه بداره ذلك الصباح منطويا على نفسه ذكر نبوءة الكاهن وما كان من شأن الطفلين.

وقام الى الندى يمشي الهوينا ، خافض الراس مشغول البال . ما له في أمره اذن من خيار . وما عليه ليجنب قريشا مصارعها ، وليبعد الشر عن الوقوع في آله ، الا أن ينأى بعبد مناف عن تولى الامر من بعده ، حتى لا تشب الفتنة بينه وبين توأمه عبد شمس ان ورث الأول ونفس الثاني على اخيه الشرف الموروث .

وبقي الأمر محصورا في عبد الدار ، بكر قصي ، وان عرفه لا يقوم مثل مقام اخويه . ولكنه رأى ان يوليه شأن القوم حتى لا يستطير الشر ويستشري في بنيه أو يملأ بدمائهم ارجاء مكة .

وقام الرجل يوصي بما قر رأيه عليه وفي باله ان وصيته مجنبة اهله ويل المقدور ، ووقف ينادى ، على مشهد من بنيه ومن اشراف قومه :
« يا آل فهـر .. يا آل غالب .. يا آل لؤى .. يا آل كعب .. يا آل كلاب .. » .

فلما اجتمع له الناس من كل جانب يحيطون به ، التفت الى بنيه يهتف :

« يا بنى قصى » .

فنادوا جميعهم :

« لبيك ! » .

قال الرجل وهو يشير الى بكره :

« فانى اشهدكم بأنى أوصى لابنى هذا ... »

وادار عينه الفاحصة فما راى الا الموافقة والاقرار . ما كان لهم بعصيانه طاقة ولا عن طاعته محيص .

وقال الشيخ لوصيه أمام بقية ولده بعد أن انفض الناس :

« انما شرف عبد مناف . وذهب في زمانى كل مذهب . وارتحل عبد العزى وحل فاصاب من الدنيا واصـابت منه ، وتخلفت انت يا بنى ... اما والله لالحقنك بالقوم : لا يدخل رجل الكعبة حتى تكون انت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء حـرب الا انت بيدك . ولا يشرب أحدبمكة الا من سقايتك . ولا ياكل احد من اهل الموسم طعاما الا من طعامك . ولا تقطع قريش امرا من امورها الا في دارك ... »

ونهض فحف به بنوه يمشون بين يديه . ولم ينس وهو يغادرهم ان يلقيها اليهم كلمة فيها جماع امره :

« ألا قد بلغت !... »

٣

حتى اكتهل عمرو ، واتبع خطوه في طريق العمر توامه عبد شمس، وشب لهما من الولد ما لكليهما مناط فخره ، ظلت نبوءة كاهن خزاعة جنينا في بطن الزمن لم يبزغ عليه نهار .

وتداولت قريشا أحداث شتى فيها حلو وفيها مر ، وعبد الدار ولى بيتها وندوتها . وما اتصل بهذه أو بتلك من شئون . لم تقرع ضعفه قارعة تدعوه الى استنباط قوة ليست فيه ، بل سارت له

الأمور مستانية يحفها هدوء ولين ، يقوم بما وكل اليه فيسدن ، ويرفد ، ويسقي ، ويعقد ويشير ، وقومه جميعا من خلفه — كما أوصى قصي — لا ينفسون ولا ينقمون ، استجابة منهم لأمر سيدهم الذى طواه التراب ، ووقفت عاجزة دون طي ذكره الأحقاب .

وورث بنو عبد الدار فخر أبيهم فاستطالوا بما في أيديهم عزا . ولم يقصر عن مجد بنى عمهم عبد مناف بل لعله بلغ شأوهم ثم زاد رفعة . فقد ذهب عبد شمس يجوب الآفاق متجرا فيصيب خيرا ويصيب حنكة ودراية بالناس . وهو باتجاره هذا يشبع نفسه المطبوعة على المداورة وبعد الغور والدهاء . ونبه ذكر عمرو كما لم ينبه لأحد من بنى أبيه ذكر حتى سوده القوم عن غير وصية سابقة من صاحب سلطان ... كان الله قد جبله من خلق متين ثابت الأركان وأورثه من جده قصي صفته وان لم يورثه عرضه ، فراح اسمه في الآفاق قصيدة طيبة الروى . أبياتها سماحة وفيض وقوة جنان ، لا يمل ترديدها لسان ، ولا يداني شأوها في أقوامه انسان .

هنا لعبت حنكة الأيام بالرجل الذى جبلته الدنيا على المداورة وبعد الغور والدهاء ... نظر عبد شمس الى الأمور نظرة تاجر لايفوته في صفقاتهالتزام الحساب،فوجد بنى عبد الدار اقل ولد جده خطرا. ولولا أن كانت لهم ولاية البيت وما تبعها مما أوصى به قصي ما بزوا امرءا من عامة قريش . أفتراه يتركهم يفضلونه امام الخاصة والسوقة بهذا الفخر الذى لم يأتهم عن عزم أو قوة أو فضل بل اتاهم منة من كريم وهم بنو الضعيف الواهن المهيض ؟

اذن ففيم كان له الدهاء لو ترك لهم ولاية البيت وما يلحقها من الشرف الموروث ؟ وهل ترى يكبو ذكاؤه دون بلوغ مآرب نفسه ؟. ان الرجل قد عنى ذهنه أن يكدح ليفوز بما يعلو به فوق بنى عمه شرفا . وكانت فيه نزعه للسيطرة جامحة الى جوارها مداورة تفل من حد جموحها أن يبين ، فلم ينس انه ليس بخير بنى عبد مناف في عيون قومه ما بقي فيهم توأمه حيا يأسر الناس فيضه ، على أن الكرم ليس بما يعسر على عبد شمس أن يصطنع له من جنسه ما يذيع ذكره ويعطف النفوس اليه ، ولم يكن هو معدما ولا مقلا وان لم يبلغ من الثراء مبلغ عمرو . لم يكن بالأضال حسبا اذ كلاهما من عبد مناف ، ثم ليس بعد هذا بالأقل أو الأذل ولدا .. وكفاه أن قد انجب امية الذى لاح — مذ اكتملت فتوته — كبير المطمع نزاعا الى العلياء .

وكذلك بدا عبد شمس ينسج خيوطه فراح يتألف حوله ذويه . ثم راح يجتمع بأشياخ قومه يحدثهم في اخراج الامر من بني عبد الدار . فلا ينكرون عليه سعيه وهم يقرون بعلو عبد مناف على عبد الدار . ثم اتى اخيرا عمرا متألفا آونة مداورا اخرى حتى مال وسكنت اليه نفسه . فلما اكتمل له رضا الاكثرين انبث بين اسد وزهرة وتيم والحارث يبذر فكرته حتى اقبلوا معاقدين معاهدين ان يخرجوا الحجابة والرفادة والسقاية واللواء والندوة جميعا من بنى عمه الى الأعزين : بنى عبد مناف بن قصى سادة الناس واولاهم بشئون حرمهم بيت الله .

واجتمع له القوم الى جوار الكعبة بينهم جفنة ملئت طيبا غمسوا فيها الأكف ثم مسحوها بأستار الكعبة وهم يقسمون على النصر والوفاء بالعهد .

ورد بنو عبد الدار ومن والاهم على حلف المطيبين هؤلاء بحلف آخر فاجتمعوا الى جفنة دم يتعاقدون عليها . ومن خلف اولئك وهؤلاء وقفت العرب ترقب ما عسى ان تأتي به الأحداث بين بني هذا البيت الذين فرقت بينهم عروض الحياة حتى صاروا أصحاب طيب أو لعقة دماء .

ثم سلت السيوف واشرعت الأسنة وكادت الحرب ان تشب فتأكل نارها من القوم او تذر ، فاذا بلغت الفتنة غايتها وادرك التأهب مداه مشى من ذوى المروءة بين الفريقين من سمعوا له فتداعوا الى الصلح ابقاء على قريش .

وهكذا حكموا بينهم من ارتضوا فحكم بأن يترك لبنى عبد الدار من تراثهم حجابة البيت والندوة وعقد اللواء . ويعود بنو عمهم بالسقاية ورفادة الحاج .

واجتمع المطيبون في دار عبد شمس يتشاورون فيما اصابوه من ثمار فقام صاحب الدار فيهم يقول :

« يا بنى عبد مناف هذه غنيمتكم قد احتلبناها من بنى عبد الدار احتلابا واني والله .. » .

فقطع عليه حديثه من قال :

«بل عاد الينا بعض ماترك قصى ، ولنحن أهله ، ولم نبتز احدا حقه»

قال عبد شمس :

« فهذا . وهلموا امركم بينكم فانظروا . » .

نعاد محاوره ثانية يقول :

« انه لأمر بين . قوموا فادفعوا بهما الى خير قصي » .
ثم التفت الى عمرو يهتف به :
« فما ترى يا أبا يزيد ؟ » .
« روا رأيكم .. » .
ولم يزد . وتلبث القوم يتفكرون برهة . أما عبد شمس فقد امتلأ بالثقة قلبه أن لن يعدل المجتمعون به سواه . أليس هو مؤلب الناس حولهم ، والمشير عليهم بالانتقاض على بني عمومتهم ، والداعي الى ثورتهم حتى باءوا بعد بالذي غنموه ؟
لكنه حساب أخطأ وتقدير كبا دون الغاية . فما هو الا قليل حتى تبدى على وجهه الذهول وقد نمى الى سمعه صوت يقول :
« يا بني عبد مناف . ألا تهتدون وفيكم عمرو ! »
فكأنما هي الصخرة التي حولت التيار .. نادى رجل :
« يا عمرو الحيا انت لهما ، فوالله ما طعمت مكة ولا سقيت من يدين ابسط من كفيك !.. »
قال عمرو تواضعا وكرما :
« بل هذا اخي ابو امية ادفعوا اليه الأمر .. »
ولكن كبيرهما المطلب سارع يقول :
« وما لعبد شمس وهذا الأمر ؟.. انه قام فينا فأحسن القيادة وأسلسنا المقادة . وانما الأمر اليوم لصاحب دار بلا باب ، وفيض بلا حساب ، وانه والله لأنت !... »

٤

ولاية صادفت أولى الناس بها في حساب الجميع ، وان كانت اخطأت وليها ، مذكي فتنتها ، والساعي الى فخرها في حساب عبد شمس .
وكان لابد ان يتألم الرجل ، وان يبرم ، وان يضيق برأي قومه فيه ضيقه برأيهم في أخيه . ولكنه صانع وداور ، وتحلب مر الهزيمة وهو يكظم حنقه في قاع نفســه البعيدة المهوى ، وما له عن هذا معدى ولا محيص .
وجلس يتربص بالأيام عســاها أن تعود نتهبه النصف أو يقع فيها على فرجة ينفذ منها بحنكته الى اقتناص ما فاته .

حكمة داهية اريب . ذاق من الدنيا وذاقت منه ، لا يسعه الا ان يبطن حين لا يضيره اسرار ولا يجديه اظهار .

ولكن الايام لم تقبل مطلقا عليه وفي وفاضها الفرصة التى منى النفس أن يجرب فيها ثانية دهاءه ، وان كانت قد اقبلت على توأمه توسع له وتوثق من نظرة قومه فيه ...

كل ما اصابت مكة من خير كان عن عمرو ، وكل شر اصيبت به لم ينفضه او يكفكف من حدته عنها سيد سواه .

كان هو الرجل الذى لم يخطىء فيه تقدير الناس ، لان الاقدار شاءت له أن يصيب . وكفاه جدارة بما أصاب أن قريشا كانت تسمع له وتلتف به ، وسلطانها ما زال في يد غيره من بنى عبد الدار .

ولم يكن هذا اكبرها سنا ، ولا اكثرها ولدا ، ولا اعزها اهل بيت بعد أن مالت عنه نفوس عبد شمس وبنيه ومن صانعهم وصانعوه ، وانما كان أكبرها قلبا ، واسمحها كفا ، وأعزها خصالا وطيب خلال .

وفي سنى الجاهلية كانت المكرمة الواحدة تشغل شاعرا أو راوية ، فما بالك بهذا الذى لم يكن ليعز عليه اتيان أية مكرمة من المكرمات؟..

***

كان ملاك نفس عبد شمس بيده ، لانه مداور داهية استطاع ان يصطبر ولكن ملاك امية ابنه أفلته لانه عجز امام سطوة الحسد ان يمسك بزمام نفسه .

وكان هذا أولى به لانه كان فتيا ، فيه خفة ، وفيه نزق وحدة واندفاع ، وفيه ولع بالمجد الذى اخطأ طريقه ابوه . ثم هو بعد هذا لم يخل قلبه من بغض لمن ظنه نافس أباه في ميدانه وحاز السبق من دونه . فقام يلعب الدور الذى جلس عبد شمس طويلا ينتظر عبثا أن تهيئه له الايام .

سقى عمرو فسقى امية ، واطعم فاطعم ، وأعطى فاعطى ، لا يدع وسيلة الا تذرع بها كي يفعل كفعله عسى أن يطير في الملأ ذكره كذكر عمه أو يزيد رفعة .

ولكنه كان دائما الصورة الخرساء للأصل الناطق . قلد وليس بوسعه الاحسان فأخطأه الاتقان !.

ثم كبا به فجأة عندما ضاق بالجود ماله المحدود .

وكان هذا حينما أصابت مكة سنة شديدة ، اذابت الشحم وبرت العظم واكلت اللحم . لم ينج من شرها حضر ومس ضرها الوبر . فذاق ذو الترف الطوى ، واضنك كل ذى سعة حتى لم يسمه الا أن يقبض كفه .

وجرى امية في السخاء شوطا ثم اقصر واقفز منه الميدان . ثم بقى عمرو وحده ملاذ البلدة الحرام ، لا يغلق باب داره دون الناس ولا يمسك راحته عنهم .. حتى اذا اشتد القحط بمكة ايما شدة ولم يعد في خيرها ذماء ، زم الرجل عليه دثاره ، وحمل ماله ، وشد رحاله وخرج بليل يضرب في الأرض الى مكان .

وأصبح الناس يسعون الى بيته فلا يجدونه فكأنما استلبتهم الدنيا ما بقى لهم من مأمل في الحياة . فلقد كانوا يدراون الجوع بجفانه والرزء بحنانه والشدة بايمانه .. أما وقد غاب عن عيونهم محياه فقد انطووا على انفسهم في ذلة ، طاوين . ينتظرون مصارعهم والاملاق يشد على الخناق ، والامحال ينذر بشر حال .

ثم فتحوا أعينهم ذات صباح ، وكلهم هزيل معروق ، لاصق البطن ، منهوك الذهن ، فاذا عير قيد الأبصار قد انتشرت على حد الأفق حتى لتوشك أن تملأ فراغه . واستبقوا اليها راجين ان يكون الله قد ساق لهم فيها خيرا . وراحت الابل في سيرها الوئيد ، تطوى ما بينها وبينهم مخلفة وراءها طريق الشام ، الكعبة مقصدها وغايتها ، وقد بدا ، يقود أولها بخطمه ، رجل ما وقعت عليه الأنظار حتى تصايح القوم من كل مكان فرحين :

« الفيض ! » .

« هذا ابو يزيد ! » .

« انه عمرو ورب الكعبة ! »

ثم التفوا به يتواثبون كالصبية حول أب بار عاد بعد طول غيبة ، ولم يتلبث هو بهم ليسألوه او يستخبروه شأنه ، بل مضى سريعا الى الوسق فانزله . والى الغرائز التى احتملتها ابله يحلها ، والى الخبز الذى كان حشوها يهشمه ، ثم أمر بالجفان فملئت ، وبهذه الابل كلها فنحرت ، واشتغلت في طهيها الطابخات اياما لا تخبو لهن نار .

***

عرفت مكة الشبع بعد الطوى والجوع ، وانجابت عنها غمة الأيام السالفة فتجاوبت نواحيها منة هذا الكريم الذى أحتمل امواله جميعا الى الشام فاشترى بها طعاما لناسه وما أبقى درهما لنفسه . وسرى ذكره في الآفاق حتى خبت امام جذوة اسمه الوهاج لمعة اسماء غيره من الأسخياء . قريش كلها تحدثت به بطاحها وظواهرها ، ثم الجيرة المتاخمة من القبائل ، ثم الاعراب في بواديهم والرعاة في مناخ دوابهم على الكلأ في الوديان والشعوب ، ومن وراء كل هؤلاء الجزيرة من طرفيها ما سار فيها ظاعن يتنقل معه الذكر اينما حل من بلادها في مكان .

لم يحدث مطلقا ان تحدثت الناس بمثل ما قالوا عن عمرو : نحلوه أحسن النعوت والصفات التى تعنى بسطة الكف ما وسعتهم أعرب اللغات ، فلما قصرت عن مرادهم الألفاظ اتخذوا له من فعله علما جديدا كانما قد أحبوا — اذ يدعونه به — ان يذكروا صنيع يديه حين هشمت لهم خبزه ليطعموا ، فكان « هاشما » مذ انعم لهم قدوره وجفانه حتى تلتئم في مستقبل الدنيا رقعة الأرض والسموات .

رجل تجسد كرما . وكرم جرى كلاما . وكلام انتظم سطورا طارت في جوانب الآفاق قصيدة طيبة الروى على كل لسان ، ندية الوقع في المسامع وفي الآذان .

ولكنه لم يسعد مطلقا بما أصاب من فخر وطيب ذكر ، وهو لا يفتأ يرى بعين خياله اشباح القحط تحوم دائما حول مكة ، وتهم ان تجتاحها مرة أو مرات .. انها بلد غير ذى زرع ، حبيس جبال وشعاب ، يستجدى الحيا أن يصيبه لماما حتى يبتل أوام أرضه فتنبت . فاذا أقلعت سماؤه انقطع ماؤه وراح نهبا للجدب وان يسر على أهله الحال احتملوا من سلعهم القليلة الى الجيرة من البلدان فساوموا وباعوا ثم عادوا ببعض ما ينفعهم وهو الكفاف أو ما لا يدانى الكفاف .

كان هذا حال البلدة الحرام في تلك الايام ، بينما على تخوم الجزيرة أمصار اوسع لها في الرزق وسهل عليها العيش . ولم يكن العسير على قوافل مكة أن تسير الى الشام أو اليمن او سواهما فتبيع وتبتاع وتصيب من الخير ما يستطاع . ورأى هاشم بثاقب نظره ان وقوع بلدته على الطريق بين شمال الجزيرة وجنوبها ، يهيىء لها مكانة مرموقة ، فلو جعل منها مجازا لتجارة الشام واليمن كلاهما الى الاخرى لأصبحت سوقا تجارية لا تدانيها بلدة عربية في الرواج .

ولهذا شد رحاله الى الشام فدخل على عاهلها يعرض أن يتبادل البلدان تجارتيهما ، وهو الضامن الا تعدو أعراب الطريق على قوافلهما المزجاة . وكان لهاشم عنــد قيصر الروم منزلة يسرت له أمره عند الحاكم ، فاقر عرضه ، وعقد واياه حلفا تجاريا . وعاد سيد قريش راضيا من الشمال ليتبع رحلته هذه بأخرى الى الجنوب ، ويعاقد أقيال اليمن على مثل ما تم من معاقدته هرقل الشام .

فلما اينع له سـعيه واثمر . رای أن يزيد قومه خيرا ، فأركب البحر اخاه المطلب ، رسولا منه الى نجاشي الحبشة ، ليربط بين البلدين بحلف تجارى آخر .

وراح اهل مكة بعد هذه المعاقدات يختلفون بسلعهم وسلع تلك البلدان الى الشمال والجنوب في الصيف والشتاء . واصبحت مكة سوقا تجارية عامرة ، يزيد ناسها على الأيام غنى وثروة ، بما اضفت عليهم رحلتا الايلاف .

٥

في احدى رحلاته قافلا الى مكة ، نزل امية بعيره على ماء في الطريق يستقى ويستريح . وكان متكرما لا يمسك كفه سعيا من وراء نباهة الذكر وحسن الأحدوثة ، فما استقر به ركبه حتى نحر واطعم وتفضل على أهل الماء بما أطلق السنتهم بمستفيض الثناء .

وجلس الرجل يسمر بين صحبه ، وقد التف بهم أصحاب الدارة يذكرون صنيعه فيزهى بمديحهم ويود في خاطره لو حضره عمه فرأى بعينيه ما لابن عبد شمس من مكانة في كلا الصحاب والأعراب ، رفعته الى شاوها كف ندية ، لعل بسطتها ــ فيما ذهبت اليه نفسه ــ لا تقل عن كف عمرو وان جرت بذكر هذه انهار السطور ووعت جودها البطون والصدور .

وأحب اعرابي من القوم أن يجزى امية عن فضله حمدا ، فهداه خياله الى التزام اسـلوب من الحديث فيه مسـحة من وقار الكاهن وفراسة الملهم . قال الأعرابى وهو يتفرس في أمية هنيهة :

« فيك من أجواد العرب والله لسمات » .

فابتسم له هذا يسأل :

« فمن أجوادها ؟ » .

« قريش » .

« فمن خير قريش ؟ » .

« أصحاب البطاح ، جيرة الحرم ، منابع الكرم » .

فازدهى امية الفخر وسره ان يطول بينه وبين الاعرابى الحديث ، وقال مؤمنا :

« أصبت . أصبت » .

« فمن أيها ؟ » .

« من قصى » .

« صاحب البيت واللواء ؟ » .

« وثلاث أخر » .

« فمن أى ولده ؟ » .

« من عبد مناف » .

« أعفهم لسانا ، واعلاهم بيانا ، وأقواهم جنانا » .

« وكان هذا وغيره للشيخ » .

« فأنت اذن أوسط قريش دارا ، واعزها جارا ، واذكاها نارا : هاشم وخلاك دم ! » .

فكأنما قد لسعت امية نار !.. هب واقفا من مكانه يحاول جهده أن يستر ما به ويدارى غيظه ، ثم سارع على عجل الى العير ، يلأم الركب للعودة ، وهو يهمس من بين اسنانه :

« تعس أمه !.. اخطأ الاحسان واصاب الاساءة ! » .

***

ثم استحث عيره ، فلما أقبلت به على مكة كان قد عاوده ما ذهب عنه الى حين من نفسه على هاشم وعظم حسده اياه . فما تريث الا بقدر أن حط على الاباعر حملها ثم راح يمنح بيمين وشمال . وتلفت الناس ماخوذين لهذا الكرم الذى جاوز المعهود في ابن عبد شمس

وعهدهم به العطاء بحساب . ولكنه بادرهم من لدنه بالجواب حتى انبرى يفخر او يدس بين المجالس من ذويه من يترنم بسماحته التى يحسبها تجب ما قبلها من سماحة الاولين . ثم زاد انسياقه لهواه ، فمضى يفاخر عمه ولا يثنيه عن هذا حق قرابة ، ولا وقار سن ، كأنما الجواد من كرمت كفه ، وان خست نفسه . وما كان لعربى ان يقطع الا لولا ان تكون موجدته قد بلغت به ابعد مدى واقصاه .

وراح هـذا الفخر يفعل فعله في نفوس أهل البيتين ومن انحاز اليهما من احلاف واتباع . واستمرت ناره واحتدم اواره . اما الفتية من آل عبد شمس فقد اغرقوا فيـه ، وانحرفت بهم الألسن حتى جاوزت المفروض من توقير أخي أبيهم وسيد آلهم والقوم اجمعين . واما هاشم فظل كعهده الكريم نفسا . هان عنده ما صنعوا فلم يلق الى مهاتراتهم بالا . وأما النـاس ــ وهم يعرفون من أمر الرجلين ما يعرفون ــ فقد عجبوا لقزم حاول أن يفرع ويستطيع على المارد الجبار طولاً فتناولوه بالدعابة والتندر حتى امتلأت بحديثه المسامر .

واغضبه هـذا أشد الغضب ، واعماه الحنق حتى مشى الى عمه يدعوه ان يتنافرا ويقيما بينهما من يحكم لايهما انتهى اليه الجود . واغضى الشيخ عن غضبة الغلام ، واتسع لسخفه حلمه فما زاد هذا أمية الا زهوا وتصعير خد . واشفق آل هاشم ومن تابعهم أن يسرى في العرب اغضاء سيدهم فيفهمه البعض كأنه احجام ويظن الجاهلون الظنون به ، فألحوا وتمـادوا في الحاحهم على هاشـم ليضع سـفيه عبد شمس عند حد محدود .

وما كان الناس اجمعين بحاجة الى من يرشدهم الى الأعلى بين الرجلين وان أصر اميـة على أن يقف امام عمـه في ميدان مفاضـلة وترجيح . وبحسـبهم ان خبروا الأول فراوا فيه خلقا هو صـورة خلقه ، بما اجتمع له من صفات لا تتصل بالحسن والوسامة ، وعرفوا الثانى مثلا لما يمكن أن تسمو اليه طبائع الانسان .

اصر أمية على منافرة عمه ، وبات لا يسكت له لسان ولا تنقطع مفاخرة ولا مباهاة . ولا يلقى رجلا من قوم الا صـور اغضاء هاشم وتعففه في صـورة النكوص خوف الخذلان ، فلما لج وابى الا ركوب شططه ، دعاه عمه ذات ليلة فقال له ناصحا معاتبا :

« يا ابن اخى ، ان لى سنا ، وان لى عليك حقا ، وقد بلغنى ما أحب أن أدفعه عنك ، فاتق الله في قالتك عنى .. » .

فلم تعطفه رقة الحديث بل قال ينطقه صلفه :

« ما تكلمت الا حقا ! » .

فابتسم الرجل الحليم وأجابه :

« انما شرفي شرفك ، وان تمسه لا تعز » .

« تعزنى كفى هذه ، وقد والله فعلت ! » .

ولوح بيده كأنما ينتهى اليها الجود ، فسارع هاشم يقول له :

« على قدرها يابنى ! » .

« وانها لخير الأكف » .

« في بنى ابيك ! » .

فما وسع ابن عبد شمس أمام لسع السخرية الا ان يغضب ويصيح :

« وفي عبدمناف ، فنافرنى » .

قال له الشيخ بهدوء :

« افعل » .

« فاختر حكما » .

« اختر لى ولك ، وانى لراض » .

وكذلك انتهى الأمر بين الرجلين الى الاحتكام ، وسارا ، القمىء الضئيل ينفخه كبره ويكاد من زهوه الا تثبت تحت قدميه الأرض ، والكريم المديد يملأه — الى جانب الثقة بنفسه — رثاء لهذا المكابر العنيد .

وقال سيد قريش ناصحا لابن أخيه وقد أوفيا على الحكم :

« يا ابن اخى ، انك تأبى الا المضى لما استبطنت ، وانى والله ما دعوت وما رضيت ، ولكننى لا آخذك بما قلت ، فان شئت ان ترجع .. » .

فقاطعه غير متريث :

« ما لهذا اتيت » .

« فشأنك . وانى اذن انافرك على ثلاث » .

« فقل » .

« انافرك على خمسين من الابل سود الحدق » .

« رضيت » .

« وانافرك على الا يأخذها احدنا بل تذبح ببطن مكة ويخلى بينها وبين الناس » .

« وهذه » .

« وانافرك على ان تخرج عنا عشر سنين ، لا تراك البلدة الحرام ولا تراها ان نصرت عليك » .

فلاح كأنما قد حال لون امية وغاض من وجهه معين الدم . هذا ما لم يدر له مطلقا في بال وما لم يحسب التحدى يصل الى مداه ؛ ولكنه امعن في الاساءة فحق عليه ان يجرع كأسه .

وقال هاشم بصوت رتيب لم تخف من نبراته رنة تهكم :

« فان احببت فشانك ، وان احببت ان ترجع عما دفعتنى اليه فاني والله لا آخذك بما قلت .. » .

فيالها من دعوة كريمة الى الاقرار بالهزيمة !..

واجاب امية وقد سد امامه طريق النكوص :

« بل اقبل » .

وما اسرع ان خسر بهذا القبول ، فقد حكم عليه واصابه الخذلان.

وخسر في التو ابله الخمسين ، سود الحدق ، ثم رآها تنحر امام عينيه ببطن مكة ويتغذاها الناس وهو يهيىء نفسه للرحيل .

وخسر الفخر الذى طالما استطار به وامضى السنين الطويلات في رفع ذراه .

ثم خرج بعد هذا خافض الراس ، مقهورا الى منفاه ، وفي قلبه يعتمل الحقد على عمه ريفور ، وخلف مكة خلفه تتحدث بما كان من خزيه ويسير منها نبؤه مع الركبان .

وحط رحاله بالشام نفيها من قبل كان اتجاره وفيها من بعد قامت دولة عريضة الجاه والسلطان من بنيه . وكان مثابرا دءوبا ، فلم ينس لحظة واحدة مطمعه السالف ، بل جعل شغله ان يصطنع ما عسى أن يعود به فيفاخر هاشما ويبرز عليه ثم يحتلبه ذلك الشرف المرموق . وفي حساب امية كان المال سلمه الى الغاية فيه يتالف اقلوب الناس ما عرفت كفه الأنفاق . وان امامه ها هنا في هذا البلد

لعشر سنوات طويلات أحر به أن يجمع خلالها ثروة ترفعه فوق هام قريش والعرب أجمعين .

وهكذا سارت به الأيام في دار غربة ما لبثت أن غدت دار صحبة ، كان حديث الناس فيها عنه مقياس بذله . وكلما تقلص الزمن زاد ثروة ثم زاد منعة ثم فوق هذا وذلك زاد حفيظة ومر حقد على ذلك الواتر القريب البعيد ..

***

ثم حسم الموت ما أثارته الحياة بين الرجلين من نزاع ، فقد مضى هاشم لسبيله ، على أعناق قومه ، الى منزل في الثرى نزله قبله ابوه ونزله جده ، وأصبح مثلهما على افواه الناس حديثا .

وعض امية غضبا على ناجذيه والبريد يحمل اليه مع خبر وفاة هذا العم الكريم المبغوض نبأ تولى عمه المطلب الأمر من بعده ، وعادت ذاكرته الى موقف هذا الوارث الجديد يوم احتلب بنو عبد مناف رفادة الحاج والسقاية من بنى عبد الدار ، وراحوا يتشاورون فيمن هو أولى بها فيهم . ذكر أمية هذا وذكر خذلان ابيه ذلك المساء لأن المطلب اشار بأن تكون لهاشم ، فما استطاع الا أن يمتلكه الحنق ويقول:

« المطلب ! رد عمرو عليه شطره ! » .

وقطع من بعد شوطه في الدنيا ثم طوته الأرض . ولكن الأيام لم تطو معه الحقد لان جذوره كانت قد امتدت الى القاع واثمر تراثا من الأضغان في قلوب بني هذا الرجل على بنى خاذل ابيهم وجدهم امر خذلان . فاذا دار الزمن وخلف شيبة بن هاشم عمه على امر ابيه ، فلقد أوشك اذن أن تسطع من سلالته شمس تضيء العالم ، ويعم نورها القلوب قبل الابصار ، وتأتلف حولها الارواح رويدا رويدا الا ارواح اولئك الحاسدين الذين أبى حقدهم الا التألب على نورها يريدون أن يطفئوه .

٦

مكة أصبحت لا تستطيع صمتا .. في كل ناحية جمع لعبت في حلوقهم الألسن فساد الهمس ثم علا كلاما . كل كلمة تتحدث عن عبد المطلب أو تطوف حوله وحول نذره . وقد كان القوم بدأوا أحاديثهم عابثين أو متندرين بشيخ قريش حتى رأوا العزم في وجهه فانقلب تندرهم جدا يغلب عليه الخشية والاشفاق . وبحسبهم أن رأوه يسوق أمامه أحب بنيه الى الحرم وقد أمسكه بيد وأمسك بالأخرى نصلا ، ولم يبق على ايفاء نذره وتحقيق ما وعد به ربه الا أن تمر السكين على رقبة الغلام .

وتألب الناس من كل فج . وتهاتف الصبية ، واستنكر الرجال ، وصاحت النساء ، ولكن عبد المطلب أبى الا المضى بشأنه ساكن القسمات طاويا في قلبه أساه . الا لو أن عبد الله عصى أو عارض لوجد الشيخ « مشيئة » قد توقفه أمام نذره !. ولكن الغلام كان راضيا ، طائعا ، شديد الرضوخ لينا في كف أبيه كالطين لو أحب أن يحيله كيفما شاء ما استعصى . وكان هذا الرضا اقرارا منه بحق عبد المطلب عليه ، ورغبة لا يشوبها طيف شك في ان يصل ما بين أبيه وبين ربه ولو كان هذا بوجأ عنقه .

ها هى ذى قصة تتكرر ، أعاد فيها التاريخ نفسه ، ونشر من صحائفه صحيفة مطوية سطرها الماضى ثم كررها الحاضر كأنما قد دبت الحياة ثانية في أبطال الغابر .

يتقدم عبد المطلب الى أحب ولده واقربهم الى قلبه فيقول :

« يا عبد الله ، انى نذرت لو استحيى رب هذا البيت لى عشرة من ولدى لأذبحن أحدهم له في بيته .. وانك انت يا بنى نذرى » .

فلا يزيد الفتى على ان يقول :

« يا أبت افعل ما ترى ولن تجدنى الا طائعا صابرا » .

فكأنما هذه كلمات اسماعيل عادت تتردد في اجواء مكة لأبيه ابراهيم بعد هذه الحقب المتلاحقة من السنين .

وكأنه تصنيف من القدر ان يعيد الصورة على هيئتها الاولى في

نفس البيت بين ولد وابيه كلاهما حفيد لباني البيت وابنه الذى فداه الله .

ولكن الذى فدا اسماعيل وقد همت به السكين شاء ثانية أن ينقذ سليل بيته الطاهر الكريم على نحو آخر من الفداء ..

مشى الى عبد المطلب أشراف قومه ، ومشى اليه آله ، ومشى اليه أخوال ابنه من بنى النجار يعرضون أن يدع الفتى حتى لا يكون ذبح الأبناء من بعده سنة في العرب ، ولآلهته بعد هذا ما ترضاه من فداء .

وتردد الشيخ حتى أفتاه كهان الدين بصحة ما يطلبون .

ورمى بالقداح على فتاه وعلى عشر من الابل هى دية النفس كما تواضع عليه أهل تلك الأيام .

وخرج قدح عبد الله فضاعف الدية عسى ان يرضى ربه .. ثم ظل يضاعف الابل مرة فمرات حتى بلغت المائة فبرز قدحها دون قدح الغلام .

ولكن الشيخ لم يقطع بصحة الفداء ولا برضاء ربه حتى رمى ثلاث مرات استوثق بعدها من نجاة عبد الله فنحر الابل ببطن مكة وترك لحمها لقى للناس أو لوحش السماء .

وأكرم الله من بعد ذكرى عبد الله فسن الاسلام دية الانسان مائة بعد أن كانت عشرة .

وعاد عبد الله بين اخوته الى بيته معافى . لأن الله اراد أن يستأخره لأمر عظيم .

***

اما الناس فقد اعظموا عبد المطلب غاية الاعظام اذ خبروا فيه تألها لا يخسر ميزانه ، وان كان حبه الولد جاء في كفة أمام حبه دينه .

وقديما راوا فيه من هذا التأله علامات سمت بها روحه على مثيلاتها وشفت كأنها ماء الصخور صفاء ورقة .

كان الرجل ذا ورع وتقية ، يابى الدنية ويعاف الصغار ، حتى لقد كاد أن ينسلخ بعذب صفاته مما عرف من خلال قومه الموغلين في الآثام . وكان يركب نفسه دائما بالزهد ، ويروضها على ما لا تحتمله الأنفس سواها ، استجابة منه لنزعة فيها ، لا تميل به وفرة المال ولا صحبة

الضلال . ولقد طالما ضمته المسامر فأغرق السمار في عبثهم فما انحاز اليهم ، وفي خمرهم فما ذاقتها شفتاه . وفشا الخنا فعزف عنه تعففا ، وذاع الفجور فتحصن .. وبغى القوى — وهو الأقوى — فأمسك كرما ، ثم ذهب يتلمس السبيل الى ضعيف يرعاه ويأخذ له ؛ أو جبار يقمعه ويأخذ منه ؛ وهو بعد هذا كله أحنى على الناس منهم على أنفسهم ، يسير فيهم سيرة هاشم أبيه حتى لم تجف على أرض مكة دماء الذبائح التى كان ينحرها طعاما للجائع الفقير ، ويحتمل منها الى الجبال ماكلا للوحش وجارح الطيور .

***

واما عبد المطلب فان روعه سكن ثابت نفسه وهو يرى رب البيت قد احله من نذره وابقى عليه احب بنيه .

واسرع بعد قليل الى داره يستقبل فتاه ، فلما لقيه شاعت في قلبه الفرحة حتى أضاء محياه ، وقال :

« يا بنى تهيأ فانا نرحل » .

« الليلة ؟ » .

« الليلة . وتخفف ، فلن يطول بقاء » .

وترك الفتى يتهيأ ، وراح وهو ينعم بحلم جميل طالما رقص في أخيلته .

ان كان ربه قد ابقى له عبد الله فلأمر يضمره أبقاه ، ولخير . وان عبدالمطلب مع صفاء روحه صفاء يشفى بها على مراتب الالهام لاتستطيع بصيرته أن تنفذ الى الغيب المكنون . ولكن نفسه ما فتئت تحدثه عن خير قريب مذ عاد من رحلة اليمن بعد سماعه نبوءة كاهن حمير ..

كان هذا ذات يوم غير بعيد وقد نزل عبد المطلب على صاحب له عظيم من عظماء حمير . وان مجلسه لما يستو به حتى اقتحم عليهما المكان غريب سدد خطاه الى سيد قريش كأنما كان مسوقا نحوه بقوة دافعة . وجلس عبد المطلب يرقب الرجل ساكنا ، فيراه يطيل التأمل فيه ، والتطلع الى وجهه ولمس شعره وملامح محياه ، حتى فاض عجبه وضاق ذرعه ، فصاح برب البيت :

« ما للشيخ المفتون ولى ؟ » .

واجاب المضيف في هدوء وعلى ثغره ابتسامة :

« هذا كاهن من اليمن قرا كتب الاوائل وله علم ، وما احسب الا له شأن واياك .. » .

فانفثأ غضبه وقال ضاحكا :

« سأنظر .. » .

ثم التفت الى الكاهن يسأله :

« فما ترى يا أخا حمير مما حدثتك عنى كتبك ؟ » .

قال الرجل بصوت أجوف عميق ، ولا زالت عينه على جبين عبد المطلب :

« أرى .. ملكا » .

فرد صاحب الدار :

« ما هذا علينا بجديد فانه سيد قومه » .

« .. وارى نبوة » .

« نبوة ؟ » .

فهز راسه مؤمنا وهو يتم لسيد قريش :

« نعم . وانها لفيك أو في احد بنيك » .

« فأيهم يا رجل ؟ » .

« في صاحب الغرة ، أو في المصهر الى زهرة » .

وخلف لهما المكان .

وكانت لعبد المطلب في راسه شيبة ، دعى بها في طفولته وكانت علما عليه ، بيضاء في منبت شعره من فرق الجبهة بين سواد شعره ، لعل الكاهن عناها بقوله . فان كانت الاولى فما عدا شيخ حمير ذو العلم ما تحدث به الناس لفرط ما عرفوا من تقوى سيد بنى عبد مناف حتى كانوا دائما يقولون :

« لو كان نبى على عهد عبد المطلب لكان نبى العرب » .

وان كانت الاخرى فما اقرب اليه من يثرب ، بلدة أمه ، ولن تعجز الابل أن تدركها فيصهر الى زهرة نفسه ، ولاحب ولده حتى لا يفوت احدهما هذا الخير .

ولهذا سرى بهما الركب على درب يثرب .

ولم يطل بهما هناك بقاء ، ثم عادا ولعبد الله آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة ، ولأبيه ابنة عمها هالة بنت وهيب .

ثم دار الزمن ينثر على الناس ما في وفاضه . وحملت هالة وحملت آمنة . ووضعت كلاهما غلاما ذكرا .

أما عبد المطلب فقد تلقفت كفاه وليده حمزة . واما عبد الله فقد شاء له ربه ان يطويه مثواه وطفله الحبيب جنين في بطن امه لما يكتمل نموه فلم تشهد طلعته مطلقا عيناه .

ولو انه امتد به اجله او استأخر شهورا قليلة لقرت عينه بغلام لم تمتلىء اعين البشر من قبل ، ولن تنعم من بعد بمثله ملاحة وحسن سمت وطلاقة محيا .

ولو انه استأخر أعواما لشهده فتى تلتئم قبائل العرب برأيه الرجيح وهى تمسك بأطراف برده بعد ان كادت تمزقها آراء شيوخها وسادتها .

ثم لو استأخر بعد هذا قليلا لعرف اى فتى في الرجال انجب ، ولطار به فخره كل ناحية وهو يرى ولده — بعد ان ضم العرب — يلم الدنيا حوله من أطرافها كثوب ، ويحتويها في كفه ، لا بحد السيف وشفرة السنان ، وانما بقوة اليقين وسطوة الايمان .

٧

ضجت العرب لو كان ينفع الضجيج أصحابه ، ثم جزعت ، ثم اجتمعت في نديها تتحدث وتقلب بينها الأمر . وما عسى يفيد الحديث في خطب واقع ما له من دافع ؟.. هذه الحبشة اقبلت من اليمن ، بعد اذ اذلت عزتها تنتشر جنودها كالجراد وهى تيمم بلدة البيت العتيق .

الا لو أنها أقبلت غازية لهان على قريش الكرب ولشمرت للحرب سراعا . ولكن ابرهة انما جاء قاصدا المسجد يريد أن يسوى بناءه بالأرض هدما ، بعد أن فشل عن تحويل وجوه العرب عنه الى معبده الجديد : القليس .

وانتظر القوم على مثل الجمر عودة عبد المطلب وفي قلوبهم تتراوح الآمال . لقد ذهب الى لقاء الغازى العاتى عسى يستطيع بحسن تدبيره أن يصالحه على ما يبقى لهم بيت ابراهيم ، وجلسوا يتهامسون في صوت خفيض وهم يحدسون . واذا سيد قريش قد طلع عليهم وعلى وجهه عبسة توشك أن تنطق بان الشر لا معدى عنه ولا مناص . والقوا اليه

الأسماع والأبصار وهو يشق طريقه في الجمع ، ساكتا لا ينبس حتى أعداهم صمته ، فجمدت على أفواههم كلمات هموا أن يستنبئوه بها ما تم في اللقاء . واتخذ بينهم مجلسه ، ووقفوا حوله متلهفين للانصات أو الكلام بعد أن ران السكون على النفوس ، وثقل عليها كالصخر .

وقال هو بعد قليل ، بصوت فيه رهبة وحزن :

« يا قوم . ما أرى الا أن تخرجوا عن مكة الى الشعاب » .

فأجفلوا وانطلقت عيونهم تدور بينهم ، ذهبت ريحهم اذن وقضى الأمر وما هي الا ساعات حتى يجدوا الحبشة في ديارهم مصبحيهم .

ولكن الحمية ، أو ارادة الخلاف ، أخذت حرب بن أمية فصاح :

« فالحرب والله اجدى يا أبا الحارث » .

قال عبد المطلب بنبرات هادئة لم تغب عنها السخرية والتهكم :

« قول هين وهلك أهون ! » .

وقام عنهم . فاذا بهم يلاحقونه ويلتفون به كأنما كان لهم صخرة النجاة وكان حريا بهم أن يثوبوا اليه بعد اذ خبروه زمانا فعرفوه صادق النظرة نفاذها الى عقبى الأمور كمن يتحدث ويصدر في أعماله عن وحي . اما وقد قال قوله فلم يبق لهم الا احدى اثنتين : اما طاعة واما فناء .

وقال لهم ورجله خارج الباب :

« الا انى لكم نذير من كربة يوم عظيم ، فما لكم بصاحب الفيل طاقة » .

فسأله رجل منهم :

« فما قلت له وما قال لك ؟ » .

« ما قلت ولا قال ؛ ولكني طلبت ابلا لى أصابها في مرعاها ، فأعطانيها » .

فكأنما لمس عصب الغضب في نفوسهم ، وتصايح الكثيرون ولغطوا ، وانبرى له من بينهم حرب يسخر .

« تمنع الابل وتدع الحرم ؟ . . يا أبا الحارث ما كنت رشيدا ! . . » .

« اما والله لم يفتنى الرشد . . ابلى أنا ربها ، أمنعها ، وقد فعلت . أما البيت فله ربه يمنعه ! » .

***

واستمع القوم له ، وعملوا بما اشار به فما لبثت جموعهم أن خرجت الى شعاب مكة تمتنع فيها من الغزاة ، واخرج عبد المطلب آله وماله وساروا جميعا الى الجبال .

وخوة البلدة ولكن شيخها لم يدعها حتى جاس خلالها يستحث المتخلفين على ان يبرحوها . فلما لم يبق بها ساكن اعتلى شعبا اشرف منه على نواحيها وراح يتطلع الى يمين ويسار ، ويمعن النظر فيما يبدو امامه وفي همه ان يعرف من أى فج سوف يدهمها عدوها . ولم تغمض للرجل عين طوال ليلته ، ولم تسكن حركته لحظة . ثم بدا في أفقها الصباح ينشر بياضه ومعه انتشر على مدى البصر سواد يتحرك ويقترب رويدا حتى كاد أن يبلغ أطراف مكة . وسارع عبد المطلب فنزل يهرول ، وانحدر كالسيل منطلقا صوب البلدة الى البيت العتيق يمسك حلقة بابه فيقرعها بقوة وهو يرفع الى السماء عينين فيهما دموع يسيل صيبها على وجنتيه ويبل لحيته ، والرجل يردد على دوى الدقات .

لا هم ، ان العبد يمنع حله ، فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم ، غدوا محالك
ان كنت تاركهم وقبلتنا .. فأمر ما بدالك !

ثم عاد مهرولا كما جاء الى مكانه من الشعب وقد كادت أن تطأ طليعة الجيش أطراف ثوبه .

***

ووقف الناس ، من عل ، ينظرون معقولى الألسن . لقد نصحهم حقا سيدهم فما لأحد من العرب بمثل هذا الجيش قبل ، وما منهم واحد راى فيلا ، قبل يومه هذا ، يجيش ويتخذ عدة حرب . وهذه الحبشة قد جيشت فيلة ضخاما ، اقبلت تدب أمام الرجال فتهتز لسيرها الأرض ، وعلى راسها دابة منها هى أعظمها جثة وانفسها ثوبا ، كانت مركبا لأميرهم أبرهة الأشرم .

ثم وقف الناس ، من عل ، ينظرون ثانية معقولى الألسن . ما للفيلة تحجم ولا تقدم ؟ وما للجند يتهافتون وتكل تحتهم الأرض فيسقطون على الأديم صرعى بغير سيف ولا مرماة ؟ وما للجيش كله

ينتفض بعضه على بعض ويسوده هرج لا يعرف مأتاه ؟ في مثل اللمح امتلأت الاجواء بصرخات الجرحى المفزوعين والأرض بأشلاء القتلى المجندلين من جيش الغزاة ، وفي مثل اللمح التوى الأمر على اجناد الحبشة وقادتهم كما التوت اعنة افراسها وفيلتها حتى ارتدت مولية بينهم تطأهم سنابكها وتحصدهم حصدا .

وامسك أهل مكة انفاسهم تهيبا . وقفت شعورهم رهبة بادىء الامر ؛ ولكنهم لم يلبثوا حتى تصايحوا فرحين اذ منع الله بيته ، ومنع بلدته . وارسل من لدنه جنودا لم يتبينوا منها الا كمثل الحصى يأتى على جناح الريح من ناحية البحر ، ولا تصيب حصاة منه رجلا الا كفأته هامدا أو نفذت من بعض بدنه ، ثم تركته يحشرج . وتسابق القوم من بعد الى عبد المطلب يلتفون به ويقبلونه . وقد تقدمهم اليه حرب بن امية ينطق بما ينطقون ويقول :

« صدقت والله يا أبا الحارث فقد منع الله بيته .. »

وقد صدق أبو الحارث حقا وتحقق في هذه المرة ايضا حدسه الموفي على الالهام ، فعاد الى مكة جأشها وبقى بيتها في الأوابد ، منعه ربه أن تمتد اليه يد بسوء ليكون في قابل الأيام مطاف خيرته من أهل الايمان ، وان الذين اقاموا بالشعاب خلال ليلة الخطب تلك عساهم لم يلقوا الأبصار الى وليد في ثاني شهوره كان بين جموعهم المستعصمة بالجبال . ولو رأوه لحسبوه وليدا كأى وليد ، ولكنهم لو استطاعوا قراءة الغيب لعرفوا أن وجوده بينهم كان رحمة من عند الله . وان بقاءهم بعيدا عن متناول أكف الأعداء ذلك اليوم العصيب كان أثرا من آثار يمن الصغير . وان ربهم شاء لهم هذا لأنه اراد أن يستأخرهم ليوم معلوم يشب فيه الوليد وينطلق بهداية الله داعيا الى نهج جديد قويم لم يأت بمثله انسان سواه من قديم ، ولن يبعث بمثله احد غيره ما بقيت الأرض والسموات . حتى اذا رنت اليه الاعين واصاخت الاسماع ، استطاع بقوة قلبه أن يؤلف حوله هؤلاء الاعراب الجفاة ، ويدفعهم في شعاب الأرض يحملون عنه مشاعل رسالة تضيء طرائق الحياة ...

***

ولئن بلغ ابن هاشم بعد هذا مبلغه من الهيبة في قومه ورفعة الشأن ، فان نعمته كانت جديرة بحسد الحاسدين . ولن يعجز التاريخ ان يكشف عن حاسد لعبد المطلب ما بلغه ، حاقد على مكانته في الناس ما دامت نواة الحسد له ولآبائه قد نمت دوحة في بنى عمومته حتى فرعت . فكما وقعت البغضاء في الأصول دبت ديدانها في الفروع والأغصان . وللوراثة دائما في النفس . كمثله في ملامح الأبدان . وما عبدالمطلب الا من هاشم ، وما حرب الا من امية وعبد شمس !..

وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه .. ان امية لم يبلغ وطره من عمه، الذى اخرجه منفيا من مكة ، ولم يبلغ ثأره . ولكنه خلف لبنيه تراثا من الأحقاد وفع حربا الى التوسل بالتوافه لمخاصمة عبدالمطلب . وكما ذهب امية يستطيل على هاشم ويستعلى ثم يستنفره ان ينافره ، فكذلك ذهب أيضا حرب يسير في سبيل ابيه . ولم يكن هذا عن ايمان بعلوه او ثقة بفضله ولكنه كان ارضاء لقلبه المفعم بالحقد الموروث .

ولكنك لن تجد للمبطل منصفا في ذى انصاف . ما مشى الرجلان الى نفيل بن عبد العزى يحكمانه بينهما حتى صاح بحرب صيحة المغيظ الغاضب :

« يا أبا عمرو ، اتنافر رجلا هو اطول منك قامة . وأعظم منك هامة ، واوسم منك وسامة ، واقل منك لامة ، واكثر منك ولدا ، واجزل منك صفدا ، واطول منك مذودا ؟ اما والله انك لمبطل كما كان أبوك » .

فما استطاع ذاك الحاسد المغلوب الا ان يقول :

« فدع ابى عنك يا نفيل فانه ليس بشر من أبيه .. » .

« هيهات ان يقرنا ، او تقرنا ..

ابوك معـــاهر وابوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام »

فانتفض حرب مقهورا،وهو يهمس من بين اسنانه اذ يغادر المكان:

« ان من انتكاث الزمان ان جعلناك حكما ! » .

كأنما لم يكن من انتكاث الزمان ان يطاول عبدالمطلب او يحسبه ندا !

ومع ذلك فقد كان في هذا الفرع من عبد مناف اجتراء على الحق حتى لا يدفعهم عن امعانهم في الابطال دافع . وانهم ليرون دائما في باطلهم حقا وفي حق غيرهم نهبا هم الاحقون باستلابه . ولسوف نراهم

يركبون كل مركب الى أهدافهم ولا يقعدهم عن التماس غاياتهم لوم الناس ، بل سيشهرون السيف ويعقلون الألسن ويمضون قدما الى زمان غاب منصفه وكثر مرجفه فنصبوا فيه حكما هم اعلم بحكمه لهم قبل نطقه به . ولن يكون هذا رجلا كنفيل وانما رجالا او صور رجال جبلوا هم طينتهم كما شاءت لهم أهواء النفوس وصاغوا منهم دولة عاتية بين قرني الشمس . وحتى تؤذن تلك الفترة سنراهم دائما سباقين الى ري دوحة الحقد التي كانت نواة لتظل مورقة ابدا شائكة ابدا ... ولتصيبن اشواكها حتى ذلك الوليد الذي سطع ضياؤه في الأزل قبل خلق السموات ، ولتدمينه وان تقدم اليهم ببرهان الله لأنه لم يكن مثلهم من عبد شمس وانما من هاشم !.

٨

أكانت تلك مكرمة اخرى من القدر آثر بها آل هاشم دون غيرهم من بيوتات العرب في الجزيرة فأضاف بها الى مفاخرهم ، أم هي الصدفة وحدها لعبت دورا ؟.. في كل ما فات بالدنيا من افرادهم نرى صفحات من الحياة ، تلتمع امام البصائر التماعا : رجالهم في الرجال سادة تهوى اليهم الأنفس وتستظل من محامدهم باورف ظل . فيهم الشريف الماجد . والكريم الرافد ، والتقي العابد الى اشواط لا تبلغ غايتها افراس السجايا عند سواهم من خيار الناس ... ونساؤهم في النساء أعلام الصفاء وصحائف النقاء . لم يخض مطلقا في ذكرهن لسان الا بثناء في أيام كان جل نسوتها متهمات مشوبات السير والأعراض بغير تحيز ولا اغراق ، وان في هذا كله لسرا لن تلبث أن تكشف عنه حياة فرد منهم اصطفاه ربه لينحدر من اصلابهم ومنهن فاختارهم جميعا — من اجله — اعفاء مطهرين ، جديرين بانجاب سيد الخلق أجمعين .

ولكن المكرمة الجديدة صافت رجلا من بني هاشم ليس بالموسر فيعزه ماله ، ولا بالمنجب فيحمله عياله ، بل كان الى الحاجة أميل منه الى الثراء . لا يملك الا نسبا وطيب خلة ، ولا يستطيع — لو اراد — أن يستطيل على قريش او يسبقها وفي أيدي الكثيرين منها عدة من عرض

الدنيا ونشبها ترجح عدته ، ليس يعوز قوما تيسر لديهم المال أن تنسى لهم خفضة النسب أمام الناس ، ما استطاعت اموالهم أن تعطف عليهم النفوس وتملك الحواس .

اجل لقد واجه ابو طالب دنياه فقيرا ، ومات عبد المطلب عنه وهو بعد في نحو من السن لم يكن كدحه قد افاء عليه من الخير ما يشتهيه . ولم يورثه أيضا سيادة القوم لأنه أوصى لآخر من بنيه هو الزبير . فلئن اقبلت الدنيا على هذا الفقير فحبته بمكرمة هى آية المكرمات فقد كان هذا من القدر غاية المرتجى عند ذى رجاء .

***

كان اقدس الارض عند العرب مكة . وكان اقدس مكة بيتها العتيق . وكان اقدس حرمها هذا الكعبة لا يطوف بها من القوم الا محلق مغتسل طاهر مع ما كانوا فيه من الامعان في الضلال والمباهاة بسوء الخلال . وقد مضت عليهم الأحقاب تتلاحق — مذ ابتناه ابراهيم — وهم لا يعدلون ببيتهم شيئا حتى ليتحرزوا ان يذكروه بغير اعظام في ذات أنفسهم سرا ومناجاة وهم يأمنون على اذهانهم السميع الرقيب . ولو احبوا لأمر من امورهم نفاذا لأبرموه فيه أو بجوار استار كعبته ، كأنما يشهدونها على خلوص النية وصدق العزم على المضى في انفاذه لانهم قد اكسبوه من قداسة ذلك المكان . فكل ما جاور الكعبة مقدس أو حرام أو هو موف على غاية التقديس والاعظام .

كذلك كان الشأن لدى العرب لا فرق فيهم بين خاصة ودهماء . وانهم جميعا ليحملون الأمور على معانيها قبل مبانيها ، وعلى جواهرها قبل مظاهرها ، فاذا تم لأبى طالب الفقير المعسر بعض امره في جوار كعبة الحرم ، فان امره هذا لجليل في عيون القوم لانه اكتسب ابلغ شرف بأشرف جوار في اقدس دار ، فكيف لو تم له امره ذاك بغير سابق ترتيب منه ، بل بصدفة هى عند أولئك الناس منة من الله وحظوة أراد أن يشرف بها ابن عبد المطلب كما لم يشرف بمثلها قبله أو بعده من الرجال كثير ولا قليل ؟

***

تلك ليلة فذة في الليالى ، اضاء نجمها على الدنيا مرة ثم لم يقدر بعدها لضوئه ان يبزغ ثانية كمثل بزوغه لأن مثيلاتها لا تعود . ولكن ضياء اشد لمعانا من نور النجم توهج ، ثم سطع ، ثم فاض بنوره على الآفاق سيرة كوجه الشمس رفافة الاشراق .. سيرة ان فاتها ان تنفرد وحدها بالمبنى الساحر فقليل سواها ضم ما كان لها من معنى قاهر ، بل اقل القليل ، بل الأندر منه . ولو انك استطعت ان تتحلل من شباك الزمن وتنفض خيوطها عنك ، وسبحت عائدا الى الماضى لرأيت ابنة أسد — فاطمة — تجول بالبيت الحرام تلتمس البركة ، لأنها سيدة تجمعت فيها مزايا آلها الكرام وامتلأ — كمثلهم — قلبها طهرا . ثم لرأيتها تأتى الكعبة فتطوف بها مرة فمرات متمسحة بأستارها آونة مقبلتها أخرى . ولكنك لا تلبث حتى تشهدها وقد أوشك أن يصيبها اعياء تكاد أن تنوء به ، وتنكر هى — بادىء الأمر — ما تحسه ، ثم تمضى متجلدة تستحث نفسها وتستنهضها . ولكنها رغم هذا لا تقوى ، ولا تستطيع أن تقوم عودها . واذا هى تتشبث أصابعها بأستار الكعبة تستعين بها وقد اخذت تحس شيئا غاب عن ذهنها ، وتقف مجهودة لا يستقر بها موطىء القدمين ، كمن على طرف كثيب رخو من الرمال . وتجيل فيما حولها عينا حائرة لعلها تبصر زوجها أبا طالب يسعى هنا أو هناك فتجد لديه عونا على ما تلقى ، ولكنها لا تراه لأن ما حضرها في هذه اللحظة غاب عن حسابه ..

ثم لعلك تتبعها وقد خشيت هى ان تلقفها الأبصار المتطلعة ممن حضر من اناس كان دابهم الاجتماع في اروقة البيت وفي افنائه فاذا رأيتها قد انحازت ناحية ، ودلفت الى أستار الكعبة فتوارت خلفها عن عيون القوم فكفاك ما شهدت . وقف منها على ملقط السمع دون مرمى العين لأنها شاءت أن تتخذ من الستر المقدس ردءا . واسمع بعد هذا حسيسا خافتا يأتيك من لدنها . وانينا يحكمه الجلد واصطناع الاحتمال ، وصرخات مكتومة تكاد ان تصلها الأذن كأنها تأتى من مهوى سحيق بعيد القرار . ثم اسمع نبرة بكاء تخالط هذه الصرخات ، لها غير جرسها وغير رنتها ، رقيقة ، رنانة في غير حدة ، كأنها شدو طائر تفتحت عيناه على شعاع فجر اسفر او اوشك على اسفار . وقد يأخذك العجب ، وتملكك الدهشة ، ولكنه عجب قصير اجله ، ودهشة

لن يطول بك مداها ما دامت فاطمة قد بدت ثانية لناظريك ، واهنة ، واشد ضعفا مما رأيتها من قبل ، كسا وجهها الشحوب ومشت في اوصالها رجفة الاعياء ، وقد احتملت ـ مدثرا بستر الكعبة الشريف ـ وليدها بين صدرها وكفيها .

***

تلك ولادة لم تكن قبل طفلها هذا الوليد ولم يحز فخرها بعده وليد اكرمه بها الله واكرم امه وأباه ، فكان تكريما لفرعى هاشم الذى انحدر منه الطفل عن فاطمة وعن أبى طالب حفيدى الأصل الثابت الكريم .

واقبل القوم ـ حين انتبهوا ـ يستبقون الى السيدة ، يعاونونها : ويأخذون بيدها ، ويملأون الأبصار بطلعة ذاك الذى كان بيت الله مولده ، وستر الكعبة ثوبه ، كأنما اوسع له في الشرف باجتماعه في كلا المولد والمحتد وهم لو استطاعوا أن يسبقوا زمانهم كما تأخرت انت لراوه أيضا يجتمع له نفس هذا الشرف حين يقبل عليه الموت فيلقاه في بيت الله يهم أن يقوم بالصلاة ...

اما فاطمة فقد احبت ان تحى في وليدها اسم أبيها فدعته بمعناه وان لم تدعه بلفظه ، وقالت لزوجها وهى تحاوره :

« هو حيدرة » .

واما أبو طالب فقد كان اكثر توفيقا حين اختار . راى وليده قد علا شرفا بمكان مولده كما علا من قبل بأصله الرفيع فقال :

« بل على » .

وبدات عند هذا حياة الرجل الذى ساير اخطر الاحداث في هذه الدنيا ، وعاشر اطهر الخلق وسيد النبيين ، واحتمل نصيبه من عبء كبير القاه الله على مختاره الأمين ، الذى خصه بوحيه ورسالته الالهية لهداية العالم .

وعاش على عمره لغيره من المثل ومن الرجال ، فكان في صباه القريب المفتدى ، وفي شبابه الصديق المقتدى بالنبى الكريم ، وبين هذا وذاك من أطوار العمر وما جاء في أعقابها من فترات ، التزم غايات الكمال في الفعال والخلال ، فلما انطوى بعض اجله ، ومضى من الدنيا وعن هاديه ، كان المعقب له وقد ذهب المعقب . واجل من اخذ عنه فأجاد ، وركب جادته فما حاد .

شروق

« يَأيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنْ تَنصُروا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقْدامَكُمْ ، وَالَّذينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أعْمالَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أعْمالَهُمْ » .

١

الفتى حائر الفكر ، بين كفيه امسك رأسا يحسب فيه من الخواطر ما يملأ كل هذه الفجاج لو تركها تنثال على رقعة الرمال المبسوطة امام ناظريه عن يمين وشمال .

ثم رفع الى السماء بصره . ليته بها يستهدى ـ هذه الأنجم الزهر التي يتخذها راكب البيد دليلا ... ولكنها بدت خابية . وحالت الألوان فيها الى مثل الفضة كساها من الترب كساء . فلقد بدا له نور المشرق كما انفتحت كوة في القبة فوقه واندفع منها الضياء وئيدا وئيدا نحوه ، تلمع تحت سيله مكة ويغمرها منه غامر الحياة .

وكان صاحي اللب ، ما انتبه حتى تحولت عينه الى هذا المبنى المقدس الذى بان له من قريب ، شامخ العمد ، فسيح الرحبة ، في اوسطه الحجر الأسود الذى وضعه محمد حيثما وضعه من قبل جده ابراهيم .

ها هنا كان قديما محراب الله ، فكيف أصبح ليراه محراب العزى ، أو اللات ، او ايما اسماء نحلها قومه حجارة لا تنفع ؟ .. أو لم يصدقه محمد ؟ الا ان محمدا عنده غير متهم ، شادت بصدقه العرب جمعاء حتى أصبح « الامين » عليه علما ، وسرت ـ كلما سار ـ بين القوم همسات اكبار واعجاب ليحسبها الفتى تند عن تاج يزدان بمفرقى ذلك الصادق الحبيب لو جمع أناسه في الزمان ملك مدعم . ولكن محمدا كان عزوفا ، قام ليله وعاف الرقاد زلفى الى رب جده بانى البيت . وعمل نهاره من أجل صغاره ومن أجل هذا الربيب الذى ضاق به طوق ابى طالب فاحتمله فضله . وانه ليخصف نعله ويخيط ثوبه بيديه لا يغريه بالدنيا عرض أو مأرب . وانه ليكدح كدح العامة ولو كان له مندوحة من مال خديجة ، وانه لتمر به الايام لا يتزود فيها بسوى تمرات جافة تقيمه وتعينه على القيام بأمر ربه ... نأى بنفسه عن ترف القوم وخمرهم ولهوهم الى غار

في الجبل أعواما ، صادفا بها عن جهالات قريش وأربابها المقدودة من حجارة صماء الى رب واحد ما له من شريك .

ما كانت دعوة محمد بغريبة عن قلب الفتى ولا بالتى يعاف جرسها سمعه . فانه ، وان يك لم يتجاوز حلمه الا قليلا ، قد كان يشعر في قراراته أنه غريب في معبد الأصنام ! .. انه لم يول وجهه شطرها مرة ، ولم يتولها بالتقديس كما فعل ذووه ، ولم يطف بساحتها طوفة أو الم بهيكلها من قريب أو من بعيد . ولم يدر اكان هذا الهاما من الله ام هو جرى في اتباعه مجرى ابن عمه مربيه .. ولعل الثانية أرجح . لأنه يذكر ما يأخذ به نفسه بين الفينة والفينة من تقليد محمد حتى لاصبح من فرط تعلقه به واتخاذه قدوة يصوره اصدق التصوير في الكثير من الفعال والحركات .. يهش ويفرج عن ثناياه ولا يلقى الناس عبوسا ــ تماما كما تضىء البسمات وجه ابن عمه ــ ويسير على نمط سيره فيتكفأ في مشيته وهو يسرع كأنما لا يحده في انصبابه حد .. فلعله اذن ما نأى عن اصنام القوم الا اقتداء منه بهذا الكافل العظيم .

وعاودته في مكانه ذكرى الليلة التى أصبح عليها صباحها الآن فما ملك الا ان يبسم متعجبا من شأن نفسه . كيف أباح لفكره أن يرجىء تلبيته دعوة الحق التى اليها دعاه النبى بحجة أنه سيشاور اباه ؟ .. الا لقد اخطأه التوفيق وضل نهاه وهو الحرى بأن يسبق بالاستجابة تلك الدعوة الى عبادة رب ابراهيم .

... كان قد دخل الحجرة كما اعتاد ان يفعل ليأنس بجلسة الى ابن عمه بين خديجة الرءوم وفاطمة الصغيرة ، فما راعه وهو يدفع الباب الا أن رآهما يركعان ويسجدان والطفلة تتابعهما بالمحاكاة . وتوسم فيما يأتيان خشوعا ، وتوسم عملا غير مألوف ، فوقف في مكانه لا يبرح . ومضت الى سمعه قراءة ساحرة ، يرتلها محمد بصوت عذب ، ما سمع مثل طلاوتها ، ولا رنتها ، ولا بلاغتها من قبل . واخذته من الكلمات نشوة لفت مشاعره فلم ينتبه الا وكف ابن عمه على كتفه تلمسه لمسا رقيقا وتعيده الى نفسه . وعاد هو من عجبة الى الاستفسار يستوضح محمدا ويستزيده مما سمعه . وانست روحه للترتيل . وامتلأ قلبه بما فاض به الآى الحكيم من روعة

معنى وحسن بيان ، وهو بعد هذا ينتقل مع الآيات الى آفاق جديدة فيها هداية ونور . الا قد صدق محمد حقا . وما كانت هذه الآيات بالتى يستطيعها بشر بل هى من كلام اله .

وابتسم ثانية استحياء اذ تذكر هذا وتذكر ما قاله حين دعاه محمد الى متابعته ونبذ عبادة الاحجار الصم الى عبادة واحد قهار ، يسمع ويبصر ولا تدركه الأبصار ... ابتسم استحياء لأنه ذكر جوابه وما كان أعجبه من جواب .

قال كما اعتادت أن تقول ألسنة امثاله من الصغار :

« أمهلنى أشاور أبا طالب » .

فابتسم له ابن عمه بسمة حانية كلها عطف ، وربت كتفه راضيا ، ثم تركه عساه أن ينطلق الى أبيه فيتزود منه بالراى قبل ان يفصل في مصير دينه بقرار .

***

ولكنه لم يغادر البيت وان ترك الحجرة ، ولم يشاور ابا طالب ، وانما قضى ليله كالمحموم ، تحت السماء يقلب الأمر في عقله ، اما وقد استبان له الرشد الآن كما بان ضوء الفجر الوليد في أطراف الأفق الادكن ، فان به لشوقا أن يقتحم على محمد حجرته فيطلب منه ان يقبله في الدين الجدبد عابدا جديدا .

ونهض على وسار يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبى . وأشرف على الحجرة فمنعه حياؤه أن يدخل . ولم يجد بدا ان يصرف عن نفسه الحاح الشوق الى حين ؛ فبرح الدار وضرب هنيهة أمامها ثم انثنى الى الدرب فاذا صحبة من فتية قريش تبرز في غبشة الصبح يرونه فيهتف احدهم به :

« حيدرة ! » .

فلا يطيب له سماع الاسم الذى خلعه عن نفسه من قديم ، ولا يطيب له أيضا أن يعتكر خواطره الصافية حديث . ولكنه لا يستطيع ان يجد منفلتا من الصبية وقد قاربوه وسأله منهم سائل:

« بكرت يا ابن ابى طالب وانه للسعى الى البيت ؟ » .
فيوجز – متبرما – الجواب :
« ما اليه ! » .
« فهلم معنا ، ما لم يحبسك حابس ، فانا سنطوف به » .
« لك شأنك دونى » .
وكان صاحبه يعلم انه لن يفوز منه الا بهذا الخطاب . فضحك معاتبا وقال :
« عجبا لك يا ابن ابى طالب ! تضعك امك في حرم الاصنام » .
فأسرع يقطع حديثه ويقول :
« في حـــرم أبى ابراهيم ، أما صواحبكم تلك فأكرم عن مرآها وجهى ! » .

وود في تلك اللحظة لو استطاع ان يفتح عيون هؤلاء العمى ليروا النور الذى أخذت تباشيره تبزغ من افق محمـــد ، ويحدثهم بهذا الدين الجـــديد الذى علم به ليلة الأمس عسى ان يتبعـــوا الهـــدى والصواب . ولكنه أمسك لانه ليس بعد في حل من ان يفشى على ابن عمه أمره .

وانثنى عن الطريق مخلفا أصحابه لشأنهم ليعود الى الدار . فاذا محمد يهم أن يبرح . واســـتقبله النبى الكريم هاشا ، يمد نحـــوه ذراعيه ، وفي عينيه من ضياء حنانه فيض ، وتوقف الفتى امامه برهة اخذه فيها الحسر حتى لا يعرف بأى الكلمات يبدأ الحديث . وترفق به محمد لا يسأل ولا يتعجل : بل يدعه حتي يجمع شتات ذهنه .
ويقول الفتي وقد هدأ جاشه :
« يا ابن عمى ، انى سمعت واجبت ، وانى اشهد بشهادة الاسلام أن لا اله الا الله ، وانك لرسوله » .
فانما كان بهذه الكلمات سحر . ما ان جاوزت شفتيه حتى احس بذاته خفيفة رقيقة لها لطف النســـمة . تكاد تعلو به الى الطباق وتسرى محلقة في الآفاق .
وابتسم له محمد ، ومسح بكفه على رأسه وعلى صدره . وخشى على في هذه الاونة ان يطوف بظن نبيه انما كان اسلامه بمشورة ابيه فسارع يضيف :
« يا رسول الله ما كنت لأسمع لابى طالب او اشاوره في ديني ،

فقد خلقني الله ولم يشاوره في خلقى ! .. آنى هديت يا رسول الله بك الى ربى فلأعبدنه ابتغاء وجهه ... »

***

وانبسطت للفتى رقعة الدين الجديد وما كان ليقصر عنها باعه وهذا باسطها دائما أمامه . ورويت بفضائل الاسلام روحه من نبع محمد . فما تنفس صبح الا تلمس وجهة النبى ، وما جن ليل الا ادلج خلفه كظله ، وهو في هذا لا يملك الا أن يكون مستخفيا بدينه عن قومه على سنن صاحبه . ما كره أن يعلم عنه انضواؤه تحت راية الاسلام وانما خشى أن يذيع عنه ما لم يرد محمد له بعد أن يذيع ... وكتم في نفسه أمره وهى جياشة به ، حنانة الى اشهاره عسى أن يهدى الله به من يعرفه الى مثل ما هداه . ولكنه كان دائما يمسك عن الحديث كلما اراد اخوانه أن يستخبروه بعض ما شاع من الشائعات حول محمد ودينه الجديد . واكتفى سنوات ثلاثا طويلات الأيام والليالى بألا يكشف عن سره الا لحراء حين يتبع اليه صاحبه في الأمسيات مع من سار كنهجه من أوائل المسلمين حين يقضون حق ربهم بمنأى عن عيون المتربصين ... حتى أبو طالب نفسه كان بعيدا ايضا عن ذات نفسه بعد قومه ، لا يعلم عنه الا ما تتلقفه الأسماع وتردده الشفاه حدسا .

ولكن السر الذى حرص طويلا على كتمانه آن له أخيرا أن يذيع . ولم يتوجس على خيفة من هذا بل اشتملته الفرحة وطابت به نفسه . انه كان دائما فخورا بأمه التى تفتح قلبها للدين الجديد تفتح الزهرة لندى الصباح . فخورا بسبقها بنات جنسها الا واحدة ، الى تلبية نداء الله ، فضلا عن سبقها نساء بيتها ، حتى صارت الأولى اسلاما في بيت هاشم . ولكم أحب الفتى هذه السيدة الفضلى !... أحبها حبين : حب الابن للأم ، ثم حبا بحبها محمدا الذى لم يحبب هو مثله في الوجود أحدا . ولقد انشرح صدره لاسلامها لأنه أمل ان تصيب اباه منها عدوى الايمان ، وتلبث تلك الفترة من الأعوام لا يفتر أمله ، ويداعب خياله حلمه الجميل . فلما كر ذات ليلة قافلا من حراء وصادف اباه على مقربة من الغار ، سره أن يقبل عليه الشيخ مستفسرا عن سبب وجوده بهذه الناحية التى لا يطرقها الا القليل .. سره هذا

لانه كان يوقن ان الحديث سيتمخض في النهـاية عن تحقيق رجائه المنشود .

قال له ابو طالب :

« يا بنى أين كنت وليس لك الشعب بملعب ؟ »

اجاب :

« به يا ابت » .

« وفيم ؟ » .

« اقضى به حق ربى » .

فهز الشيخ متمهلا راسه وهو يقول :

« اصبت ، لو اصبت ! » .

فرد عليه بحماس :

« تبعته في صواب ، وما عرف الناس عنه الا حقا » .

« امحمدا عنيت ؟ » .

كان الرجل قد سرى اليه همس الناس .

وقال على :

« هو يا ابت ، وانه لرسول الله » .

« فحدثنى بما يمشى به عنه الناس . ما هذا الدين الذى اسمع انه يدين به ؟ »

« دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسـله . دين ابينا الخليـل ابراهيم » .

« وما لابن اخى به ؟ » .

« بعثه الله به رسولا الى الخلق كافة » .

فتفرس الشيخ برهة في عينى ولده ؛ ثم قال

« يا بنى أراك اتبعته » .

« آمنت بالله ، وآمنت برسوله ، وصدقت بما جاء به » .

وطاطأ ابو طالب راسه برهة يفكر وقد عجب لهذا الحماس الذى يراه قد اشتمل فتاه . وبدا حلم على يتجمع في خياله ، ثم يتحرك ، ثم يكاد ان يبرز حقيقة سافرة وهو يلمح السطور التى خطها التفكير على جبين ابيه . يا ترى هل آن للشيخ أن يصيب هداه ؟

وأسرع في لهفة يستحث الرجل ويدعوه :

« اى إبت !.. انه والله للحق وانت احق من استمع اليه واعان عليه . اي ابت فهلم اليه ! » .

ولكن ابا طالب بدا كمن لم يستمع الى ندائه وان قال :

« اى بنى !.. اما أنه لم يدعك الا لخير ، فالزمه .. » .

ومضى عنه .

٢

لم يطل بالفتى بعد هذا انتظار ، فقد اوسك ان يشتهر دين الله بين الناس فيعرف من حدس مدى الصدق في حدسه ثم يعلم القوم ان كان محمد قد صبأ - كما ظنوا - عن دين آبائه عنتا واعراضا ، ام اتاهم حقا من لدن ربه بالهدى والنور .

وامتلأت الدار الصغيرة حركة . وامتلأت نفوس أصحابها القلائل بشتى خلجات : فيها ثقة ، وفيها قلق ، وفيها اشفاق . لن يلبث الاقربون من الآل أن تضمهم وليمة محمد ثم يستمعوا الى حديثه عن رسالة الله . أما خديجة فقد ظلت هادئة النفس يملأ قلبها اليقين بأن الله ناصر صاحبها . لم ترتب في هـذا أقل ريب ولم يعتورها شك ، بل بقيت لها نفس الثقة التى شعرت بها ليلة عاد اليها زوجها من حراء خائفا فزعا أول ما تنزل عليه وحى السماء . واما محمد فلم يستطع ان ينزع عنه خشيته وهؤلاء ادنى العشـيرة ، ان جاءوا فسـمعوا ثم اعرضوا عنه لا يلبون ، فقد مالت اليهم دونه قلوب العرب فكذب واشتد عليه بعدها الأمر .. وأما على فقد لعب به القلق آونة ولعب به الرجاء آونات . وكان ذهنه لا يقع الا على ابيه ، ولا تلتئم خواطره الا عنده مذ رأى فيه ذلك التسامح الفذ يوم أقره على الدين الجديد ولم يلوه عنه . كان هذا التسامح من الشيخ معقد رجاء الفتى ومناط آماله . لان ابا طالب راس آله وصاحب الكلمة فيهم ، وحرى بالقوم ، ان راوه استمع الى محمـد فأحسن الاستماع ثم جنح الى اتباعه ، ان يستجيبوا هم أيضا الى نداء الاسلام .

وامتلأت الدار ببنى عبد المطلب وبني هاشم وغيرهم من رجالات

الأسرة وذوى الكلمة فيها . فلما اكتمل الجمع ، أشار النبى الى على وقال :

« هلم طعامك ! » .

فسارع يصدع بالأمر ، وتقدم الى الضيوف بالطعام فوضعه امامهم : ثريدة ان كان الرجل ليأكل مثلها وحده فلا تكفيه : وتهامس الحاضرون ، وتبادلوا بينهم نظرات ساخرة وان لم يسعهم الا أن يمدوا أصابعهم الى الثريدة فيصيبوا منها . وأصابوا ، ثم اصابوا منها ، ولا تكاد أن تنقص في صفحتها . واخذهم العجب ، وخفت همسهم وان دارت عيونهم دهشة وأحسوا بطونهم لا تطلب مزيدا فامتلأوا حيرة بعد ان امتلأوا شبعا .

وسرى صوت محمد ثانية يقول للفتى :

« أسقهم » .

فطاف عليهم باناء هو رى أحدهم شربوا منه جميعا ولم يوف على نقصان .

هنا كانت الحيرة قد سدت مسالك التفكير عند ابى لهب فتمتم من بين أسنانه موجدة وحقدا :

« سحركم والله محمد » .

فلم يلق اليه النبى بالا . انه ليعلم مأتى حقده على كل حال ، لأن النساء وحى الأزواج ، وما كان أبو لهب ليتخذ غير موقفه هذا وزوجه أموية هى أم جميل ابنة حرب بن امية ، وما كان لتبقى له هاشميته وقد نام مع سليلة الأضغان في فراش !

اغضى محمد عن وخز عمه ، وقام عن مكانه ليحدث ضيوفه عن رسالة ربه . وود على في هذه اللحظة الحرجة لو كان له على لسان أبيه سلطان . ولكنه جلس صامتا — كالآخرين — يسمع ونفسه نربة رجائه وقلقه . وتكلم النبى ، فلم تنفذ كلماته من اذنى الصبى ، بل اتخذت طريقها الى قلبه . وانه ليحس بروحه قد فنيت في ابن عمه فناء . ويحس مشاعره قد خرجت عن نطاق عزمة وقدرته ولم يعد لها كيان خاص . ويحس ذاته جميعا معلقة بما يقول الرسول او اسلس قيادا . كانها بعض كلمه الذى تنطق به شفتاه .. كان سحرا ما قال محمد او هو اقوى اثرا في النفوس من السحر ، وان أولئك الذين

ضمهم المجلس ذلك اليوم ليشعرون كمثل شعوره . وليعلمون رنة الصدق في الحديث وان ابت يد الضلالة الا أن تشتد على قلوبهم وتضرب اكنتها . وانهم ليرون انفسهم مسوقة وحديث النبى خلفها كالسيل . يجرفها تياره القهار . فينأى بها رويدا رويدا الى دنى جديدة فياضة بالسمو والطهر ، بعيدة كل البعد عما اعتادوا من أفكار دينهم ودنياهم ، وان بقيت أغلال العادة تربطهم بماضيهم .

ولكن للشقاوة سطوتها ايضا ، ولها سلطانها ، ولها شيطانها الغلاب على مراض القلوب . ولقد شاء ابليس ان يتخذ له من بين أولئك الجلوس عونا ، فآثر أن يكون حليفه اموى القلب !.. أجل آلى الشيطان بنزغه عبد العزى بن عبد المطلب ، ابا لهب . فاذا الرجل تركبه العزة بالاثم فينتفخ نحره ، ويتلون وجهه الأبيض الوانا رسمها غضب الحنق والحقد والضغينة . ويستبد به غضبه حتى يكاد ان ينبثق من وجهه الدم . ويلعب في عينيه انسان مجنون فلا يتريث . ولا ينتظر ان يتم ابن أخيه حديثه الذى دعاهم له ، بل ينتفض واقفا والكلمات تندفع كالرغوة من فيه :

« أتأتينا يا بن عبد الله بقالة من لدنك ــ ان هى الا رئى ــ تزعم ان ربك ادلاها اليك من السماء ثم تحسب انا مصدقوك ! » .

فلا يغضب محمد ، ولا يصيبه من جراء هذا الهجوم حسر ، بل يقول بمألوف حلمه في صوت هادىء رقيق :

« ما أعلم انسانا في العرب آتى قومه بأفضل مما جئتكم به .. » .

فيصيح ثانية ذاك الصاخب الزارى :

« جئتنا باله واحد ولنا دونه ما يكثرونه ، آلهة شتى خير منه ! » .

« قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة » .

« فهذا لك ندعه يا محمد » .

ويحسب أن سخريته تلك قد اغنت عنه فينطلق ضاحكا يقهقه . ولكنها كانت على أى حال علامة الفصل اذ اغرت الاكثرين بالابتسام وتركتهم لا ينصتون . وسرت الهمهمة في الحضور ، وسرى الهمس فاذا بهم بين مكذب وهازىء .. حتى أولئك الذين تابعوا محمدا على دينه فيما اقبل من الايام كالعباس وحمزة ، فاتهم ان يتبينوا ــ في تلك اللحظة ــ حد الرشد وحد الغى . ثم علا الهمس فاستطار كلاما ، ساقرا ساخرا لاذع الوقع . وظل ابو طالب في مكانه صامتا لا ينبس .

وهو يقلب ناظريه كأنما لم يع بعد ما يدور . أو كأنما قد أشفق ان يرجح احدى الكفتين على أختها برأى يسوقه خلال هذا النضال الروحى المرير . أو كأن اجيالا من ضلال الغابرين وقفت دونه ودون آية الحق كالسد الحائل ..

وتململ على في مكانه . واخذ الغضب يملأ قلبه وهو يرى اباه في موقفه هذا ، وكاد — أن استطاع — أن يمقت الشيخ ويملأ نفسه بالحقد عليه . ان أبا طالب وحده كان في مقدوره أن ينصر الرسول أو يشد ازره أو يثبت قدميه في أول محنة بكلمة تصديق واحدة يلقيها أمام القوم . ولم يكن هذا بالعسير على الرجل ، ولا بالذى يأباه ضميره اذ كان أعلم الناس بمحمد صبيا ورجلا . لم يعرف عنه الكذب مرة وعرف له الصدق خلة هى احدى كرائم الخصال فيه ، ومن لا يكذب على الناس لا يكذب على الله . وكانت لهذا اليتيم سمات في حداثته من النبل والقداسة عرفها ابو طالب وجعلته والكثيرين من ذوى العلم في الناس يتوقعون لابن عبد الله بين العرب مكانة لن يبلغ شأوها في أقوامهم بالغ ، ولكن الشيخ ، مع هذا ، تجلل بالصمت وجلس ينظر . وان هى الا شقاوة شاءها له طالع سوء . به على الشر كبا ، وعن الخير نبا .

وصاح زوج أم جميل ابنة حرب ثانية ، يقطع ما يلقيه محمد على عشيرته صدوعا بأمر ربه :

« يا محمد ان لحديثك هذا لسحرا ، وان له لموقعا في الافهام واثرا على الأحلام . ولكنه — والله — ما يغلبنا على ديننا سحر »

وترك مقعده وهو يلتفت الى الجمع ويقول :

« قد سمعتم أيها الناس فقوموا لا يفتننكم الغلام ! » .

فلما رأى النبي أنهم كادوا يبارحونه ولما تصب رسالته من نفوسهم مكانا ، قام فأقبل عليهم ، باسطا نحوهم ذراعيه ، يهيب بهم ، ويستحثهم ويتوسل اليهم ان ينصروه فينصروا الله بنصره ، وان يثبتوا أقدامه بين الناس ، وان يظاهروا دعوته حتى يذيع في الآفاق دين الهدى والنور :

« قد أمرني ربى أن أدعوكم اليه .. فأيكم يؤازرني على هذا الأمر ، وان يكون اخى ووصيى ، وخليفتى فيكم ؟ » .

فلم يلب الدعوة منهم أحد ، وانتقل عنه ابو لهب جانبا وهو يسخر :

« تزعم ان قد بعثك الله وتطلب منا النصر ؟. الا كف عنا دينك وربك فانا لا نجيبك ! » .

هنا لم يعد في طاقة على حبس لسانه وراء شفتيه وان كان احدث الحاضرين سنا واحمشهم ساقا ، فقام مسرعا صوب الرسول يمد اليه يديه ويهتف به .

« لا يحزنك والله اعنات القوم فعليهم ضلالتهم . وانى أنا يا رسول الله عونك .. أنا حرب على من حاربت ! » .

والتفت في هذه الآنة الى ابى طالب من قال :

« يا أبا طالب الا ترى ابنك ؟ » .

فأجابه الرجل :

« دعوه . فقد عرفت انه لن يألو اين عمه خيرا » .

ولكنهم رغم هذا راوا في حماس الفتى مادة جديدة للتندر والاستهزاء فقال احدهم ورجله على الباب :

« كفاك الغلام ، فطب به يا محمد ! » .

٣

في الأعوام القلائل التالية بمكة ، لم يجد في حياة على الا ما جد في حياة الدعوة الاسلامية حتى ليمكن أن يؤرخ لاحداهما بتاريخ الاخرى فلا تكاد أن تختلف فيهما الأحداث . شهدها صبيا يهم ان يخلع عذار صباه فكان أول معتنقيها من الناس بعد خديجة . لم يتاخر عن سبقها الا بقدر ما ينتقل سر الرجل بعد امراته الى اقرب اهله ومحبيه . وصحبها فتى بادى العنفوان وقد اوشك ان يصير لها كيان معلوم بين الناس لما أذاع صاحبها امره . ثم سايرها شابا حديد الباس فذاق من عائبها كاس عنت دارت على أوائل المسلمين فجرعوها وان اختلفت أنصبتهم من صابها المرير . ولقد كان له في أبيه ردء يحد ايذاء قريش ويمسك اكفهم عنه وعن محمد وان لم يقف بهم دون صحبه وازع من اناس ولا من ضمير .. فما أسرع ما تبدلت مكة وانقلبت اتونا قاسى اللهيب على اولئك الذين كرسوا حياتهم لنشر الدين وحمل مشاعل

الهدى يستنير بها في احناء الجهالة كل عاقل بصير . وتوالت الايام عليهم تباعا لا ينقضي منها شديد حتى يخلفه أشد بالغ البأس عصيب . ولكن الشدة لم تكن شرا بقدر ما كانت اختبارا للنفوس يمتحن الصبر وقوة العزم واليقين . وانها لقياس الاحتمال وبوتقة الرجال انصهر فيها أصحاب النبى ، وكانوا من قبل كقطع الحديد المتناثرة ، فاذا بهم يصيرون ذوبا ائتلفت فيهم وتماسكت حتى أصبح لها كيان واحد .

***

وقدمت قريش رءوسها واعيان بيوتها حشدا مجيشة تناجز رسالة السماء لم يتقدم منهم واحد بحجة بالغة ولا واهية تؤيد بقاءه على جاهليته وان تقدموا جميعا بسلاح العاجز المغلوب في صراع العقول والقلوب ... تقدموا بالبذاءة والأكف والسيوف . يصارعون رجالا لا سلاح لهم سوى كلمة الله ويركبونهم بكل ايذاء ونكال ، وغدت مكة مسرحا للتعذيب . ضحاياه تلك الحفنة التى تألفت منها أولى كتائب الايمان . ولقد شهد على من هذا التعذيب مشاهد قف لها شعره واختلج جلده وسالت عيناه شئونا . وانه ليرى ببطحاء مكة حبشيا ألقى على رمضائها ساعة الظهيرة ويدعوه سيده امية بن خلف الى الشرك وقد ركز على صدره صخرة عظيمة يكاد ثقلها ان يذهب بالعبد في الارض ..

يقول السيد المغرور العاتى :

« لا والله يا بلال ... لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى كما نعبد » .

فيجاهد المعذب المكدود ليجيب على هذه الدعوة الخاسرة بكلمة واحدة هى رمز التوحيد :

« احد .. احد ! » .

فيطير هذا الاصرار صواب سيده ، ويدفعه الى الافتنان في التنكيل بعبده . ويشهد ذات يوم هذا الثبات ورقة بن نوفل ، فتاخذه روعة الايمان وقوته في قلب بلال فيقبل على ابن خلف يقول :

« احلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذنه حنانا » .

يمر على ذات يوم الى جوار رسول الله فاذا عمار بن ياسر بين

ابويه قد اتقد عليهم لفح الهاجرة واجتمع بنو مخزوم يلهبون ظهورهم بالسياط ولا يكفون عنهم او يفتنوا عن دين الله . ويلمح عمار النبى فتضيء عيناه ويرفع بصره الى محمد ويقول :

« يا رسول الله ! » .

فيسارع النبى اليه يشدد عزمه وهو لا يملك له غير الرثاء والحنان :

« صبرا أبا اليقظان » .

ولكن الرجل المتوسل يملأ بالحسرة قلبه الا يجد مخلصا لأمه سمية من جلاديها ، وقد نسى أمام محنتها ما يصيبه من عذاب ، فيعود الى المناجاة :

« يا رسول الله بلغ العذاب من أمى كل مبلغ ... » .

وقد بلغ بها العذاب حقا أوجه وهى مستمسكة بدينها مستهينة بما تلقى في سبيل الله ، وليس لمحمد في حالها تلك سبيل سوى أن يرفع يديه الى السماء ويجأر الى ربه بالدعاء :

« اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار ... » .

فتطيب نفوسهم برثاء الرسول لهم وبدعائه ، وينسون النكال المصبوب على أجسادهم ما داموا قد افادوا طهر الأرواح ؛ وان العذاب لشهى ، والايذاء ليلقى منهم الترحيب ولا تنفرج الشفاه عن كلمة شرك وان امعن في التنكيل بهم هؤلاء الطغاة ، وان هدد ابو جهل أن يخترم المرأة برمحه امام الولد وأبيه ، وان أردف التهديد بالتنفيذ فألقاها على الرمال جثة شوهاء فارقتها الحياة ...

يمر على بهؤلاء وبغيرهم كثيرين البسوا أدراع الحديد وحميت تحتهم النيران ، كصهيب وخباب وسواهما من المستضعفين من العبدان والاماء الذين لاذوا بمحمد ودين الحق الذى جاء به رحمة للناس من لدن ربه . يمر بهؤلاء جميعا ويشهد ما يلقون من ضيق على أيدى رجال من قريش لم يرعوا فيهم ضعفا ولم يعرفوا رحمة ، فيعصر عينيه اسى ، وتفيض نفسه هما ، ويمتلىء قلبه كمدا لأن محمدا يدع قريشا سادرة في بغيها ولا يوفيها عنها صاعا بصاع ؛ ويراود الفتى نفسه على الصبر ، ويملكها أن يخرج بها الغضب عما رسم النبى لدعوته من انتهاج السلم دون العدوان ، ثم يسير كاظما غيظه وهو يعلم أن الزمان لا بد سيأتيه بفرجة ينفذ بها الى الاقتصاص .

ثم لم يعد ثمة رداء لمحمد يقيه، هو الآخر مما لقى على يدى قريش صحبه ...

يموت ابو طالب الرجل الذى وقف دائما في صف ابن اخيه يحميه من بغى قومه ويدفع عاديهم عنه .

ويقبل على يحمل النبأ . انه لم ينس مطلقا موقف أبيه ذلك اليوم حين كان بوسعه أن ينصر محمدا بلسانه فمنعه اخلاصه العميق لجاهليته العمياء أن يلفظ كلمة واحدة قد كانت كفيلة بتمهيد الطريق الشائكة تحت أقدام الرسول . لم ينس على ان اباه تخلف عن الايمان بمحمد وهو أولى الناس بالمسارعة الى هذا الايمان . ولئن كان ابوطالب قد ذاد الناس عن ابن أخيه . فلغير وجه الله ولغير دينه ، وانما لوشائج القربى وصلة الدم .

يقبل على وفي خاطره كل هذا فيلقى رسول الله ويفضى بالنبأ اليه بكلمات قصار ، صريحة ، لا مواربة فيها ولا مداجاة وان آذى بها اباه :

« يا رسول الله ، ان عمك الشيخ الضال قد مات » .

وكذلك وسع قريشا أن تسفر عن احقادها وضغائنها بعد أن خلا طريق الايذاء من الصخرة الكأداء ، وابيح لهم بعد موت الشيخ ما لم يكن يباح ، فانطلقوا يصبون من اعناتهم وطغيانهم على محمد جامات وجامات .

ولم يكن هذا لأنهم أنسوا من دينه زيغا عن الحق أو ميلا مع الهوى ، ولم يكن لأنهم لمسوا في خلق النبى مغمزا يغريهم به ، ولكن لأن الأهواء لعبت بنفوسهم الضعيفة فمالت بها الى عصبية الجاهلية قبل الغضب لدين الآباء .

كانوا يرون في محمد رجلا يهم أن يحمل اللواء بين قبائل العرب ، زعيما ، نافذ الكلمة مستطير السلطان حرى ان تذهب بظهوره ريحهم وتخبو عظمتهم فقاموا يناجزونه قبل أن يستفحل أمره ، ليحفظوا على أنفسهم ما لها من مكانة في الناس ، وليحولوا بين احد بنى هاشم وبين الاستعلاء عليهم كما استعلى قبله ذووه ...

ذات يوم ذهب الأخنس بن شريق الى أبى سفيان بن حرب يقول :

« يا أبا حنظلة أسمعنى رأيك ... » .

« فيم ؟ » .

« في الذى سمعت بالأمس من محمد » .

وكان الرجلان بالأمس قد جلسا مجلسا انصتا منه لرسول الله وهو يتلو بعض آى الكتاب .

واجاب أبو سفيان وهو لا يستطيع ان يخفى اعجابه .

« يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت اشياء اعرفها واعرف ما يراد بها ، وسمعت اشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ... »

« وانا والذى حلفت به كذلك ... »

ثم يدعه الى زميل ثالث في الانصات هو الحكم بن هشام ، يسأله :

« وانت فقل يا أبا الحكم . ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ » .

فيلوى الرجل شفتيه استياء وموجدة ، ويأبى عليه حقده الا ان يقول :

« ماذا سمعت !... تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، واعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ... فمتى ندرك مثل هذه ؟... والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » .

وهكذا كانت نظرة القوم الى الاسلام كفخرتهم أن تستعلى به اسرة على الجميع فحق أن يلقى الداعى اليه كل خذلان !... فاذا قيل شنآن قريش بما فيها من بطون وأفخاذ ، وقيل شنآن بنى مخزوم كما بدا من كلمات سيدها أبى جهل الحكم بن هشام ، فكيف يستطاع هذا الشنآن لأحد بنى عبد مناف من احد بنى عبد مناف ؟... ولكن أبا سفيان استطاعه على اى حال . ودعا اليه الناس وحضهم عليه ثم البهم عداة مناوئين مع المؤلبين الكثيرين من قريش ... ذلك لأنه كان من عبد شمس قبل عبد مناف فغفر لأبى جهل حسده اذ استجاب له ما في قلبه هو وقلوب آله . وبحسبه ان راى في سيد بنى مخزوم ظهيرا يعينه على ارواء حقده القديم بمناجزة سليل هاشم الكريم .

٤

... ماذا بقى بمكة بعد هـذا لعلى ؟.. اولئك الذين احبهم ملء فؤاده مضوا عنها . طوى القبر اباه فخلف دنياه ونأى بخيره وشره ، ولئن اخذ الفتى عليه استمساكه بضلالة الأوثان حتى توسد في لحده فانه لم ينس له مطلقا حق الوالد على ولده . ثم ان الأحداث ليست ببعيدة عنه وقد طالما راى في الشيخ درعا واقيا لمحمـد يرد عوادى الناس والزمان عنه ... ومضت خديجة ايضا ـ تلك السيدة التى عرفها دائما اما وقد تربى في حجـرها قبل أن تحتضن وليـدا من أولادها ؛ ولقد كانت نكبته بهـا نكبتان : رزء الربيب ، واسى الحبيب لأجل الحبيب ... اجل فلم يفته ان يلحظ كيف خط الألم في جبين محمد سـطوره بعد اذ سطا الموت على الزوج الفضـلى وغيبها عن ناظريه . لكأنما كانت لرسول الله كل عالمه وما ضمت بين رحابها آفاق دنياه ، حتى اذا ذهبت فرغ عليه الكون لولا مسكة من الصبر اودعها الله قلبه الكبير . وكان في هذا افدح الألم لعلى كلما القى بصره على حبيبه المختار فطالعته في وجهه أطياف حزن عميق ، ليس يقوى على اخفائها تجلد واصطبار .

ثم ذهب ايضا جعفر وقد كان له أخا دم وأخا دين ... خرجا سويا من صلب أبى طالب ، ولكن الاسلام سبق النسب بالحب الى القلب . وان أولئـك الذين اشربت أرواحهم شرع محمـد لجديرون بأن تمتلىء قلوبهم بهذا الاعزاز الذى يحسـونه لاخوانهم في الاسلام ولا تكاد أن تبلغ مبلغه العواطف الناشئة عن صلات الأرحام ... كان ايمان فاطمة امه ـ في البدء ـ خير عزاء لعلى عن ضلال ابيه ، فلما ذهب جعفر ، ذات يوم ، الى رسول الله يبايعه على الاسلام ، وصل الفرح بعلى حد الفخر ، ولولا أن تلكأ بعدهما أخوهما عقيل ولم يسارع الى الهداية مثلهما لكان سرور ابن أبى طالب قد بلغ الشأو . ولكنه اليوم بمكة يقلب بصره فلا يقع على أبى طالب بعد ان اكتنفه التراب ، ولا يقع على خديجة وقد تقطعت بها من الحياة الأسباب ، ولا يقع على

جعفر وقد لاذ بالحبشة فرارا الى جوار الغريب من جور القريب .. اما عمه العباس ، واما عمه عبد العزى ابو لهب . واما ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فكل أولئك وسواهم من آل بيته لم تكن صلته بهم الآن لتعدل لحظة واحدة يقيمها بمكة بينهم بعد أن وصل العنت من بعضهم والتخاذل من البعض الآخر ، الى الحد الذى لم يترك لمحمد معدى عن الخروج بليل ، مخلفا وراءه بلدته ، هاجرا داره فرارا مما كاد ان يلحق به من ائتمار أصحاب الضلالة ، ليضرب في قفار الجزيرة نحو يثرب كي يلوذ فيها بمن صدقوا وآلوا أمام ربهم على أن ينصروه .

أجل ، لم يبق لعلى بمكة مقام وقد نزح عنها رسول الله ، وتسلل أصحابه واحدا اثر واحد : منهم من سبقه ومنهم من تبعه . وراجع الفتى نفسه قبل أن يخرج هو الآخر ضاربا في الصحراء ، فلما أيقن أن قد نفذ ما أوصاه به محمد ، ورد للناس ودائع كانوا قد ائتمنوا عليها النبى ، قام يسعى على درب يثرب يسبقه اليها شوقه .

ولم يكن له مركب ولا ظهر ابل ، وانما سخر قدميه وامعن بهما في الرمال مستخفيا عن الأعين ، ولم يكن له في رحلته صاحب ، ولكنه تألف خواطره حتى لزمته ، ان أشرق الصبح توارى يتعبد أو جن الليل تفكر وتدبر فيما يقع تحت ناظريه من جلال خلق الله . ولقد ظل في رحلته تلك ليالى اربع عشرة وحيدا يسبح في بحر لجى من الرمال تحتـه ومن الأنجم والكواكب فوقه . ولعل هـذه الآونة كانت اكثر الآونات في حياته اثرا وابعدها غورا حتى طبعت نفسه بطابعها مدى ما عاشه بعدها من سنيه . وان الامام الذى صاره هذا الفتى فيما اقبل من الايام لهو حقا وليد تلك الليالى التى اكتنفتها الوحدة بدءا ونهاية : منبسط النفس كرقعة السماء ، جلد القلب والجنان ، حديد العزم كالسنان ، يعزف عن اللهو الى التأمل ، ويصـدف عن اللغو الى التصوف والتبتل . وهل كان لمن اخذ نفسه بهذه الرحلة ليشق مجاهل الصحراء وحده ويعانى من أخطارها كل شدة الا ان يصحب فكره فيجلو بالتأمل بصيرته ، ويروض صبره فيرهف بالصبر عزيمته ؟

* * *

كذلك مضى على يركب البيـد ، وتنثال خواطره أمامه ، تسبقه وتؤلف له من نفسها قافلة شوقه حاديها .. تماما . ولو اسـتطاع

ان يتخذ حنينه الى محمد ظهرا لقطع به وحدات الزمن جميعها في طرفة عين . ولكنه ، مع ذلك ، نعم بتذكر ما فات من لياليه مذ شب على يدى النبى حتى بدأ عنفوانه ... افكانت آصرة الدين وحدها مثير هذا الحنين ؟.. ما كان على ليستطيع ان يدلى في هذا برأى قاطع لان مدى ما يذكره من هذا الأمر انه لم يشعر مطلقا — مذ ولدته أمه — انه كان على غير دين محمد يوما واحدا من ايام عمره ؛ ولعل هذا لانه عاشر الرجل من الطفولة فجذبه الى شخصيته الغلابة القاهرة جاذب سرى من الجنان الى الجنان قبل أن تسرى الى سمعه ترتيلة الايمان .

وكذلك نسى في رحلته لفح الهجير ولسع الزمهرير ، ومضى قدما صوب يثرب .. وطبيعى أن متاعب الطريق وما لقيه من صعاب لم تكن لتستطيع أن تلقى من نفسه حرفا من انتباهة وهو الذى لم يلق — قبل رحيله بثلاث ليال — بالا الى عصبة التفوا بداره ؛ في ايديهم الأسياف القواطع ، يحومون حول فراشه على مبعدة خطوات فلا يعصمه من بطشهم عاصم الا ايمانه .

***

الا ما اعزلها ليلة بين لياليه ، ما أعزلها ليلة تفضل كل لياليه !. ها هو ذا على فراش الرسول ، مسجى ببرده الأخضر حتى لا يستطيع أن يرى اتقدم القوم نحوه خطوات أم ما زال عن أسلحتهم بمنجاة . ولكن اصواتهم كانت تسرى دائما الى سمعه ، هامسة كأنها طنين نحل، تطوف به همهمتها مخافتة . وكان صافي الذهن حاضره ، صاحى العين لم يطف بعينه نوم ... اترى وجد في اليقظة متعة فراض نفسه على السهر ليشهد كيف تستقبل هذه الطغمة فشلها حين تتبين فرار محمد ؟ ... كان هذا بعض ما جال بذهنه ، واما بقيته فارتقاب طعنة الموت يتلقاها من سنان حانق . لن يسر القوم أن يلعب الفتى لعبته فيفقدهم صيدهم وهم على حافة النصر ، وليس بمستبعد اذن ان ياخذوا الفادى الحاضر بالمفتدى المهاجر .

ولعب على شفتيه طيف بسمة ، نصفها رضا ونصفها سخرية . ان الموت كان غاية المأمول من حياته لانه الوسيلة الى حياة عقيدته ، وليكونن في مقتله لقريش والعرب قارعة أى قارعة ، لان دماءه لن

تذهب لقى ، بل سـوف تدعو من بين قومه اناسا للثأر له انتصارا لحرمة الدم . ولئن كانت قريش قد أجمعت أمرها على قتل محمد ، فقد تذرعت لجرمها هذا بأن رسول الله شق عصاها وبذر بدعوته الجديدة في صفوفها الفرقة . اما ابن ابى طالب فلن تنهض لقريش حجة امام ذويه على قتلها اياه .

***

ولكن عنقه لم يمسسه السيف المأمول !...

كان القوم ، خارج الدار ، قد اخلدوا الى السكينة مطمئنين الى نجاح المؤامرة التى دبروها لاغتيال محمد . في اكفهم التمعت شفرات السيوف تحت اشراقة انجم الصحراء ، وانعكس بريقها على وجوه لم تخف البسمات الساخرة ما انطوى في قلوب أصحابها من احقاد . وكانوا جميعا كرجل واحد ارهاف حس وحضور ذهن ونفاذ عين . سبق الغل ابصارهم الى الباب حتى لا تفوتها النملة ان دبت آتية منه . هـذه ليلتهم حقا ، ساعتهم المرتجاة .. اللحظة الحاسمة في تاريخ الجزيرة التى عبثت بها مدى اجيال عبادة الأصنام : وكانوا هم مختارى قريش وممثلى اسرها جميعا لأداء رسالة هذه الأصنام !...

اجل قد اجتمعت فيهم كلمة قريش ، ولم تجتمع لها قبل اليـوم كلمة منذ اجيال .. هذه الأسرة الوثيقة القربى كانت محلولة العرى مفككة الأوصال حتى لطالما وقف منها البيت أمام البيت يحتكمون جميعا الى لسان السيف .. ولكنها الآن التأم منها ما تفرق ، واتحد فيها الأشراف والأوشاب ، واجتمعت على القدر قلوبها وايديها ، لتمزق محمدا قطعا بقـدر ما يمسك أولئك المتربصون به من قطع السلاح ، فاذا انت لحظتهم ، ضربوا ، وادوا عن آلهم حق الأصنام ، وذهب دم الرجل في القبائل كلها فلا يطيق ذووه أن يعادوا من اجله قريشا كافة .

ذلك كان اجماعهم وما حسبوه ومن وراءهم احكام تدبير . ولكنه اجماع مفضوض وتدبير خاسر ... ولن يلبث أن يتبين لهم بعد اعوام كم كانوا في ليلتهم تلك عمى القلوب والبصائر وان حدت منهم العيون والنواظر . فلم يكن محمد ليبغى ملكا ، ولا جاها ، ولا مالا . ولم يأتهم

ليسلبهم ما بأيديهم من تراث وانما ليمنحهم من لدن ربه تراثا تلتئم به أقطار الأرض كلها كعقد حول اجيادهم ، ثم يجتمع بهم مالم يحلموا به من ملك وجـاه ومال . ولكن الضـغن آفة الحـكم . ولو كانوا قد استطاعوا أن يتجردوا من اضغانهم لحظة طوقوا داره لما اشرعوا في أيديهم رمحا الا من أجله وفي سبيل دعوته ، ولاجتمعوا حوله ولم يجتمعوا عليه . ولذكر الكثيرون منهم ان هذا الرجل ، الذى لموا شعثهم لمناهضته والقضاء عليه ، هو الشاب الذى جعلهم ذات يوم سالف يغمدون أسيافهم ويبقون ـ بفضل رأيه ـ على جمعهم أن يتمزق ويذهب بددا . ولعل فيهم الآن من يعرف لمحمد هذا الفضل المأثور ويعرف قصته . ورواها لغيره من الناس بعد أن رواها له غيره أوشهد فصولها بنفسه ... هذا حدث ليس تنساه الأذهان وما كان اختلاف الزمان بالذى ينسيه . وما من واحد في العرب الا يذكر كيف اختلفت قبائل مكة ، حين أعادت بناء الكعبة ، على أيها يحوز شرف وضع الحجر الأسـود في مكانه حيث وضعه من قبل ابراهيم الخليل . ولقد بلغ اذ ذاك الخلاف اشده حتى أدنى القبائل من مهوى الحرب ، ولكن شابا واحدا حسم الأمر ، طلع عليهم في هذه الآونة العصيبة محياه الأصبح فطرد أمامه شيطان الشر واستطاع بكلمة واحدة نطقها وهو بعد في أولى مراحل الشباب أن يطفىء ما كادت أن تسعره حماقة الشيوخ . نشر أمامهم ثوبه ووضع الحجر عليه ودعا برءوس العشائر المختلفين أن يأخذ كل من الثوب بطرف ويرفعوه الى مستوى الكعبة ، فلما فعلوا وسد الحجر بيده موضعه فولى الخلاف وأغمدوا السيوف .

ولكنهم اليوم عمى القلوب والبصائر وان حـدت منهم العيون والنواظر ، بل انهم ما لبثوا ان فقدوا أيضا حدة البصر وحضور الذهن حين اخترق محمد جمعهم ومر بالنطاق الذى ضربوه حول الدار . وكان علي في مرقده ، واجف القلب اشفاقا على الرسول ، يرى بلحظ الخيال دون رأى اللحظة ، اليه يسرى ترتيل محمد ؛ اذ يسير مخلفا المكان ، خافت الرنين رافع اليقين : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وحقت كلمة الله فلم يره منهم راء ولم يسمع خطوه سميع . واطمأن قلب علي وسكنت نفسه حين تلاشى رويدا رويدا جرس الآيات وراح في السكون . ثم أغرقت البسمة شفتيه ، ناطقة بفرحة قلبه لنجاة محمد ونفاذه من بين عدوه كسريان النسمة ، ترعاه عين الله وتظله رعايته ،

وتحوطه يد عنايته الالهيــة وهى توجه خطوه خارج مكة ، صــوب الشمال ، الى يثرب .. ارض النصر !

***

تلك كانت أولى لحظات الفتى بالخلود ، شعر ساعتها بالسعادة كما لم يشعر بمثلها مطلقا قلب انسـان . ولم يكن هذا لنجاة محمد فحسب، لانها كانت في قلب على راسخة رسوخ اليقين وان شق عليه أن يرد الملمة من جزع طافت به وهو يرهف سمعه لخطو النبى اذ يسير مجتازا باب الدار وحلقة الثوار . ولم يكن من اجل انتقال الدعوة الاسلامية من بلدة شانئة جاحدة الى ارض طيبة صالحة للحياة والنماء فهو وطيد الايمان بالمستقبل المسطور لدين الله في لوحة القضاء ... لا لهذا أو ذاك غمر الفتى من سعادته ورضاه ما ملأ أجواء دنياه . ولكن لأنه رقد يرتقب ان يمس عنقه سيف تحركه يد حانق من القوم ويجهز عليه به ، لأن موته العاجل ها هنا فيه نصرة لدينه وعزة لنبيه وخدينه . لقد استخلص الفتى هذا بعد أن فكر وقدر وما كان ذوو قرباه من قريش ليغفروا لقاتليه قطرة دم تراق منه ، بل سيجتمعن على الثأر له : قاصيهم ودانيهم ، حاضرهم وغائبهم ؛ ولن يتخلف منهم عن تلبية نداء الدم عباد اصنام واتباع اسلام .

كذلك فكر على وقدر فاصاب . ولم يكن مبالغا ، بل كان يستخلص النتائج بقياس حدثه على غيره من أحداث . فلقد تطلع بذاكرته الى يوم من الماضى قريب ، وقع فيه مثل ما رجا أن يقع له وان كانت المشابهة بين الواقعتين في أضيق نطاق ... كان ذلك حين ادلهم الخطب على النبى وصحبه واخذت قريش لا ترعى حرمة فتركب محمدا بالعنت آونة وبالايذاء آونات . فيذات امسية من ذلك العهد وقد مضى النهار الا اقله ، ومالت الشمس الى مرقدها في المغرب ، وجلس العلية كدأبهم يسمرون عند الكعبة ، بدا للقوم حمزة بن عبد المطلب ، فارعا مهيبا ، في خطوه اعتداد يكاد ان يجنح به الى حد الفخر ، قد زين قلنسوته بريشات تماوجت مع انسام الغروب ، وتمنطق بقوسه ، وتدلت من كتفه جعبة السهام لم يتكلم ، ولم يلق الى الجالسين بسلام ، ولم يطف بالكعبة كما اعتاد كلما عاد من رحلة صيد ، بل ارسلها نظرة عجلى

خلال القوم ، ثم ارتد . واوجسوا اذ رأوه ، فلأمر ما مشت غضبة الليث في عينيه وفارقه المعهود من بشره ... أما هو فقد تركهم يوجسون ويحدسون ما شاءوا ، واندفع كاندفاع السيل الى دار أبى جهل بعد أن افتقده في السامر فلم يقع عليه .

وضرب الباب فبرز اليه الرجل يتلقاه بالترحاب .

« أبو عمارة ؟ مرحبا وادخل ... »

فلم يهش ، ولم يدخل ، بل بادره يقول :

« تعدو على ابن اخى فتلطمه وانا بين الناس حى ! »

فأجفل العادى أمام غضبة خصمه وقال يتلمس المعذرة بأسلوب لين ناعم :

« ما كنت لأفعل يا أبا عمارة ، ولكنه عاب آلهتنا ، وسبها ... »

« وانا اعيبها ، واسبك ، وارد عليك لطمتك ! » .

وسبقت يده الكلمات فاذا حديدة قوسه ترتطم بجبهة ابى جهل في ضربة قاسية شجتها شجة منكرة يتفجر منها الدم . ووقفحمزة هنيهة يرقب فريسته ويتهيأ لها ، ولكنها كانت أذل من أن ترد عليه ضربته أو تنضح عن نفسها بمعابة لسان أو بلفظ استهجان .

وشهد الجالسون الى جوار الكعبة تلك الأمسية حمزة يعود ثانية ، يسبقه اليهم غضبه ، ثم يقترب منهم حتى يصبح مشرفا على النطاق وعلى بقية الملأ القريبين ، فيرفع فيهم صوته ويقول :

« أيها الناس !... انى اخلع الآن رداء كفرى ، وانى على دين ابن اخى وانى لناصره بلسانى وسيفى ... الا فليتقين سفيههم غضبتى !.. »

اى ربح هذا الذى ربحه دين الله من وراء لطمة ، واى ربح ذاك الذى كان لا بد ان يربحه من وراء دم !.

***

ولكن أولئك الذين عصف الغضب بجوانحهم حين حسروا الغطاء فلم يروا محمدا تحته ، عرفوا كيف يملكون سورتهم عند حد ، فلم يفز الفتى بأمنيته ــ لم يقتل !... لم ترفرف روحه في الفضاء تدعو آل عبد المطلب وآل هاشم ومن تابع هؤلاء وأولئك الى الثأر له والانضواء

تحت لواء واحد قد كادوا أن يجتمعوا تحته تلبية لنداء الدم ... ولئن افلتت من على هذه الفرصة فلسوف تواتيه الأيام وشيكا بغيرها من فرص سانحات . ولن يلبث أولئك الذين تركوه ولم يضرجوا الفراش بدمه أن يندموا لانهم تلك الليلة ، ابقوا على حياته فأحيوا فيه شبح الموت الذى ظل يلاحقهم بعدها مدى أعوام وأعوام !...

٥

كان على منجل الموت الذى أخذ يلاحق رءوس قريش من اعداء دين الله فيقطفها قطفا ويخطفها خطفا .. تسقط تحت سيفه كالثمر وتتراكم عند قدميه في عدد المدر . وذاك الفتى الذى كان في صباه سباقا الى الدين أصبح اليوم — في فجر شبابه — سباقا الى ضرب الهام وشق الأجسام . وفي كلا ناحيتى شجاعته المعنوية والمادية كان المؤيد دائما برسول‌الله ، المقرب اليه ، المرموق منه بعين الحب والرعاية. لم تفت به فرصة واحدة مذ دخوله المدينة الا اجتباه الرسول دون سواه من قادة الاسلام فآثره بفخر يرفع من قدره فوق ارتفاع ، ويشرف به على جلة الصحابة والاتباع . لئن كان أبو بكر من نبى الله وزيره الصادق فان عليا كان منه الظل اللاصق ، لم ينأ عنه ، ولم يبعد الا كلما أرسله محمد ليكون له على‌اعدائه عينا او لرجاله طليعة . حتى في بدء ذلك الوقت ، الذى أخذ رسول الله يكون فيه ملكه الصغير ويربط بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، لم يفته أن يؤثر باخائه عليا دون الباقين .. آخى بين صحبه الخارجين من ديارهم معه وبين أصحاب البلدة الذين آووا ، فتخير ان يكون على أخاه في الدين . لم يؤاخ ابا بكر ، ولم يؤاخ عمر ، ولم يؤاخ حمزة أسده وأسد الله ، ولكنه اصطفى لهذه الأخوة المعنوية بعد أخوة الدم فتاه الربيب فآثره على كل حبيب بعيد وقريب . ولا شك أنها كانت من النبى لفتة كريمة لها في‌النفوس ما قد تثيره من ايحاء يكاد أن يفصح عن التقريب والاجتباء ، وكانت حياة على بعد هذا مناط الكثير من كريم اللفتات . حتى في ساعة الحرب ، والنفس البشرية مشغولة عن دنياها جميعا بلحظة

الطعان المنتظرة ، كان النبى حين سعى الى بدر بجيوش المسلمين ، يسير آونات الى جوار بعيره ويدعه مطية لابن عمه ليخفف عنه بعض مشقة الطريق ..

***

ولم يكن هذا وحده دليل التقدير الفرد الذى توج به محمد هامة صفيه ومجتباه ، بل كانت صفحات حياة الرسول كلها آيات متلاحقة من التقدير والتفضيل . طبيعى أن تعطفه صلات القربى اليه . ولكن ادنى الأقربين من آله لم يلقوا منه مثل ما لقى ابن أبى طالب ، صغيرا وكبيرا ، من صادق اعزاز ، كان في السلم يختصه بالرفقة حتى أصاب الفتى من ينبوع النبوة والحكمة ما شاء ، وكان في الحرب يقدمه لأنه خبر فيه صلابة العزم وصدق البلاء .. حتى اذا داخل نفسه الكريمة على رجاله خالج اشفاق ، سبق خوفه على فتاه خوفه على الجمع من الصحب والأعوان فود أو جعله عن رماح الأعداء في حرز حصين ، ثم كان الحرص ، كلما تقدمت بالنبى السن ، يزيد على على الى ان بلغ أقصاه بعد استشهاد جعفر بن أبى طالب بمؤتة ، حتى لم يعد محمد بعدها يرسل صفيه في وجهة من وجوه القتال الا رفع يديه الى السماء يبتهل الى ربه أن يبقى له عليه ويقول :

« رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين » .

وكذلك عند صمت الموت ، واستواء الكافة من الناس على حافة اللحود لم يعدم محمد فضلا آخر في جعبة الايثار يختص به ربيبه المحبوب ويزيده به قربا الى النفوس والقلوب . وكان ذلك عند وفاة فاطمة ابنة أسد ، زوج أبى طالب وام على ، وأسبق نساء العالمين الى الاسلام بعد خديجة الطاهرة .. فاطمة الفضلى التى لم يسبقها في الدنيا الى اعتناق دين الله الا غلام ، وامرأة ، وثمانية رجال . تقدم الرسول فألبسها فوق كفنها قميصه ، ثم نزل الى القبر فسواه بيده الكريمة ، واضطجع الى جوارها فيه .. وعجب الناس لهذا الصنيع الذى لم يروا محمدا من قبل يوليه احدا من أقرب خاصته ومريديه فراحوا يسالونه :

« ما رايناك صنعت ، يا رسول الله ، بأحد ما صنعت بهذه ؟ » .

فكان جوابه أن قال :

« انه لم يكن احد بعد ابى طالب ابر بى منها .. وانما البستها القميص لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها ليهون عليها ضغطة القبر » .

وكم من اموات المسلمين قبلها ضمتهم اللحود ووارى التراب اجسادهم فلم يفوزوا من نبيهم من هذا الصنيع بقليل ولا كثير . ولكنه اسدى لها في موتها ابلغ تعظيم ، واسدى بهذا لابنها في حياته اجل تكريم .

***

... وكانت بدر كلها نصرا هو فاتحة النصر المبين لراية الدين ، بل كانت المنفذ الذى اجتازه هواء الحياة الى رئة الاسلام . جازت محنتها الفئة القليلة فغلبت الفئة الكثيرة باذن الله . ولئن كان النصر سبقت انباؤه الى لوح القضاء طعان الأبطال ، فان عليا كان الأسبق يدا وسيفا الى اعناق الأعداء . لم يكن في المسلمين اسنهم ، ولا اشدهم ساعدا ولا أبعدهم صيتا في مجال الكفاح يوم خاض غمار هذه الواقعة البعيدة الأثر في تاريخ الانسان . ولم يكن قط مارس من الحرب ما مارست الكثرة من صحابة المسلمين ، اذ كان بعد بالدنيا حديث عهد ، لم يجاوز العشرين الا بقليل . ولكنه كاد أن ينفرد بجنان ثبت وقلب جلد لا يستطيع ان يطرقه خوف أو تطوف بساحته رهبة . ولم يكن فوق هذا وذاك كأولئك الشجعان الذين ينسون في معمعان المعركة كيانهم ، ويفنون فيها فناء يحجب عن ابصارهم سيرها ، وانما كان مرهف الحواس متمالك الجأش ، يقظا غاية اليقظة أمام كل صغيرة وكبيرة تبدو أثناء الصراع من مناجزيه حتى كأنما جسمه كان عيونا تنظر . وما من شك في انه لم ينفرد وحده بالصيال ولكن الثابت ثبات اليقين انه وحمزة عمه كانا فرسى رهان .. وكانا دائما سباقين الى رءوس الكفر واشياخ قريش الضالين يضربان الهام كأنما تخيرا ذلك اليوم ان يحفرا قبور الأصنام . أما حمزة فكانت له في المعركة غضبة الليث ودفعة السيل ، الرهبة دائما تسبق سيفه يتلوها الموت وان كان حماس الصراع يستغرق حواسه ويملك منه الزمام فيندفع كلسان النار بين الأعداء وهو لا يكاد ان يرى سوى فريسته التى آلى اصطيادها والاجهاز عليها . ولقد علم أعداء الاسلام في أسد الله هذه

الدفعة فاستغلوها في الكيد له ، ولم يكد يتكامل الحول حتى عرفوا كيف يثأرون لانفسهم منه ويكفون رقابهم حد سيفه بأن دفعوا اليه يوم احد عبدا حبشيا من عبيدهم تربص له حتى اذا رآه قد ران على عينيه غضبه ، وعبست أساريره ، وفنيت ذاته في حماس الصراع قفز اليه العبد بحربته فأراده ..

وأما على فقد تهيب الناس فيه صدق حمله وحد نصله ، فكانوا ان آثروا الثبات لا يملكون الا الوقوع صرعى تحت قدميه ، او فضلوا السلامة ادبروا يفرون او ارتدوا ينكصون بعدا منه ، ثم كان يبعثهم كربهم أحيانا على اصطناع الحيلة كيلا يعمل في اقفيتهم سلاحه فيكشفوا عن عوراتهم اذ علموه يربأ بناظريه ان يريا سوأة . وكانت يقظته لا تغادره لحظة مهما تأجج لهب الحرب ، بل يظل أبدا متمالك الأعصاب يتحرك كمن في نزهة فلا تفوته من صفوف مناجزيه اجمعين لفتة أو حركة وقد بقيت يقظته هذه الدرع الواقية والحصن الذى حال طوال حروبه بينه وبين اعدائه المتوالين ان ينالوا منه وان رصدوا له العيون والأرصاد وكتلوا بين يديه وخلفه حشدهم بالمرصاد .

***

كانت بدر نصرا كلها للدين وللمسلمين رفع لواءه عاليا على ، وباء بالخذلان أئمة الكفر الذين أفلتوا من السيف والسنان . وهكذا ثبت الله قدم نبيه واعز امره ، وصدقت رؤيا عاتكة !.. أجل صدقت رؤيا عاتكة ابنة عبد المطلب وتحققت واقعا ملموسا تراه العيون . وان أولئك الذين سخروا منها أمس بدر لهم أشد الناس ايمانا بصدقها غب الوقعة . فلقد أصبحت مكة على غير ما تعودت ان تصبح .. فارقها كبرها ، واشرها ، وفخرها ، وهى تنظر الى فلول جيشها المهيض الجناح عائدة تجر الخزى في أعقاب هزيمة مرة . وتلفتت عيون السادة الذين تخلفوا بالبلدة عن المعركة الى الآيبين منها .. اين سيدهم الحكم بن هشام أبو جهل ؟.. اين أمية بن خلف ؟ اين عتبة بن ربيعة راس بنى عبد الدار وصاحب اللواء ؟ .. اين أخوه الوليد واين ابنه شيبة ؟.. اين كل اولئك وغيرهم ممن غادروا مكة بالامس دارعين مزهوين ، اقلهم املا كان لا يستطيع ان يكبح نفسه عن العودة من المعركة الا وراس محمد في كفه ؟.. كلهم راح لقى هناك على ثرى بدر ومن عليهم محمد بالمضجع وبئس المضجع !.. كلهم طواه

القليب تستوى فيه الأشراف والأوشاب ورنت في آذانهم — موتى — صرخة محمد وهو يناديهم من مشاويهم ويقول :

« يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ! كذبتمونى وصدقنى الناس ، واخرجتمونى وآوانى الناس . وقاتلتمونى ونصرنى الناس !.. هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فانى وجدت ما وعدنى ربى حقا ؟.. » .

ولكنهم سمعوا وما استطاعوا أن يقلبوا في التراب جنوبا . وخلفوا الدنيا التى غرهم فيها الجاه وغرتهم الكثرة وكانوا يستعلون فيها ويستطيلون كبرا . وعاد الحثالة من اقوامهم الى دورهم وبقوا هم حبيسى الأرض .. عادت الحثالة من اقوامهم الى مكة توارى اساها وقد فرت دون مواراة قتلاها . وان في قلب كل رجل من قريش كلما حرام على عينيه بعده ان تنام ان لم تشهد ثأرها في محمد وصحبه . وان في كل بيت لنائحة بين اليتامى وبين الأيامى .. في كل بيت فلقة من الصخرة التى رأتها عاتكة في رؤياها فلم يبق لهم بد من ان يصبحوا مصدقين وكانوا منها امس ساخرين .

كانت عاتكة قد نزعت ليلة بدر الى اخيها العباس تقول :

« يا أخى .. » .

فسارع نحوها وقد لمح على محياها الخوف :

« لبيك !. ما أفزعك ؟ » .

« انى رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى .. » .

« وما رأيت ؟ » .

« وانى اتخوف ان يدخل منها على قومك شر ، فاكتم عنى أحدثك » .

« أفعل » .

« رأيت راكبا اقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ باعلى صوته : الا انفروا يا آل غدر لمصارعكم !. فأرى الناس اجتمعوا اليه .. ثم اخذ صخرة فارسلها فاقبلت تهوى ، حتى اذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار الا دخلتها منها فلقة » .

وسمع اخوها فتجهم ولكنه لم يكتم !. وسار نبأ الرؤيا من لسان الى آذان حتى وصل أبا جهل فانطلق الى العباس ساخرا يقول :

« يا بني عبد المطلب . أما رضيتم ان يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم » .

ومع هذا فقد صدقت رؤيا عاتكة يوم بدر . ويا ليت ابا جهل يستطيع الآن ان ينطق ليحدثنا بأثر صدقها فيه ، وفي ناصريه !.

ولكن ذهب الى الأرض كما ذهب الآخرون . وخلفه الأحياء من قومه لمصرعه ، كما خلفوا معه سادة سواه كانت دنيا قريش بأمرهم تدين ، وفروا ناجين من أسياف حداد أعملت آونة في هام الكثيرين وآونة في أقفية الباقين حتى خلصوا بجلودهم مدحورين .

وكذلك كانت بدر نصرا كلها وان أفلتت الدائرة ابا سفيان بن حرب وغيره الذين من أجلهم نزحت حشود المسلمين الى ساحة القتال ... ولكن ابا سفيان لم يكن كل قريش ، ولم يكن خيرا من اولئك الذين حصدتهم رحى السيوف أو لم يكن شرا منهم !.. بل لقد خسر في المعركة زيادا ابنه أسيرا وحنظلة قتيلا لحق شرف مصرعه بسيف علي كما لحق به شرف جز رقاب سواه من بني عبد شمس واصهارهم من عبد الدار . وان الذي يأخذ نفسه باحصاء من جندلهم ابن ابي طالب في بدر ، ثم فيما تلاها من وقائع ، ليعجب أشد العجب ويتساءل أكانت المصادفة وحدها هي السبب في ان تكون كثرتهم من ذلك البيت الذي اشتهر بامتلاء قلوب آله بالحقد على هاشم وسلالته أم ترى كان ينتقي عامدا غرماءه من بينهم ثم يعمل في رقابهم نصاله !. كان عجيبا حقا غاية العجب أن يتفق له في بدر قتل حنظلة بن ابي سفيان والعاص بن سعيد بن العاص بن امية ، والوليد بن عتبة صهرهم اخا هند زوج ابي سفيان . ثم عقبة بن ابي معيط والد الوليد اخي عثمان لأمه والذي بفرع عبد شمس تربى ... ثم بعدهم غيرهم من احلافهم ومن لاذ بهم بنسب أو بسبب .

وكأنما كان هذا الفتى منجل الموت المسنون الذي ارهفه على رقاب اولاء ولعلهم ندموا لانهم ليلة الهجرة خلوا بين علي وبين الجباة ولم يقتلوه في فراش الرسول ولكنه ندم ليس بنافعهم اليوم فتيلا ولا بدافع عنهم ضره في كلا جاهليتهم واسلامهم لانهم رضعوا من ثدى أمهاتهم مقته ومقت آله صغارا فاصطفوا يناجزونه كبارا ، ولم يتحروا — اذا فعلوا — ان يكونوا له المناجزين الاكفاء .

٦

انجلى النقع ، وانجابت الغبرة ، وعادت قريش وفي عيونها دموع وفي قلوبها صدوع . وعاد علي في صحبة النبي يتوثب فرحا ، لا يبالى ان انضمت جوانح بني امية على ضغن جديد يجتمع الى ذخيرة أضغانها على بني هاشم . ما كان الفتى ليبالى شيئا اليوم ما دامت بدر قد أفاءت عليه من خيرها ما يبلغه الوطر من اماني حياته ... لقد طالما سخر من النشب ولم يعرف قيمة للمال الا أن يرد به جوع جوعان او عرى عريان . لم يتخذ لنفسه منه ذخرا ، ولم يجمعه ، ولم يبق مطلقا على درهم جاءه في صباح الى يوم تال . بل كانت كفه كالمصفاة أسبق الى البذل والعطاء منها الى الحفظ والابقاء . بلغت ثروته ذات يوم اربعة دراهم فكره من أجلها نفسه ، وسعى سعيه بالليل والنهار حتى انفقها على ذوى حاجات فجاءه جزاء هذا الاحسان من عند الله آية كريمة نزلت فيه وخلدت صنيعه وسماحة كف هي أحوج الى السماحة من أن تكون مسماحة :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار . سرا وعلانية ... »

كان يحرم دائما نفسه من كسب يده التي ورثت الجود عن أجواد ... عمل مذ دخل المدينة في زراعة يهود حتى يقي نفسه « ضيافة » الأنصار ، فكان يسقي هذه الزراعة حتى تمجل يداه ، حتى اذا انتهى النهار ونقدوه أجره دفعه او دفع أكثره الى سائل أو محروم ثم لا يأبه ان كان يبيت هو على الطوى . لم يستهوه مطلقا بهرج الصبا ولا زهو الشباب بل عاش فيهما كعابد في محراب . وكان قوته دائما الخبز الجاف، واحيانا البر ، وغطاؤه الوبر وثوبه مرقعة قصيرة من ليف واهاب ، لأن غايته من دنياه ركوب نفسه بالاذلال والحرمان لتتخلص له نقية بلا شائبة .

ولكنه اليوم ، وقد عاد من بدر ، أحس بالسعادة اذ أفاء الله عليه بعض مغنم . ولم تكن سعادته بالاقتناء لذات الاقتناء ، بل لأنه

الوسيلة الى بلوغ مقصده . انه يستطيع الآن ، وقد ملك شيئا ذا بال ، أن يتقدم الى رسول الله متحدثا اليه في شأن كتمه عنه طويلا في ذات نفسه . كم طالما هفت روحه وقد بلغ مبالغ الرجال ، الى ان تكون له أسرة ويسكن الى زوج . وتلك الأعوام ، التى انقضت مذ تفتحت عيناه في هذه الحياة ووعى ما يراه ، علمته الا يستوعب ذهنه أو تتطلع عينه لغير صورة واحدة من بنات حواء ... صورة واحدة منهن، حملها وليدة ، ولاعبها طفلة ، واكن لها صبية بعض ما كان يكن لابيها العظيم من خالص الحب والولاء .

انه يستطيع الآن أن يتحدث الى رسول الله بما ملأ عليه آفاق التفكير ، ولكنه ما لبث وقد أشرف على باب محمد ، أن أخذته الرهبة ولعب بخطوه التردد ... كيف نسى أن أبا بكر — وله في قلب النبى ما له من مكانة — جاء رسول الله يطلب منه فاطمة فلم يفز منه بغير ان أجاب : « انتظر بها القضاء ! » وكيف نسى أن عمر بن الخطاب تقدم بعد الصديق الى الرسول يطلب فاطمة لنفسه عساه ان يفوز بخير مما أصابه صاحبه فلم يسمع هو أيضا الا نفس الجواب : «انتظر بها القضاء » ... ؟ أفابى على محمد لين طبعه وترفقه بصاحبيه الا أن يجيبهما بمثل كلماته القصار التى توحى بصريح الرد والاباء وان غلف اللفظ الناعم الجواب الحاسم ؟... وما عسى سوف يلقى على من ترفق النبى ؟ ... ان ثقة الفتى بنفسه لم تخنه أبدا . ولم تقعد به ، حتى في أهول المواقف واكثرها شدة لم تخنه . وانه ليعلم قربه من قلب محمد قربا يتقدم به سواه من الأقران والرفاق . ولكنه في هذه اللحظة تردد ونكص على عقبيه بعد أن كاد يمضى قدما ، وولى ظهره للباب قبل أن يجتازه وفي خاطره أن الفرصة لعلها غير مواتية الآن ، وان جواب النبى لصاحبيه قد يتكرر ... ثم سار ، حائر الفكر ، موزع القلب بين احجام واقدام ، يذرع الأرض في خطو متمهل وئيد .

ولقيه بعد هنيهة صاحب انكر منه ما بدا على وجهه من سهوم بعد تطلق وبشر ، فاقبل عليه متسائلا يقول :

« ما بدا لك يا بن أبى طالب ؟ »

فتريث قليلا قبل ان يجيب :

« خاطر بشر ، وخاطر نفر ! »

فضحك صاحبه وقال يداعبه :

« هلا تطلقت ، بالله فاني اراك قد اسهم لك ... ؟ »

« فيئى هذه الدرع » .

« ولا تراها كفاء ؟ » .

« حتى تثين غزوة » .

« او خطبة ! » .

ورمقه صاحبه يستنبيء مدى اثر الكلمة فيه فقد كان يعلم بأى الامور هو مشغول . وصمت على يتطلع كالمتوجس ولا يجيب ، اما الآخر فقد عاود ما كان فيه من حديث :

« فهلم يا بن ابى طالب فانها كفاء ... وانطلق » .

« لاين ويحك ! » .

« الى رسول الله تذكر عنده الزهراء ! » .

فغض الطرف ، وهمس :

« ايها عنك ! » .

« فهلم ! »

« بعد ابى بكر . وبعد عمر ؟ » .

« نعم . فان لك عليهما — والله — لسابقة » .

وتريث ليسمع منه فلما وجده ممعنا في صمته ، يبدو تردده على محياه ، عاد يستحثه ويقول :

« لانت اول الناس اسلاما ، واقربهم من رسول الله رحما : ولد عم ، وابن ضم ، واخو دم . فاى الرجلين في هذا يعدل مكانك ؟ » .

* * *

لم يكن هذا الراى على ذهن على بجديد . انه عالم به ، مؤمن اشد الايمان بمعناه ، واثق تمام الوثوق من المنزل الذى يحتله الآن بقلب راعينه .

بل لقد استطاع ان يعرف طوال عشرته لمحمد انه كان دائما منه خيرا مما قاله الناس عنه . ولكنه في هذه اللحظة بدا له راى صاحبه بكرا لم تنفرج عنه قبل اليوم شفتان ، وبدا قبسا من نور بدد غياهب التردد . فما لبث ان انطلق لتوه ، يسرع الخطا ، منصبا كالسيل ،

متقلعا في مشيته على نحو ما اعتاد ان يفعل دائما ، متشبها بمشية نبيـــه .

ولم يطل به المقام في حضرة الرسول الا بقدر أن تمالك جاشـــه ووسعه ان يمسك اضطراب نفسه .

قال له محمد باسما ، يستفسر :

« ما حاجة ابن أبى طالب ؟ » .

فغالب حياءه برهة ، ثم أجاب :

« ذكرت فاطمة يا رسول الله » .

« مرحبا واهلا » .

* * *

بهذا اليسر تمت خطبة على . وبمثله وبأيسر منه تم زواجه الذى كان اغلى امنيات الحياة عنده ، بعد أن لقى لدى فاطمة قبولا . وحمل الشاب درعه التى أفاءتها عليه بدر فباعها بســـوق المدينة بدراهم دفعها الى رسول الله مهر ابنته . وأرسل النبى بلالا فاشترى طيبا بجانب من الصداق ، وارسل أم سلمة فاشترت بعض حوائج العروس.

واجتمع في دار النبى ، ليلة الزفاف ، أهله ، والكثرة من صحبه المهاجرين والأنصار ، يحتفلون ، فقام رسول الله فيهم يخطبهم بما اقتضاه المقام .

وقال في ختام حديثه :

« ان الله تعالى امرنى ان ازوج فاطمة من على . واشهدكم انى زوجت فاطمة من على ، على اربعمائة مثقال فضة ، ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ... »

وانتهى بهذه الكلمات أمر العقد ، وشهد الحضور واقبلوا على العروس مهنئين ، وكان حلواء الحفل بعض التمر اتى به النبى في وعاء فقدمه اليهم وهو يقول :

« تخاطفوا » .

فتخاطفوا . وانفض السامر .

وبقى ان يعرس على بأهله فلم يجد الا منزلا مستاخرا بالمدينة عن منزل رسول الله ، فاتخذه دارا لأسرته الجـديدة .وكانت فرحة

العمر تملأ قلبه تلك الليلة وهو جالس ينتظر بين هنيهة واخرى ان يحضر النبي فيبارك له ولزوجه . وكانت فاطمة يطويها الاستحياء وأم أيمن الى جوارها تخفف بحديثها من بعض هيبتها حين دقت الباب يد رفيقة .

وانفلتت ام ايمن من مجلسها تفتح ، ثم ما لبثت أن سمعها الزوجان تهتف بصوت فياض بالبشر :

« رسول الله ! » .

قال لها النبي يسألها :

« اثم اخي ؟ »

وملكت الدهشة نفس المراة :

« بأبي انت وامي يا رسول الله !... فمن اخوك ؟ »

« على بن أبي طالب »

« وكيف يكون أخاك وقد زوجته ابنتك ؟ » .

« هو ذلك يا ام أيمن » .

ودخل فنهض له الزوجان اجلالا وترحيبا . ودعا هو بماء في اناء فتوضأ فيه ، ثم نادى عليا فجلس الشاب متهيبا بين يديه . ونادى فاطمة فأقبلت بغير خمار تتعثر في ثوبها من الحياء . وراح رسول الله يأخذ من الماء فينضح به على الفتى آونة وعلى الفتاة اخرى وهو لا ينى يرفع صوته بالدعاء الى الله :

« اللهم بارك فيهما .. وبارك عليهما .. وبارك لهما في نسلهما .. » .

ولما غادر المكان وهم أن يجتاز الباب الى الخارج ، كان حنان الاب وعطفه وشدة تعلقه بفتاته المحبوبة ، وحرصه على اسعادها غاية الحرص ، تتجمع كلها في رقة نظراته وهو يلتفت اليها اذ يودعها ويقول :

« والله ما الوت أن زوجتك خير أهلي ... »

ثم ترك بينهما الوفاق والوفاء وبركة الدعاء ...

٧

لم يطل مقام فاطمة بهذا الزواج بعيدا عن ابيها ، لانه لم يطق صبرا على ان يفصلها عن بيته اكثر من جدار ... فلم يكن يمضى قليل حتى سار به حبه اليها ...

قال لها :

« انى اريد ان احولك الى ... »

فتفكرت هى هنيهة عسى ان تذكر حلا يرضى رغبة هـذا القلب الرءوف الرحيم ، ويرضى شغف قلبها هى الأخرى بأن تكون دائما الى جواره الكريم . ان هناك اذن بيت حارثة لا يكاد يفصله عن دار رسول الله شيء ، فلو انه حدثه ...

وقالت له وهى تكاد تتهيب الكلام :

« فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى ... »

ذلك انها كانت تعلم ان هذا على أبيها شـديد لفرط ما افسح حارثة في بيوته لرسول الله . ولقد جاءها رد النبى مصـداق ظنها حين قال :

« قد تحول حارثة عنا حتى قد استحييت منه !... »

ومع ذلك فقد شاء الله ان يحقق لنبيه هذه الرغبة الصغيرة . فما اصبح صباح حتى تحـول حارثة عن الدار المرموقة وجاء يقول لرسول الله :

« يا رسول الله ، انه بلغنى انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلى وهى اسقب بيوت بنى النجار بك ، وانما انا ومالى لله ولرسوله ... والله يا رسول الله المال الذى تأخذ منى احب الىّ من الذى تدع » .

وكذلك تحولت فاطمة الى ما شاء لها قلب ابيها وما شاء لها قلبها من قرب الدار ، واقامت وزوجها في بيتهما الجديد بخير جوار .

ولم تكن حجرتها تلك تتصل بسبب من اسباب الشبه بما نعرف عن بيوت اليوم ، وانما كانت تلائم ما اشتهر عن فقر على وفقر زوجه . لا تكاد ان تقع فيها العين الا على جلد كبش هو فراش الزوجين بالليل ، ومذود العلف لبعيرهما في النهار .

ولكنها ــ مع ذلك ــ كانت في عينيهما القصر المنيف الذاهب العمد

في اجواز الفضـــاء ... فالبيوت دائما بساكنيها لا بصـــنوف الاثاث والرياش فيها . فقد اجتمع لفاطمة في على كل ما ضم افق تفكيرها عن الرجل الأمثل ، وكان أمثل الرجال لديها محمـــد ، وكان على اقرب الناس اجمعين شبها به في الاقوال والأفعال .

وكانت هى من قبل دائمة الكآبة ، كثيرة الهموم ، بالغة الصمت مذ ماتت امهـا وتركتها تضطلع وحدها — في بكور صـــباها — بشئون ابيها ، وتقوم عنده مقام الزوج رعاية ، ومقام الأم عطفا ، ومقام الابنة تفانيا ومحبة . ولقد صحبته خلال اشد ايام الدعوة واقساها محنة عليه ، وشهدت عن كثب ايذاء قريش له ، وعيثها به فكان قلبها — الى جانب سيله حسرات على امها الفقيدة — يسيل حنانا وحزنا من اجل هذا الوالد المضطهد الكريم ، وكانت عينها لا يكاد ان يرقأ دمعها وهى تراه يقف من اعدائه موقف الداعية المسالم فيقفون هم منه مواقف العدوان الصارخ الظالم . ولا تملك هى أن تدفع عنه الشدة أو البلاء الا ان تغسل له ثوبا رماه سفهاؤهم بالأدران ، أو تنفض عن وجهه ترابا حثوه به ، أو تمسح جرحا سالت دماؤه منه ... ثم هاهى اليوم قد ضمها بيت على ، رجل ساير أيام الدعوة جميعا ، وكان لهذا الوالد الحبيب خير دافع عنه بسيفه وبنفسه ، وخير ناهل منه ما جاء به قومه من هدى ومعرفة ، وخير مترسم خطاه في كل صغيرة وكبيرة من افعال حياته لأنه شب له ربيبا آواه ظله ... حتى بعد الزواج) لم يأل على جهدا ليكون الصورة الصادقة لمحمد . كان هذا — بلا ريب — بدافع من الحب لفاطمة والاشفاق عليها والرحمة لحزنها الذى أصبح من كيانها جزءا ثابتا فوق رغبته الصادقة في احتذاء آثار النبى . فقد سرى أثر الحزن من نفسها الى جسمها حتى أضحت هشة واهية الاحتمال حتى لم يجد مندوحة عن بذل كل ما في طاقته ليخفف عنها ما هو احرى بالمرأة ان تقوم به من شئون منزلها . لم يدعها مطلقا تؤدى عنه عملا يستطيعه ، بل كان دائما يسبق يدها اليه . ولم تكن لهما في بيتهـا خادم تعمل عنهمـــا ، فكان هو يقوم بأمور نفســـه . فيخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويهيىء من شأنه كما يشاء . فاذا اقبلت هى على عملها سارع يساعدها فيحلب عنها ، أو ينزع الماء من البئر ويحمله لها ، أو يشاركها فيما تقوم به من مهن البيت : وله في رسول الله الاسوة الحسنة

اذ عرفه دائمـا في مهنة اهله حين وجـوده في بيته حتى يخـرج الى الصلاة ...

على هذه الشاكلة مضت الحياة بفاطمة رتيبة وئيدة في بيت على ، لا تكاد تحس انها فارقت دار رسول الله ما دامت قد توفر لها في بيتها الجديد كل ما كان لها من قبل ، وما دام رسول الله لم يتخلف عن زيارتها خلال ساعات ليل أو أثناء نهار . بل عساها أحست أن بعض اعبائها النفسية قد انجاب عنها بهذه البشاشة التى تطلق بها محيا زوجها ابدا حتى أعداها بشره ، وبهذا الحب الدافق الذى غمرها به حتى كادت تنسى في غماره ما كان من حزنها القديم . وأخذت الراحة تنشر لواءها عليها رويدا رويدا ، والسعادة تظل دارها الصغيرة فتحيلها جنة مليئة بالهناءة أو تكاد .

ولكن سحابة قاتمة ما لبثت أن حلقت، فوق الدار وكدرت الصفو الى حين . فلقد تهامس الناس فيما بينهم عن خطبة جديدة وعن زواج جديد يهم ان يقبل ابن أبى طالب عليه ، ولئن دل هذا الحادث على شيء فدلالته واضحة على مدى سعى الناس الى على يخطبون وده ويلتمسون فيه لبناتهم زوجا حتى ليمشون هم اليه ؛ والعرف يقضى بأن يمشى اليهم الزوج . ودل أيضا دلالته التى لا تقبل الشك على اعظام رسول الله لأمر زهرائه وارتفاعه بها عن مستوى كافة النساء في وقت كان تعدد الزوجات سنة جارية بين الاعراب ...

وقف النبى على منبره ، وقد تكاثرت في الناس الشائعات ، فقال وهو لا يحاول ان يدفع عنه غضبه :

« ان بني هشام بن المغيرة استأذنونى في ان ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب . فلا آذن ، ثم لا آذن ... الا ان يريد على بن أبى طالب ان يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فانها بضعة منى ، يريبنى ما رابها . ويؤذينى ما آذاها ... »

وما كان على بالذى يعدل بفاطمة غيرها وان كانت سليلة الأكاسرة او القياصرة في النساء ... وعادت السعادة ثانية ازهى لونا الى الدار .

***

ولكن الأمر الذى اخذ عليه مسالك تفكيره منذ الزواج ، وظل يقض عليه مضجعه دائما هو ذلك النحول والضعف والتهافت الذى كانت تقاسيه فاطمة من الصغر ويدعها لا تقوى معه على احتمال . ولقد بلغ بعلى القلق عليها غايتـه يوم جاءته تخبره على استحياء ان في بطنهـا جنينا اخذت تسير في اوصاله الحياة . انه ليلمح على محياها اطياف الفرحة التى تخالج الأم ولكنه يشعر فى قرارته بصدى فرحتها قلقا على مصيرها . ان الأمومة لتلهم السعادة كل فتاة ولتحيل حياتها كلها املا معسولا في انتظار الوليد ، وان الأبوة لمنتهى رجاء العربى . ولكن هذا الشاب كان يخشى غاية الخشية أن تنوء زوجه بالحمل ولا يقوى جسدها الواهن على احتمال ثقله وبرحاء الوضع . فلما تصرمت الأيام وانتهت المدة ، وجاءت الآونة المرتقبة ثم وضعت فاطمة حملها في سلام لم تكن فرحة على الا بنجاة زوجه لا بمجيء الغلام ...

وضعت فاطمة وليدها الاول . واولئك الذين شـاهدوا طلعته توسموا فيه محيا جده الكريم ، لأن صورة النبى اسبق الصـور الى اخيلتهم من سواها . وكان الوليد هكذا حقا ، وان كان أيضا يكاد ان يطابق امه شبها لأنها كانت من أبيها صورة ناطقة القسمات والملامح في اجلى بيان .

واقبل على يحتمل الطفل فرحا اذ صار به لرسول الله ذرية منه يتيه بفخر نسبها اليه على كافة الناس . وراح كغيره من الآباء يجيل بذهنه أجمل الأسماء لينتقى خيرها للوليد ، ولكن ما فيه من طبيعة الكفاح غلب عليه والناس دائما الى طبائعهم اميل ... عجم على جعبة الأسماء فلم يدع الغلام باسمه هو ولا باسم ابيه ، ولا باسم جده لأبيه وان كان خير الأسماء ، وانما دعاه بما هو اميل اليه في هذه الدنيا دون كافة الاسماء .. اختار ان يكون له « حرب » علما عليه لأن الحرب كانت صناعة ابيه بالسيف واللسان ، كما شاء القدر وشاءت له قبل سنوح فرصها ميول الوجدان ...

ولكن هذه التسمية كانت رغبة لم يتح لها مطلقا ان تتحقق ، فقد اقبل النبى مسرعا حين بلغه النبأ السار ليمتع ناظريه بطلعة سبطه ، وليهبه من لدنه البركة والدعوات الصالحات .

وقال ولما يستقر به المقام :

« اروني ابني ... »

فدفعوه اليه يحتمله بين يديه ، ويقرب فمه من اذنه الصغيرة يهمس فيها اذان الاسلام ، ثم يلتفت ثانية ويسأل :

« ما سميتموه ؟ »

قال علي :

« سميته حربا »

« بل هو حسن »

فكان كما قال رسول الله .

***

ثم عاودت الخشية ثانية عليا وهو ينظر فيرى زوجه مقبلة على وضع جديد . انها هذه المرة أهش قواما واضعف عودا بعد ما بذلت من نفسها وقوتها في سبيل تربية صغيرها والقيام على شأنه . ولقد بلغ من وهنها أن الجنين في بطنها لم يتم شهوره وخرج الى النور بعد ستة شهور .

وكما ود علي في البدء فقد ود لو كان اسم ثاني وليديه « حربا » لولا ان اختار له رسول الله اسم « حسين » ..

***

واصبحت الحجرة الصغيرة اجل عند ساكنيها من قصر منيف رفيع الذرا والعماد بعد قدوم هذا الرفيق الصغير . وأصبح علي أكثر بشاشة واضحك سنا . وعرفت البسمات أخيرا طريقها الى ثغر فاطمة فلم تعد تضل عنه بعد أن وهبها الله زينة الحياة .

ولكن الله ، بهذين الصغيرين ، لم يهب الزوجين وحدهما العقب الصالح ، بل وهب الدنيا كلها نسمة عاطرة ونفحة طيبة من ريح النبوة الزكية . وقدم في شخصيهما للأجيال المقبلة ، حتى زوال الأرض وانفطار السماء ، ذرية رسول الله . الذي اقتضت حكمة ربه الا تكون له من صلبه سلالة ، فشرف عليا بأن جعل من صلبه هو سلالة النبي الكريم ، فاضاف بهذا الشرف الى ابن أبي طالب مجدا جديدا في سلسلة امجاده ومفاخره التي اختص بها وحده دون الناس اجمعين : من ناصرين ومن شانئين ...

٨

في « احد » قاد ابو سفيان الرجال واحقاد الرجال ، وقادت زوجه هند النساء واحقاد النساء !.

كان الرجل ، طوال ما فات بعد «بدر» من أيام تجاوز العام ، لايجد له شاغلا في الحياة بمكة الا التجهز بالمال والعتاد ليوم القصاص هذا ، فرصد تجارة عظيمة ــ اشترك فيها أهل بلدته أجمعين ــ على النيل من محمد بالحرب والقتال ليردوا عليه ما ناله منهم . ثم اخذ نفسه بانماء احقاد القلوب واضغان النفوس ما وسعه الأمر حتى لقد جعلها تكتم في قرارتها التفجع والحزن على قتلاها ولا تفضى به ، فحرم على الرجال الحداد ، وعلى النساء والأطفال البكاء الى يوم يحين لهم فيه الثأر من واتريهم ، يحق فيه الندب والبكاء ، وتطيب فيه الفرحة بالقصاص من الأعداء ..

واقبل الرجل ، وقد اصطفت حشود قريش في الميدان ، على حملة اللواء من بني عبد الدار ، يثير حميتهم فيقول :

« يا بني عبد الدار انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فاصابنا ما قد رأيتم ، وانما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا ... »

فساله طلحة بن ابي طلحة :

« وما ترى يا ابا حنظلة ؟ »

«أرى اما أن تكفونا لواءنا،واما ان تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه».

فثارت لهذه نخوة طلحة ، وثارت معه نخوة آله من بني عبد الدار فاستمسكوا باللواء وهم يقسمون ليرفعنه عزيزا حتى ينتهى قتالهم بالنصر .

ولكنها كانت نخوة كلفتهم غاليا ، واقتضتهم تسعة رءوس من اكابرهم ضريبة للحرب دفعوها ولما يبرحوا اماكنهم من الميدان ، وكان على وحده مقتضيهم راسين !..

... برز طلحة من بين صفوف قومه ، مدلا بالبطولة والفروسية يدعو نظائره من رجال المسلمين الى المبارزة فاسرع اليه ابن ابي طالب

مستجيبا لدعوته في غير ما صلف ولا كبرياء ، وما هى الا لمعة السيف في ضوء الشمس حتى لقى ذلك المدل المعتز رجفة الموت الناقع على يد الشاب الحيى المتواضع .

ثم برز من بعد عثمان بن أبى طلحة يالقف الراية التى تفلتت من بين أصابع اخيه المجندل الصريع . فما هم حتى بطشت بهكف القسورة حمزة . ولما آن لثالث الاخوة من بنى عبد الدار وقت حينه وحان اجله ، رماه قدره هو الآخر فريسة سهلة المنال في يد على فأصماه ولما يكد ، لأن حرص ابن عبد الدار على بقية انفاس الحياة التى كانت تتردد فيه ، جعله يفر بجرحه المميت من وجه مصميه ، متخذا من عورته درعا يكف عليا عنه ويقف به دون الاجهاز عليه ..

***

وأقبلت نسوة قريش وراء الجيش ، يضربن الدفوف وقد قادتهن هند رافعة الصوت بالصياح عساها تثير الحمية في صدور الرجال بما تضفيه عليهم في غنائها من مديح وآيات فخار :

ويها بنى عبد الدار !
ويها .. حماة الأدبار !
ضربا بكل بتار ... !

ولكن الرجال ادبروا وأدبرت معهم النساء !.. وكادت الدائرة أن تدور عليهم اجمعين فتنتهى المعركة بالنصر المبين للمسلمين لولا أن رماة هؤلاء زايلوا اماكنهم التى ارصدهم فيها رسول الله ، وخالفوا امره واندفعوا وراء رجال قريش المدحورين ليصيبوا من الغنم . فانتهز عدوهم منهم هذه الثلمة ؛ وكرت خيله من الخلف على جيش المسلمين تضربهم وتشيع المقتلة فيهم .

وانتكس الأمر على رجال النبى واختلطوا بمناجزيهم أشد اختلاط واكرهه حتى ما يدرى الرجل منهم أكان يقتل اخاه اذ يرمى أم يصيب من عدوه نحره . وتفشت في الرجال روح الهزيمة فغلبتهم رهبة الموقف ، وحاولوا أن يقوا انفسهم مصارعها فنكصوا ، وارتدوا قليلا قليلا — امام ضغط قريش — على أعقابهم مولين ، هم الذين لم يعرفوا ، قبل يومهم هذا . كيف يكون النكوص ويكون الفرار .. وحادوا

عن مواقفهم واحدا اثر واحد . وتكشفوا عن نبيهم وهم لا يشعرون وتركوه هدفا لنبال الـكفار .. ثم اخذتهم رجفة الرعب فأحالتهـم احجارا لا تعي حين سرى الى صفوفهم من بين حشود مناوئيهم لغط يفشو كأنه النار ان محمدا قتل !.. قتل محمد ؟.. ما لهم بعد هذا موقف ولا ثبات . وليولين من لم يكن بعد قد ولى ، وليضعن سلاحه من كان قائما حتى اللحظة يضرب به الى يمين وشمال ، فان رسول الله عنوان الاسلام ، العلم الذى وقفوا من اجله يبذلون أرواحهم رخيصة قد خر صريعا — هنا أو هناك — في الميدان ..

***

ما كان اشد فرحة ابنة عتبة وزهوها ذلك النهار ! اخذت تقطع ساحة المعركة في مجيء وذهاب لتمتع ناظريها ، كاللبؤة الضارية ، برؤية الأشلاء والدماء . انها قد شفت قلبها المصدوع وبصرها المقروح واسبلت مصارع أولئك الواترين الراقدين في جوار احد على نفسها راحة ما بعدها راحة .. كلهم الآن فداء ابيها وأخيها وابنها ، وغيرهم من الآل الذين جندلوا على ثرى بدر ، ثم لكم أضفى على قلبها سعادة لم تستشعر قبل يومها هـذا مثلها ذلك اليقين الوطيد بأن أصـل بلائها قد زال عن هذا الوجود بزوال محمد وذهابه عن دنياها الى غيابة الموت ..

ولكن عينيها وقعتا في جانب الميـدان على منظر ارسل في قلبها ثانية نار الحقد التي كادت تخبو . تفور وتمور .. ها هنا عصبة من رجال قومها الأمجاد يكافحون رجلا فردا كأنه الليث بين الخراف !.. فارعا ، مهيبا في لحظات كربته كما علمته دائما مهيبا ابان لحظات تفوقه وعزته ، لا تكاد العين ان ترى ذؤابة سيفه وهو يسرع في كفه الى الرقاب كالبرق . ولا يكاد أن يخطئـه البصر او يأخـذه بغيره وهو الصارم الغضبة قد اجتمعت عروقه في جبهته كالـكرة ورمت عيناه بنظراتهمـا كلسـاني نار . وهو البازر بين الآلاف من الرجال يحسن سمته وأناقة ثوبه وان اصابت منه وعثاء الحرب .. وهو المعلم دائما

بريشات النعام في صدره أو على قلنسوته حتى ليعرف من لم يره انه حمزة بن عبد المطلب لأنه لا بد قد سمع ذات يوم عنه ..

ها هنا رجل حي من بيت محمد !.. رجل دونه بقية الرجال وكافة الأبطال ودون حقد هند عليه أحقاد مثيلاتها من النساء على غيره من اصحاب الرسول وصفوة ناصريه . فلتكفين اذن ناسها بأس سيفه : ولترووين غليلها من دمه كما روى ثرى بدر بدماء والدها عتبة . ولتقتصن فيه لأخيها الوليد وابنها حنظلة اللذين قتلهما ابن ابى طالب . ولئن ذهب على — في حسبانها — كما ذهبت كثرة المسلمين الى التراب فقمين بعمه أن يؤدى عنه الثمن لثكلها المرير وفجيعتها التى لم تنطو على مثلها القلوب والصدور ..

وارسلت بصرها عجلى ، على ما حولها وبالود لو استطاعت ان تنساب نحوه كالافعى فتنشب فيه الناب . وهمت ان يدفعها الحقد فيلقيها عليه ثم تترك لأضغانها بعد هذا أن تنال منه حسبما يلهمها الموقف : ولم تكن تحمل في صدرها قلب انثى آدمية بل قلبا اقل ضراوة منه قلوب الوحوش الكواسر ، فانطلقت تعدو صوب العصبة التى التفت بحمزة وتساقط حوله أفرادها كالذباب . ولكنها ما لبثت ان توقفت اذ شلتها هيبة الرجل . وأدارت أمرها في رأسها مترددة. محاولة أن توازن بين احتمالات الموقف وبين خاطر سطع في ذهنها حين وقعت عيناها على وجه أسود علا جسد مارد !..

وفركت المرأة كفيها فرحا . انها نائلة ثأرها بلا ريب ثم عائدة الى دارها مثلجة الصدر . هذا وحشي العبد يلوح عن كثب وهى تعلم انه مأجور لقتل محمد او لقتل على او لقتل حمزة . فما استطاع وصولا الى اولهم ودونه الصفوف تلوها الصفوف من أصحاب مجاهدين مفتدين يدفعون عنه . وما استطاع الى الثانى وصولا ويقظته الفذة لا تترك لوحشى او لسواه مجالا يصيبه فيه من بعيد او من قريب . ولكن الأول مضى ونفضت منه الحياة كفيها .. ومضى الثاني في اثره ، ان لم يكن قد سبقه الى الموت اذ كان دائما الفادىله المكافح عنه لا تصل الى محمد ذؤابة سيف الا ان اخترقت — في الطريق اليه — قلب على .. ثم بقى الثالث .. بقى حمزة حتى الآن امامها يجول ويصول يقد الرجال ويمزق الأوصال .. وان هندا

لترى الآن بعينيها لم وقف الأسود المأجور في مكانه لا يريم . ملكت قلبه رهبة الرجل حتى تركته قطعة صماء من الأرض التى وقف عليها وهو يشهد بعينيه كيف تكون مقاتل الرجال على يد هذا البطل الذى سن له وحشى حربته ، وسممها ثم وقف بعيدا كأنه نسى فيم جاء .

واسرعت اليه المرأة تجذبه من ثوبه وتصيح فيه :

« ويها ابا دسمة ! » .

فانتفض العبد كأنما ردت اليـه الحياة . وتطلع نحوها ببصره الحديد . صامتا ، مفغور الفاه وعادت ثانية تهتف به وتستحثه :

« انك تقذف برمحك قذف الحبشة ولا تخطىء .. ارم فداك امى ! » .

فاعتدل في وقفته ، وحانت له فرصة انكشف فيها اعداء حمزة عنه فهز الرمح ، وصوب ثم القى ..

واعقبت الرمية الصائبة صيحة الشماتة انطلقت من شفتى هند. ووقفت عن كثب ترقب كيف تبدو علائم الموت على الوجه الوسـيم الأصبح . وكيف تعانى العينان سكرات النزع ! وكيف تنزف الحياة في قطرات دماء راح يلفظها الجرح . وبوجهها في كل هذه اللحظات صفحة كريهة تداولتها الوان الحقد والضغينة والبغضاء ..

واسـتدار حمزة ينظر من اين اتته الطعنة الغادرة وفي ملامحه تنطق آلامه بألف لسان . وتحامل على قدميه يكرههما على المسير صوب قاتله بعد ان تبينه : وارتعدت اوصال العبد فزلزلت فرائصه وهو يراه يهم بقطع الطريق اليه ولم يستطع فرارا بل ثبت برغمه في مكانه كأن قـد بنيت قـدماه في الأرض . ولـكن حمزة لم يسر الا خطوات ــ عرف بها قلب وحشى كيف يكون سلطان الرعب ــ ثم سقط البطل العظيم مجندلا على الثرى ..

هنا اسـفرت هند عن قلب الوحش الذى ضمته اضلاع المراة فاتت بما لم يحدثنا التاريخ مطلقا بمثله قساوة اشباعا لنهم الأحقاد. استلت سكينها وتقدمت الى الجسـد الطريح تمثل به اشنع تمثيل فصلمت اذنيه . وجدعت انفه ، وغورت عينيه ، ثم تركت النصل يعبث كما شاء له جنون الغل في قسمات الوجه حفرا وتخديدا وقطعا ، وهى لا تستطيع أن تكف يدها ما لم تحس بقلبها الصليب قد نقع

صداه .. وهل كان لجلمود صخر ان يعرف ريا ؟ ان الوحش الرابض في داخلها لم يزل منهوما ، ليس تشبعه الرؤية وحدها ولا ترويه .. فلتبقرن اذن بطن عدوها الراقد أمامها في سلام ، ولتكشفن فيها عن بضعة تنهشها بأنياب أحد أنواع الحيوان واضراه نزعة ، ولتأخذن الكبد التي ما زالت فيها بقية من دفء الحياة فتلوكها في فمها وتقضم منها ما وسعها ان استطاعت أو أن أساغت .. ثم تلفظها حانقة لأنها مريرة المذاق . وتمضي — بفعلتها هذه — على مدى الأيام مثلا فذا لشر ما سكن قلوب الناس من احقاد وأضغان ، مثل لا يعدله شر في الدنيا ولا في بقية الأكوان !..

***

مثل لا يعدله شر الا ما انطوى عليه قلب زوجها .. الرجل الذى سوده قومه ، وما حسبتهم كانوا مسوديه الا لفضل او مسكة من فضل بعد حسبه العريض الذى ذهب به في اصول العرب الى أبعد المذاهب ، ولكن أبا سفيان كان رجلا قميء الجسم قميء الوجدان ! أعماه حقده عن الفضل ، وعن العقل ، وعن حق القربى التى ربطته بحمزة حتى غلف الحقد قلبه بغشاوة سميكة خرجت به عن نطاق قلوب الانسان تماما كما حدث لهند . بل لعل لزوجه بعض العذر لو انا قابلنا بينه وبينها فى كفتى ميزان ؛ كانت أنثى وللاناث لدى ثورة النزعات اندفاع يحيد بهن عن الجادة وان لم تصل بغيرها الجيدة الى مثل هذه المغالاة . وكانت موتورة في ابيها ، وفي اخيها ، وفي ولدها ثم بعدهم وقبلهم في الكثيرين من عشيرتها وادنى الأقربين اليها من الأهل والأحباب . أما هو فلم يكن كذلك . ولئن فقد في بدر ولده حنظلة فان حمزة لم يكن قاتله . ومع ذلك فقد مال مع ضغنه القديم، الذى ورثه عن آبائه ، على بنى هاشم ومن انحدر منهم ، يستوى أمامه محمد وحمزة وعلى ومن عساه سينشأ لهم من ابناء لو امتد به عمره وامهله الزمان لسقاهم ايضا من سموم كراهيته ما يستطيع .

وهكذا لم يملك أبو سفيان نفسه ، ولم يمسك بزمام بغضائه حين مر بشرى أحد فوقع بصره على حمزة بن عبد المطلب لقى ، مشوها ، مبقور البطن عمل في ملامحه وفي أحشائه النصل والناب .. بل استبدت به احقاده أيما استبداد وملأت بسمة كريهة وجهه الدميم ، وهزت الفرحة جسمه القميء الضئيل وهو يسرع الى حمزة الصريع يهتف به بصوت تفيض الشماتة في نبراته :

« يا أبا عمارة ... دار الدهــر ، وحال الأمر ، واشتفت منكم نفسي ! » ثم لا يخجل أن يتناول بالقصاص ميتا لا يستطيع عن نفسه دفعا ، فيهز رمحه في يده هنيهة مدلا مستعزا ، ويتقدم فيضرب بها في شدق الجثة وهو يردد كمن أصابه مس جنون :

« ذق عقق !... ذق عقق ... »

وكأنما الله شاء ان يخزيه في موقفه ذاك ، وان يكبته فيطلع عليه في تلك اللحظة أحد احلافه من رجال مكة ... ويقلب الرجل بصره في سيد قريش غير مصدق ان يبدر منه ما يأتيه ، ويكاد ان يذهله المنظر أول الأمر حتى اذا استوثق مد كفه الى منكب أبى ســفيان يهزها ويقول في صوت هامس مبحوح :

« سيد قريش يصنع بابن عمه ما ارى ــ لحما ! » .

« الحليس ! » .

ويكاد ان يسقط من يده رمحه وقد علم ان قد اطلع على خزيه سيد الأحابيش . ولكنه سرعان ما يلجأ الى الاعتذار في موقف ليس يجديه فيه تكفير ولا تعذير ...

يقول متخابثا ، متوسلا لصاحبه :

« اكتمها عنى ، فقد كانت زلة » .

ولكنها زلة كانت أحرى به ؟ .. ليست بكبيرة منه . أكثر منها غير غريب عليه ، ولا على آله اتيانه في هذا الباب ، وانما القليل منهم هو موضع العجب ومثار الاستغراب .

* * *

وكأنما ورث الأحفاد ، مع الأحقاد ، صناعة الأجــداد .. لأننا لا نلبث ان نرى بعد هذا الموقف بنصف قرن او اكثر من الزمان . الحفيد « يزيد » يستعيض عن رمح جده بقضيب يضرب به في شدق الحسين الذبيح ويتلهى بنثر ثناياه ، كأنما المثلة كانت لأسرته صناعة ، وكأنما فيها الامعان كان لهم ملهاة اى ملهاة !... اما الحليس فاني أرى ظهوره قد كفانا الصورة الكريهة التى كاد أن يرسمها لنا ابو سفيان فى تلك اللحظة من يوم احد لو خلى بينه وبين التصوير ... ولعل شيخ بني أمية لو ترك وحيدا وشأنه اذ ذاك ، لكان انحنى على الأرض فنفض التراب عن الكبد الملقاة ثم رمى بها في فمه لانيابه عساه يسيغ منها بعض ما لفظت زوجه !...

٩

اشرف ابو سفيان بن حرب من ربوة على ميدان المعركة فى انحائه شراذم متفرقة من المسلمين مسها الضر وعملت فيها الهزيمة ، وراح بأعلى صوته يهتف :

« يا أصحاب محمد !.. يا أصحاب محمد !.. افيكم محمد ؟ »

فلم يجبه على سؤاله مجيب ، كان هول الموقف لم يذهب بتبصرهم في عقبى الأمور فراوا الخير في التزام الصمت .

وفرح الرجل ما شاء له أن يفرح . ومدت له هـذه الفرصة في بساط الشماتة وشفاء غله اذ حسب أن عدوه ليس بينه رجل تطاوعه نفسه المكلومة على تحريك لسانه بالرد على مصير محمد ، ومصير خير صحبه الذين ظل شيخ بنى امية يرفع عقيرته بالسؤال عنهم واحدا بعد واحد . ولم يبق شك عنده في انه قد انتصر وانتصرت معه قريش ، وأن عجلة الفلك دارت على مثال دورة عجلة المعركة فى احد ، وأن أولئك الذين قد اجلب لهم من مكة بخيله ورجله راحوا لقى على الثرى ها هنا أو هناك .

وضم على جسده القمىء طرفي ثوبه . واحس كأن قد استطال نرعه الى الشمس لأنه ملك النصر وملك الثأر ... ثم دعا داعيه في رجاله ان يتهيأوا للرحيل ...

ولكنه قد جرى شوطا بعيدا غاية البعد وراء خياله لأن محمدا لم يقتل ولم يتخل ربه عنه بل أبقى عليه من أجل الدعوة ، وادخره للقابل من الايام حتى ينشر الدين ويقضى على اعدائه المشركين . ولئن دارت اليوم على جيشه الدائرة فانما هى المحنة يبتلى بها الله صبر عباده ثم يردهم بعـدها قلوبا تقوى على الاحتمال وتثبت لزعازع الأهوال .

***

اجل لم يمت محمد . ولم ينل منه اعداؤه الا اقل القليل وهم الذين لاحقوه بالاسياف والرماح والنبال كانما كانوا لا يحاربون غيره .

ولكن رماحهم وسيوفهم وكل ما حملوا به عليه من سلاح تكسر على صخور الدفاع التى احاطه بها بعض صحبه . وكانت هذه الصخور رءوسا وقلوبا وإجساما وقفت دونه تذود عنه . ولعل سجلات البطولة مذ خلق الله دنيانا حتى اليوم لم تضم صورا ابدع من تلك التى رسمها بدمائهم ابطال احد . ولعل محمدا لم يعش في محنة كانت انكى من تلك الفترات الأخيرة من المعركة وأشد عليه .. قارب الموت كما لم يقاربه من قبل ، وسار تحت ظله وقعد ، ورأى الهول كيف يكون له على الناس سلطان غالب يفتنهم عن الجهاد ، وشهد الاضطراب والرعب يجرفان صفوف أصحابه كأنهما سيل حتى انفرجوا عنه . وأولئك الذين لم يثنهم عنه خوف عدوهم واتقاء بطشه تناءهم عنه دفعه وضغطه .. حتى عمر غاب عن عينيه وهو الجليد ذو البأس الشديد .. وحتى أبو بكر أيضا وكان دواما أقرب اليه من أردان ثوبه ...

ولكن حفنة من الرجال ظلت حوله لم تبرح عنه ولم تمل كأنها شدت اليه أو كانت منه بضعة . وهؤلاء هم الذين لم يلههم الهول ولم يثنهم الدفع والجذب عما نذروا أرواحهم له . فلقد بايعوه على الموت من قبل كما بايعه الآخرون ولكنهم كانوا أملك لنفوسهم في ساعة كان خطبها يذهل الناس عن نفوسهم . كان هو المعصم وكانوا هم السوار فاحاطوا به من أمام ووراء ويمين ويسار ... في جانب وقف ابن أبى طالب لا يستطيع ان يلهم سيفه السكون لو أنه اراد ... ينتقل به بين الرقاب والقلوب ويروى نصله بالدم ان كان يرتوى حديد !.. وفى جانب كان سعد بن أبى وقاص يذب بقوسه الذين حاولوا اختراق النطاق الى رسول الله ويرميهم بنباله حتى نفدت . وكان من خانه من أولئك المدافعين سلاحه التمس الحديد والحجارة وكل ما يقع بين يديه ليدفع بعيدا ذئاب قريش . ولقد استطاع واحد من هذه الذئاب أن يلقى حجرا أصاب وجه النبى ، ولكن البقية فرت ، ولم تستطع الثبات لما شاهدته من عزم ومن قوة مراس ، وقنعت بأن تلقى نبالها من بعيد . وراح مؤلفو السوار يدافعون عن رسولهم ما وسعهم ويحولون بين السهام وبين وقوعها فيه .. وان منهم لواحدا رأى الأمان في ان يترس بجسده لمحمد فانحنى عليه كأنه درع وراح يتلقى رميات الاعداء .. الا فطوبى لابى دجانة الدرع الآدمية لرسول الله ! . طوبى

له ونعمى ! وطوبى لجسده الذى لم تترك نصال قريش منه موضعا لم ترشق فيه نبلا !...

واستطاع رسول الله ، بعد جهد أن ينجو مما كان فيه فسارع ومعه علي وقلة من صحبه الثابتين ، يصعد في احد . وكان الكثيرون ممن فرقهم عنه الصراع قد علموا أنه حى فاقبلوا فرحين يلحقون به وقد ردهم نبأ بقائه حيا الى الحياة !... وكذلك أصبح عن نبل عدوه بمنجاة حين اعتلى الجبل ، ثم انعكست الآية فأصبح العدو أهدافا لنبال المسلمين التي أخذت تنصب عليه من علو فتفرقه بددا ... وكان النبأ أيضا قد سرى الى اسماع أبى سفيان فأذهب عنه ما كان من فرحته وأعاده سيرته الأولى حبيس ضغنه ، ولكنه لم يستطع أن يعيد الحمية ثانية الى صفوف رجاله فيؤلبهم من جديد بعد ان برد حماسهم بنبأ المقتل المكذوب فآثر الاكتفاء من النصر بما أصاب ، ورأى الصواب في أن يغنم السلام بالاياب !

واشرف الشيخ الموتور من ربوة أمام الجبل ، يصيح مستعزا بالثأر الذى أتيح له ، وبالنصر المزعوم وهو يهلل لصنمه المعبود :

« يوم بيوم بدر ... اعل هبل ! .. اعل هبل ! »

فجاءته من ناحية محمد تهليلة الايمان ، أعلى جرسا وأصفى صوتا ، تشق العنان :

« الله أعلى وأجل — لا سواه ! .. الله أعلى وأجل ! »

***

واخذ ميدان المعركة يخلو رويدا رويدا الا من الجثث والأشلاء التى تناثرت في جنباته ، واكثرها من الشهداء المسلمين ، وكانت نسوة المدينة ما زلن دائبات على ما خلفن من أجله بيوتهن : يملن على الجرحى بالعناية وعلى المنكوبين بالعطف ، وقد سبقتهن فاطمة الزهراء الى هذا الواجب فدارت مسعفة حانية أو مضمدة آسية ، وهى لا تكاد أن تثبت بها مواقع الأقدام لفرط نشاطها آونة ولشدة ضعفها وما اصابها من الوهن والكلال آونات ، ولكنها ظلت — مع هذا — تعمل ولا يقعدها جهدها لحظة واحدة عن موالاة بذل العون واسباغ الرعاية .

وغابت قريش عن الاعين . وانطوى في البيداء المترامية آخر رجل

من رجالها مخلفا حلبة الصراع . لقد انتهى الأمر على خير ما طاف بأحلامهاوثأرت من واتريها . فلتعد اذن بزهوها تاركة صريعى نقمتها على الثرى صامتين .

اما محمد فلم يبرح . لم يكن قد استوثق لنفسه وناسه من رحيل قريش اذ كان الحرى بها — وهى بعد موفورة في الرجال والسلاح — أن ترتد مباغتة فتستأصل من نجا من جيش المسلمين ، بهذا قضت قواعد الحرب في كل عصر وجيل وقضت حكمة القادة الذين يحسنون القيادة ، وبهذا جرى خاطر محمد ومسه منه الخوف على أتباعه الناجين ، فدعا اليه على بن ابى طالب وأمره أن يذهب عينا وراء أولئك المرتحلين ليعرف ان كانوا قد اسروا في نفوسهم مكيدة البسوها بمظهر الرحيل .

قال له :

« اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ويريدون . فان كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة . وان ركبوا الخيل وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ...

وخرج على صدوعا بالأمر ومسارعة الى ركوب خطر بالغ عساه ان يكف أصحابه كيد قريش . واقبلت بقية الجيش تصلح من شأنها وتعيد التنظيم والاعداد ليكونوا لعودة عدوهم على أهبة . ومضى الوقت على الناس بطيئا رئيدا يملؤه القلق الذى يبعثه الانتظار حتى رأوا ابن أبى طالب يبدو لأعينهم فوق حد الأفق .

وتقدم هو بعد قليل الى رسول الله يقول :

« يا رسول الله ، قد جنبوا الخيل » .

فتنادى المسلمون بالارتحال .

***

وفي طريق العودة مضى الناس يلتمسون قتلاهم ، ليس يحزنهم نقدهم من فقدوا قدر حزنهم على ذلك النصر الذى كان في ايديهم ثم فقدوا . ومضى النبى معهم يبحث عمن غاب من صحبه ، فاذا به قد وقع بصره على حمزة عمه : على أسد الله الصريع الطريح كما تركته أسنان هند ابنة عتبة ورمح زوجها الموتور الحقود . فأية غضبة

عصفت بجوانح رسول الله اذ ذاك ؟... واى الآلام ابلغ من الم حز في قلبه هذا المشهد الموجع المروع ؟. لا أدل على هذا من الكلمات التى افترت عنها شفتاه وهو يقول : « لن أصاب بمثلك ابدا » ... ولا اصدق في التعبير عن سخطه من قوله : « ما وقفت موقفا قط أغيظ لى من هذا ! » لأن الـه المرير يقصر عنه كل تعبير .

ألا قد ثأرت قريش حقا ، وثأر شيخها أبو سفيان بن حرب وشفى غليل حقده الذى نما في قلبه مع الأيام خـلال اجيال وأجيال ، فانه الدوحة الباسقة التى غرس نواتها ذات يوم عبد شمس ، وتعهدها امية ، ورواها حرب فى قلوب الأعقاب فأثمرت دائما الكره لآل هاشم في الجاهلية وبعد الاسلام .

وأبى رسول الله على المسلمين ان يعودوا بقتلاهم الى المدينة بل امرهم أن يدفنوهم حيثما وقعوا صرعى . وراح هو يجهز حمزة بنفسه حتى اذا فرغ وقف عند رأسه يقول قبل أن يدلى به فى قبره :

« لولا ان تحزن صفية ، ويكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ... ولئن اظهرنى الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم !... »

وقال الناس من حوله :

« بل مثلة يا رسول الله لا يمثلها احد من العرب قط » .

ولكن الله ربأ بنبيه عن الضـغينة والانتقام فأوحى اليـه ما يتفق وطبيعته السمحاء :

« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر ، وما صبرك الا بالله ... »

واقبلت صفية وقد نما الى سمعها ما أصاب أخاها ، فأبت رحمة رسول الله وبره بها الا أن يأمر ابنها الزبير :

« القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها ... »

فأسرع الولد اليها يأخذ عليها الطريق :

« يا أمه ، ان رسول الله يأمرك أن ترجعى » .

فرفعت اليـه بصرا غاض دمعه وبان في نظـراته العزم ، وقالت تسأل :

« ولم ؟ ... »

« ان أخاك » .

فضربت له أروع الأمثال في الصبر والاحتمال وهى تجيبه :

« قد بلغنى أن قد مثل بأخى ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان ... لأحتسبن ولأصبرن ... »

ومضت الى جثة حمزة وهى تسمع رسول الله يأمر ابنها قائلا :

« خل سبيلها ... »

١٠

لم تكن احد آخر المعارك التى كشفت عن حقد بنى امية وان اختفى هذا الحقد بعدها زمانا تحت رماد الظروف التى جردتهم وقتا من سلاح الانتقام . ولكن الجمرة — مع ذلك — ظلت متقدة وان كان اتقادها أخذ يبدو في آونات على منحى لا يجعلها ذاكية الضرام طائرة الشرر واللهيب الى من حولها من آل محمد ، بل كانت تحت رمادها تئز وتستعر مدخرة أوارها الى يوم مرتقب ليس على أصحابها ببعيد ، لأن النصر ، الذى أخذت ترقى في سلمه الدعوة الاسلامية ورجفت منه قلوب الأعداء أجمعين ، ومن بينها قلب ابى سفيان وآل بيته الشائنين، خلفهم مسلوبى القدرة على كفاح الاسلام على النمط الذى يرجون ، عاجزين عن النيل من محمد وذويه كمشيئة الأحقاد والأضغان .

ولم تكن أحد كذلك آخر المعارك التى برزت فيها بطولة على وبذله وتضحيته — لا ولا أولها . ولكنها كانت القارعة التى امتحنت فيها قلوب أبطال مغاوير . ثم علا بمحنتها قلب هذا الشاب على جلد قلوب كافة من كانت جرت بذكرهم أحاديث الناس في أنحاء الجزيرة العربية حتى طوقتها من الأطراف والحدود . فما من ازمة وقعت فيها الدعوة الاسلامية أو تعرضلها رجالها المخلصون الا كان على مفرجها أو صاحب الشأن الأول بين العاملين على كشف غمتها عن النفوس والقلوب .. وما من موقف تطلب في أيام الصراع بطولة الأبطال الا قاد ابن أبى طالب فيه الصفوف وجمعت عزيمته الماضية شعث عزائم الرجال . بل كان هو احيانا المتقدم حيث تملأ الخشية والرهبة النفوس فيفيء بهذا التقدم الطمأنينة عليها ، ويعيد اليها ما كاد أن يطير عنها من روع ..

وليس نبأ حصار المدينة بالصحيفة المطوية من صحائف الشرف في الدعوة الاسلامية يوم ان اجتمعت قريش واحابيشها واحلافها من يهود يثرب يطوقون بلدة الرسول وفي عزمهم أن يضربوا الضربة التى لا يكون بعدها للاسلام قيام .

اجتمعت الأحزاب جميعها على محمد ، واتحدت كلمتها وقوى من عزائمها ان انضمت اليها قبائل اليهود الضاربة على حدودالمدينة وكانت من قبل في حلف محمد حتى رات اجتماع الكثرة عليه فآثرت ان تمالئها ، وأصاب المسلمين من هذا الاجماع الساحق خوف ايما خوف حتى جرى في الخواطر ان يتالفوا بعض الكفار بشيء يدفعه اليهم النبى لينفضوا من الحصار ثم تغلب أخيرا الاعتداد بعزم النفوس وبالنصر المرموق الذى لا بد أن يوليه الله حزبه المختار فأقبل المسلمون جميعا وفيهم نبيهم يعملون كرجل واحد بمشورة الفارسى سلمان ويحفرون حول البلدة خندقا يحميها من جيوش الأعداء .

واقبلت قريش في جمعها اللجب يملأها الغرور وينفخ منها الكبر الأوداج والنحور . وتهيأت للهجمة التى توقع الذعر والاضطراب في صفوف هذه الفئة القليلة التي وقفت لها بالمرصاد . ما أعتاه جيشا وما أصخبه رعدا وأوفره عددا ! اللمسلمين بلقائه أو بالثبات له طاقة ؟. لولا أن عصم الله عيونهم أن تزيغ وقلوبهم أن يرين عليها الجزع لقد كادوا أن يرتدوا أمامه مدحورين .

***

وكان الخندق أسلوبا فارسيا في الدفاع ليس للعرب به قبل يومهم هذا عهد فوقفت قريش أمامه مذهولة ثم مسلوبة الحيلة ، لا تستطيع أن تجتازه الى الذين عسكروا خلفه ان لم يستحل عليها اجتيازه ، ولا تستطيع سيوفها أن تنال من رقابهم كما حسبت حين أقبلت بجموعها تروم القتال . ولم تملك هذه الحشود المجيشة بازائه الا أن تقدم رماتها يستهدفون المسلمين الرابضين خلفهم فيجيبهم هؤلاء من ورائه نبلا بنبل . وطال هذا التراشق بين الفريقين لا ترجح به لأيهما كفة . ودب في نفوس قريش الملل من فتور الصراع ، وضاق

امرها عليها . وخشى ذوو الحكمة أن يبرد حماس مقاتلتها فذهبوا يتذرعون الى اخراج المسلمين من مكامنهم بكل وسيلة حتى اعيتهم الحيل ولم يجدوا مناصا من اصطناع الجراة عساهم يعملون اسلحتهم فيهم على النحو الذى يريدون .

وكذلك تقدمت من بينهم عصبة ، هى اشدهم واجلدهم على الصراع والصيال فامتطت الخيل ، وسارعت تضرب أجنابها الى ناحية من الخندق سهلة الاجتياز محاولة ان تقتحمها كى تكون مجاز بقية جيشها الى المدينة .

ولكن عليا كان كدأبه اليقظ الذى لا تفوته من عدوه حركة او لفتة . فى سرعة الصوت قفز بجواده على اولئك المجترئين لم يثنه عنهم انهم جماعة وهو فرد . ولم تذهله المفاجأة التى اندفعوا بها يقتحمون الخندق على المسلمين قبل ان ينتبه لفعلتهم كثيرون غيره . وكالبرق طاح بينهم سيفه اللماح حتى راعهم منه ما حسبوا من قبل انهم مرعود بمثله . وكانما أعادت حملته الصادقة الى نفوس أصحابه الوعى الذى غاب عنهم هنيهة فسارعوا اليه يسيرون في أعقابه ويدفعون حتى فرت خيل المشركين ولوت أعنتها لتعبر الخندق الى صفوفها مرتدة .

لا بد ان يكون هذا قد أصاب من اعتداد قريش ومن صلفها ومن كبريائها ولا بد أنها استشعرت فيه طعم مهانة لم تذق لها فى يومها طعما . وكان اكثرها شعورا بمرارة هذه الفاتحة الخاسرة فارسها المجلى وبطل ميادينها عمرو بن عبد ود ، الذى قاد عصبة خيلها فاقتحم الخندق عزيزا ثم انثنى فاجتازها مدحورا ذليلا . لم تعد القضية الآن في حسبانه قضية قريش بل أصبحت قضيته هو ... قضية الذكر الذاهب في انباء البطولة الى السماء ، والصيت الذى تحدث به العرب في الجزيرة ورواه رواتهم في كل الأنحاء .. قضية السيف الحاصد البتار كأنه شعلة نار . والرجل الذى لا يقومه قومه بين الرجال الا بالف من الأبطال ... قضية الكبرياء المهيضة الجناح كأنما قد طعنت في قلبها بأصمى سلاح !

لم تثبت بعمرو قوائم فرسه حتى عاد بها الى جانب الخندق كأنه القلعة فوق صهوتها ، دارعا مقنعا بالزرد والحديد تهتز الأرض تحت تيهه وزهوه ، وتنتهبه العيون من كلا الفريقين بنظرات فيها رهبة وفيها

اعجاب ، ثم لا تكاد ان تستقر عليـه طويلا بل تغضى لفـرط ما ملأ الأسماع من صيته المرهوب وما جرى من انبائه في النفوس والقلوب .

وأشرف الفارس من مكانه على المسلمين يدور فيهم بعينيه ، ويقتحمهم ببصره ثم يهتف بهم في صوت داو مروع كالزئير :

« يا رجال محمد ، هل من مبارز ؟ » .

لكأن كلماته هذه كانت نداء الموت !... ما من رجل سمعها الا رجف لها بدنه وان كان بين عسكر مناصريه . أو كأنها قد أغلقت دونها الآذان فلم يجر لها جواب على لسان .

وأرسل عمرو فرسه تميس وتختال امام الصفوف ، ورسول الله واقف يدعـو ربه الا يتقـدم أحد من رجاله لتلبية النـداء . والمسلمون مشـفقون صامتون وفارس قريش لا ينى يتفـرس في وجوههم بنظرات الزراية والمكاء .

وعاد الرجل ثانية يهتف :

« الا رجل يبارز ؟ » .

فتقدم على هذا النداء على بن ابي طالب . لئن دفعه رسول الله ورده في الأولى فما هو براده الآن وقد تخلف عن قبول التحدى غيره من الفرسان .

قال متوسلا لرسول الله :

« انا له يا نبى الله »

ولكن النبى كان ضنينا به على سيف ابن عبد ود فدفعه ثانية وقال:

« انه عمرو . اجلس ! »

فجلس مطيعا وبوده لو استطاع سبيلا الى العصيان .

وعاد عمرو يصيح ، وقد بدا له أن يمعن فى التهكم كما يشاء :

« يا اصحاب محمد ! ... اين جنتـكم التى زعمتم انكم داخلوها اذا قتلتم ؟ ... افلا يريدها رجل منكم ؟ اما منكم من يقدم ؟ »

فعاود على توسله النبى وقلبه يأكله التلهف على مقابلة هـذا الخصم المرهوب :

« انا له يا رسول الله ... ايذن لى »

« انه عمرو . اجلس ! »

على هذا النحو من النداء والاستجابة جرى الأمر مرارا . ومحمد يأبى عليه حبه عليا ان يخلى بينه وبين صنديد العرب ، والمسلمون

جميعا لا يكاد أن يرتفع من بين ابطالهم المشـاهير صوت يلبى دعوة ابن عبد ود الى الاحتكام للسيف ، لفرط ما قر فى الأذهان من اجادته فنون الطعن . ولكن عليا وحده ... الشاب الذى لما يكتمل شبابه وخلع بالأمس فحسب عذار غلومته له تسكته الرهبة ، ولم يقف به الخوف لأن له قلبا لا يعرف الرهبة والخوف ، وله اعتداد بقدرته فوق كل اعتداد ، وله بصيرة مرهفة كحد السنان علمته أن هذا التلكؤ عن البروز لعمرو فيه الشر غاية الشر لأنه سيدع النفوس فريسة خوف اخف من أثره وقع الموت ــ اذا شاع افقد الرجال حب القتال ، وأورثهم التشبث بالحياة ولم يقم عمد الاسلام حتى اليوم إلا حرص رجاله على الموت !

لذلك ما أعاد ابن عبد ود دعوته حتى هب ابن أبى طالب يعيد التوسل الى نبيه :

« ايذن لى يا رسول الله »

« انه عمرو ! »

« وان كان ! »

ويخلى النبى أخيرا بينه وبين غرضه ، فكأنما أصاب الشاب بهذا الاذن خير دنياه ! ويقف الرجل المدل بماضيه ، التياه على العالمين بصحائف بطولته ، المعتز بجبروته وصولته امام هذا الحدث فيستهين به ويستصغر شأنه ويقتحمه بعين ساخرة ثم لا يرفع سيفه أنفة وكبرا ، ويقف على رابط الجأش ثابت الجنان كأن ما يبدو من صلف عمرو ليس يعنيه ، وبحسبه أن يتريث بهذا الفارس الشاكى الغارق فى زرده وحديده ، ويصبر حتى يكون منه بدء القتال لأنه هو لا يحب لنفسه أن يكون البادىء بسل حسام .

ويعجب عمرو لهذه الجراة التى دفعت اليه هذا الغلام فيقبل عليه يسأله : « من انت ؟ » .

فيرميه بالجواب فى اقتضاب :

« على » .

« من عبد مناف ؟ »

« ابن أبى طالب » .

فتعطف الفارس عليه الشفقة ، ويقول :

« ابن أخى ! .. قد كان أبوك لى صديقا » .

ولكن ساعة الضراب تنسى الأنساب ! .. لا يدع على لعواطفه سبيلا على نفسه ، بل يقول جادا فى حزم :

« يا عمرو ! » .

« أى ابن أخى ! » .

« انك كنت تعاهد قومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلال ثلاث الا أجبته الى واحدة ... » .

« نعم هذا عهدى » ...

« فانى أدعوك الى الاسلام » .

فضحك الرجل :

« وأترك دين آبائى ؟ .. دع هذا عنك » .

« أو أكف يدى عنك فلا أقتلك ، وترجع ! » .

فملك الرجل غضبه قدر وسعه . يالجراة هذا الغلام اذ يخوفه نفســه ! وقال دهشا وهو يظهر الأناة :

« تكف عنى وأرجع ؟ .. اذن تتحدث العرب بفرارى » .

« فانى أدعوك الى النزال ... »

وكانت بالفارس بقية من صبر وبقية من شفقة ، فقال ملاطفا ، وهو يؤمن بالفارق بينه وبين قرنه ، ولا يرى شرفا فى قتاله :

« ولم يا بن أخى ؟ ... غيرك من أعمامك من هو أسن منك ، وانى أكره أن أهريق دمك » .

« ولكنى والله لا أكره أن أهريق دمك ! » .

هنا غلت مراجل الغضب فى صــدر عمرو على هــذا السليط الساخر ، واستل سيفه المشهور ، ثم اقبل ينزل به كالصاعقة على رأس على فما أسرع ما استقبل الشاب الضربة العاتية بدرقته حتى قدت ، ونفذ منه الحد الى رأسه فشجه . ولكنه مع ذلك استطاع ان يحتفظ بثباته . وأن يحيد عن ضربات فارس العرب مرات ثم يكر عليه بحسامه فيصيب حبل عاتقه .

كانت قريش جميعها واثقة من المصير المحتوم الذى ينتظر الشاب، عالمة به قبل وقوعــه . وكان المسلمون مثلها منــذ بدا الصراع وان استبدلوا بفرحتها بهذا المصير اللوعة على المنازل الصغير ... اجل فلم يكن بين كلا الفريقين الا من هو مؤمن أشد الأيمان باضافة عمرو ضحية جديدة فى عداد ضحاياه . ولكن الله بدل حدسهم جميعا ، لأن العيون

وقعت بعد قليل على ما لم يدر مطلقا فى الاخلاد والظنون ...
سقط عمرو وقد هدته الضربة ، وثار لسقطته الغبار الى جوار
اقدام على كما يثور لحركات ثور ذبيح ! ... ومن بين الغبرة التى
ارتفعت علا صوت ابن أبى طالب بالتهليل والتكبير يتلوه هتاف الآلاف
من عسكر المسلمين .

١١

اقدام حيث لا معدى لغيره عن التزام الاحجام .

هذه ناحية من خلق على ، واضحة الملامح جلية ، رفعته فى مجالى
الشجاعة على الناس ، ان أدلى بالرأى أو هز السيف .

ومع ذلك فلم تكن فى الشاب دفعة ، ولا تهور او طيش . ولكنه كان
يصدر فيما يأتيه دائما عن حكمة خفيت عن نفوس الناس ، وشعور كأنه
الهام يوفى به على احكام التقدير عند اقتحام المصامع أو ممالجة الأمور .
كانت له نظرة ثاقبة نفاذة فيما يعرض له ، ولكنها كانت أيضا لماحة
تسبق ما يستخلصه سواه بعد اعمال فكر أو موالاة تدبر ، وتصل به
سريعا — وغيره لم يزل بعد فى بدء التفكير — الى النتائج العصية على
العقول حتى ليحسبه الناس يجنح الى اعتساف الحلول . وكانت تقوده
دائما بديهة صافية ، ويسدد خطاه قلب ملأته الثقة بقدرة صاحبه
وان كانت هذه صفة تعدل الغرور فى نظر مغلولى الصدور !.

اجل رفعته صفته تلك وعلت به على اقدار الناس ، وكان لها صدى
فى نفوسهم يتفق وأميال هذه النفوس ... بعضها استجاب له معجبا
مواليا ، وبعضها اضله الحسد فقلبه عائبا زاريا ، والناس دائما أمام
البطولة اثنان : مكبر حامد وزار حاسد ، وان كانوا الى الثانية ، غالبا
اميل .

لذلك لم يكن عجبا ان تنطوى اكثر الجوانح على الحسد لهذا الشاب
الذى عز على القوم ان يلتمسوا فى ابطالهم له الضريب دون الأضراب .
حتى بين صحابة الرسول لم نعدم أن نجد له حاسدين لا يستطيعون
الاخفاء وان حرصوا جهدهم على هذا الاخفاء . وكان النبى يلمس فيهم

الكثير من أمثال هذا الجنوح فلا يفتأ اليوم بعداليوم يتحدث لهم بفضل علي ويقص عليهم من قربه الى قلبه مـا عساهم به يرعوون عنه . ولكنهم كانوا عبيد طبائعهم ، ينقمون على الشاب الفضل الذى خلت منه نفوسهم أو لم يستطع فضلهم أن يسير واياه فى ميدان . ولئن رأينا العجب فى أن يميل بعض صحابة الرسول هكذا مع الهوى ، فأعجب منه ان نرى فى آل بيت الرسول من يجرى جريهم وينزع مثل منازعهم . وهكذا الزبير بن العوام — وامه صفية عمة على — يكاد يتصيد الهنات ليلصقها بابن خاله كأنها أسوأ الصفات . خرج ذات يوم ورسول الله يسيران فاذا بهما يلقيان عليا ببعض الطريق ، ويضحك محمد لابن عمه محييا فيجيبه هذا ببسمة ثم يمضى لشأنه . فكأنها كانت وزرا هذه البسمة . يأبى الزبير الا ان يتلقفه ليغض به من شأن قريبه المحسود ! . . . يقول لرسول الله بكلام ناعم ليس يخفى معناه :

« يا رسول الله ، لا يدع ابن أبى طالب زهوه »

فلا يستطيع محمد أن يسيغ منه القول على ظاهره ولا باطنه وهو الذى لا تخفى عليه مكامن القلب ولا مجهول الغيب ، بل يرد عليه :

« انه ليس بزهو . ولتقاتلنه وانت له ظالم »

وما كان على بالمزهو ولا بالمستعلى كبرا على الناس ، ولكنه الاعتداد بالنفس والثقة تختلف مقاييسها فى أعين الناس بين حامد وحاسد . ركب نفسه ، طوال عمره ، بالرياضة والنسك حتى أسلمت له الزمام ذلولا يعصيها ولا تعصيه وان أرادها على اجتياز المهالك وأوعر المسالك ، وهذه منقبة فيه كان حريا أن تلف حوله القلوب وتعطفها عليه . ولكنها كانت فى أنظار الكثيرين منقصة ، الا أولئك الذين تجردوا عن الهوى . وكانت له هو سر فوزه دائما على محبيه ومبغضيه على السواء ، وظهوره حيثما خبا لهم نجم وطاش سهم .

كذلك رأيناه فى بدر يستبق المسلمين الى رءوس كبار المشركين ، وفى احد يثبت كالجبل الراسخ امام السيل الذى كشف عن محمد اجلة صحبه وابطالهم ، وفى الخندق يكون وحده البادرة التى آذنت بهزيمة قريش وكسرت قلوبهم اذ اصمى بسيفه صنديد الجزيرة العربية عمرو بن عبد ود ثم نراه — بعد هذا — هكذا دائما ، لا يسبقه الى فضله سابق ولا يلحق بغباره لاحق . يترددون ولا يحجم ، وينكصون ويتقدم . يسير النصر أمامه ويسدد التوفيق اقدامه .

بعث الرسول الكريم أبا بكر الصـــديق الى خيبر ليفتح منها حصن ناعم ، فقضى الرجل وجنده يومهم يناوشون اليهود لا يستطيع أن يثلم فى أسوارهم ثلمة أو يتحين منهم غرة فعاد بكتيبته غير موفق .

فلما كان اليوم الثانى أمر الرسول على الكتيبة عمر بن الخطاب وعقد له لواء الحرب ثم أرسله . ولكن ثانى الصالحين لم يصب خيرا مما أصاب زميله ، بل عاد هو الآخر كعودة أبى بكر ، وخلف الحصن مغلق الرتاج . ثابت البنيان وطيد الأركان .

وجاء اليوم الثالث فاذا النبى يدعو اليه عليا ويقول له :

« خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ... »

فتقدم فى التو رجاله ، ومضى يعدو الى الحصن العصى .

لم يلق ملابثة من اليهود أو تريثا حتى يروه يهجم ، بل وجدهم يبادرونه بالقتال . خرجت فرقة منهم فسدت على المسلمين مسالكهم الى الحصن وذهبت تصاولهم ولا هم لها الا هـــذا البارز أمام الصفوف يتقدمهم غير هيـــاب ، ولا تكاد العين ان تلمح منه حملات السيف أو حركات الدرع بين طعن ودفع وقد جاءت لحظة على هؤلاء اليهود ظنوا أن قد ظفروا بمأربهم وأوشك النصر أن يلوذ بهم حين تكاثروا على الشاب واستطاعوا أن يسقطوا من يده ترسه وسارعوا نحوه ، وهو مكشوف الصدر أمام نصالهم ، محاولين أن يتخذوا من جسمه أهدافا . ولكنه كان أسرع قدما ، وأيقظ عينا . استطاع فى لمحة بصر أن يميل عن طعنات مناوئيه ، ثم يلوذ بجانب من الحصن غير بعيد وفى لمحة أخرى وسعه أن يخلع بابا من جدار . وفى لمحة ثالثة شاهدته اليهود قد كر عليهم قبل أن تتبين حركة من حركاته أو تنتبه لخطوه : سيفه فى يد ، وفى الأخرى الباب الثقيل يترس به عن نفسه بدل الدرع المفقودة ، ينثر بينهم الموت وهو لا يكل ولا يصيبه الجهد حتى انطرحوا صرعى تحت قدميه ، واتخذ من الترس العجيبة ــ بعد هذا ــ قنطرة الى داخل الحصن تبعه عليها أصحابه ، ثم تم الفتح .

* * *

على هذا المنوال كانت حياة على مثالا فذا من البطولة منذ اشرق فجر حياته على دنيا التاريخ . وكانت سيطرته على نفسه هى رائده الأوحد الى هذه البطولة ، لا يعنيه الا ان يفعل ما دام يؤمن بمقدرته

على أن يفعل ، وكان دائما يؤمن بهذه القدرة التى جربها فلم تخنه مطلقا في مرة . وما أحسبه كان مستطيعا غير هذا! وهو الذى شب فى أكناف رجل وقف بمفرده امام عالمه بغير سلاح الا ايمانه .

انما نحله محمد بعض الثقة التى سلحه بها الله واضفى عليه من سوابغها آيات . ولئن كان على قد برز على انداده فى هذه البطولة المادية فلقد توفرت له منها — فوق التوجيه النفسي — طوابعها الجسدية التى كانت تنسىء دائما بما فيه . كان الفتى فى الأقران شديد البنيان، موفور القوة الى مدى لا يصل اليه قرين ولا اقران . وبحسبك ان تسمع حديث التاريخ يلقى على مسمعك فى قصة حصن ناعم أن بضعة عشر رجلا من اصحابه حاولوا أن يحملوا الباب الذى كان ترسه فناءوا به ! .. وكان ضخم عضلة الساق ، أميل الى القصر فهو بصفتيه هاتين اثبت فى موطىء قدميه واشد رسوخا ، ملىء عضلات الأعضاد مكتلها حتى يستطيع ان يخطف بذراع واحدة فارسا عن فرسه . وان كان دارعا فى الحديد . فيجلد به الأرض كما تضربها بسوط ، ثم يقذف به كالكرة الى اينما شاء ! .. وكان آدم شديد الأدمة وان كان الى جانب هذا حسن القسمات كثير البسمات ، على محياه مهابة ، كبير العينين ، لنظراتهما الساطعة فى قلوب مشاهديه نفاذ .

وكان هذا الاعتداد بالنفس الذى ميزه فى بطولته المادية صاحب الأثر الاكبر فى تشكيل بطولته المعنوية . كان يرى الناس من خلال صفاته هو. ويزن أعمالهم على النمط الذى يود منهم ان يزنوا اعماله على منواله . ميزانه دائما الحق الأسمى لانه رجل وهب حياته للذود عن هذا الحق وحاسب دواما نفسه والزمها سبيله .

لهـذا لم يعرف مطلقا كيف يهـادن او يداور ، بل كان يلقى بالراى صريحا ، واضحا ، قاطعا كالسيف ولا يأبه اباء باباء ام حاز الاعجاب . وانما كان يلقى به ارضاء لضميره المرهف واعلاء لكلمة المثل الأعلى الذى اعتنقه ولقد جعله حبه الصواب الأمثل مثالا لا يبارى فى شفافية النفس حتى لا تخفى عن عواطفه خافية لان ملامحه ذاتها كانت تنطق بالراى قبل تكونه على شفتيه كلمات ... كان قلبه على لسانه . ولعل اشد ما امتحنت به صراحته وكان له ابعد الاثر مستقبلا فى حياته ، هو رايه فى حديث الافك غب رجوع المسلمين من بنى المصطلق .. جرت حينذاك السنة السوء فى عائشة ، وتقول عنها

الناس عن صفوان السلمى لأنها تخلفت فى الطريق لبعض حاجتها ولم ينتبه لتخلفها أحد ففاتتها القافلة حتى قيض لها صفوان مارا فخلى لها عن بعيره وحملها الى المدينة .

لم تكن القصة لتذيع ، وما كان بها ما يخشى ذيوعه ، لولا فئة المنافقين التى اخذتها وسيلة لايذاء محمد فى سمعة زوجه وكانت عائشة صغيرة السن ، مليحة ، أثيرة على النبى حتى كانت محور غيرة ازواجه الأخريات ، والغيرة دائما سماعة ، وليس أجرى على لسان النساء وأحب الى قلوبهن من الخوض فى أحاديث النساء !

اما النبى فقد أخذ نفسه بالصبر فى البدء عسى ان يصمت الهمس . ومضى يصطنع الحلم والأناة ، ويصطنع الهدوء ، ويكظم فى ذات نفسه ما يعانى . ولكن الهمس لم يصمت بل استشرى كالنار وذاع . وامتلأت بحديث الافك محافل المسلمين بعد محافل المنافقين . وتأذى محمد وتألم ، وتأذى له خلصاؤه . وكان على من عرف للنبى ايثارا وحبا فبلغ ألمه من أجله غاية مداه . لم يستطع أن يرى محمدا هكذا مضغة فى أفواه القوم بسبب فرد مهما كان فى العالمين ، ان كانت عائشة أم المؤمنين . ولم يكن يلقى عليها شكا ولا يتهمها بسوء وان تطايرت حولها القالة . ولكنه كان يعلم ان المراة سيرة ، وأن الظن شية ، وعسير أن تنفى الحدس والظنون من أفهام الناس .

لذلك ما كاد النبى يستشيره فى الأمر حتى قال بلا مواربة :

« يا رسول الله ، ان النساء لكثير . وانك لقادر على أن تستخلف . وسل جاريتها فانها ستصدقك » .

ولقد نزل فى عائشة بعد هذا قرآن ينفى صفحتها ويبرىء ساحتها فأقبل المتقولون على انفسهم يتلاومون ، تائبين نادمين ، وراح حديث الافك دبر الآذان . ولكن عائشة بدت كأن لم تنس لابن أبى طالب ما كان من مشورته كأنها كانت تود أن يقطع ببراءتها رغم أن زوجها رسول الله لم يعجل بهذا حتى اتاه برهان الله ! ... وانا لنراها لهذا تكرهه طوال عمره ، وتنقم عليه حتى آخر نسمات حياته ، وتحملها نقمتها هذه على نفض القلوب عنه وجمع السيوف عليه . وما نحسب كل هذا كان وليد رايه عن قصة الأفك فحسب لانه لم يقل الا ماكان جديرا به أن يقوله ، ولم يخالف — اذ قال — ما بدا اذ ذاك من توجس الرسول . ولكن عائشة كانت ، قبل كل شىء ، امراة لها طبيعة

النساء . تغار كمثل غيرتهن . فاذا عرفناها تعلم قرب على من قلب زوجها قربا لم يبلغه منه أدنى الناس حتى كانت تسأل :

« أى الناس أحب الى رسول الله ؟ »

فتجيب :

« فاطمة »

« ... من الرجال ؟ »

« زوجها ... »

اذا علمناها كانت تعرف هذا القرب بين قلبى زوجها والشاب ، ثم علمناها غريرة صغيرة حين اعرس النبى بها ، لها جموح مثيلاتها من غريرات صغيرات لم نر عجبا فى ان تغار على زوجها من على وقد طالما رأته يحبسه عنها أكثر الوقت ثم لا تراهما الا فى رفقة ... فاذا مر الوقت زادت الألفة بين الرجلين وكان قمينا بها أن تبلى جدتها . وكانت هى تمنى النفس بأن تملك وحدها وقت محمد خلال الفراغ ، فاذا بها ليست تملك الا بمقدار الثلث لأن لعلى وفاطمة فيه نصيبين ! حتى اذا دار الزمان وولى عهد الرسول لا نلبث ان نرى عائشة أميل الى النقمة على ابن أبى طالب منها فيما مضى ، اذ وجدت فيه — فوق ما أثارها عليه من قديم — ذلك المنافس العنيد الذى قام ينازع اباها صولجانه ولا يقر سلطانه ...

١٢

استطاع الاسلام بعد الخندق ان يقف على قدميه : ان يثبت ، ثم يسير الى الأمام .

فلقد أوقعت الغزوة هيبته فى قلوب اعدائه لأنهم جربوا حماته ، وعرفوا مدى العزم فيهم قبل أن يرسل الله على قريش واتباعها جنود الريح تقلب قدورهم . وتطفىء نارهم ، وتقتلع مضاربهم من ارضها اقتلاعا ..

واوقعت الغزوة ايضا الحذر فى نفوس المسلمين فباتوا لا يأمنون على أنفسهم احلافهم القدامى : قبائل اليهود الضاربة على تخوم المدينة ، الذين جعلوا البلدة تحت رحمتهم ، ان شاءوا منعوها أوشاءوا أسلموها .

ولم يكن محمد بالذى يحب الاعتداء أو يسيغه فحرص جهده — منذ البدء — على ان يكون واصحاب الكتاب هؤلاء على اطيب الصلات ، علما منه بأنهم اصحاب دين الهى قلوبهم اميل الى الانتصار للاسلام منها لنصرة عبدة الأصنام . ولكنهم كانوا قوما حاسدين باغين ... أعماهم تعصبهم عن المحجة فقاموا ينتهزون كل غرة للايقاع بمحمد والاتفاق مع اعدائه المشركين على كفاحه .

لذلك لم تكد جموع قريش ترتحل عن الخندق وقد نبا بها المقام ، حتى نادى منادى رسول الله فى الناس :

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة .. »

وقدم النبى عليا اليها برايته والمسلمون يترسمون خطاه فى افواج ، وأولاهم الله نصره العزيز . واباحهم من بنى قريظة أعناق رجالها يضربونها ورقاب نسائها ... ثم اولاهم نصره العزيز ثانية . وما زال يوليهم اياه كلما ساروا ، يوما بعد يوم . الى فئة من هؤلاء اليهود حتى لم يعد ذكر لقريظة ، أو المصطلق ، أو النضير أو أى من المسميات التى عرفوا بها ، وطهرت منهم الأرض .

وهكذا أمن الاسلام شر عدوه الذى طالما استتر تحت ثوب صديق .

ثم أمن شر قريش ، ذلك العدو السافر المبين ، الى حين ... فلقد كانت قريش أعياها القتال وامضها النضال ، فلما جاءت السنة السادسة من مكث محمد بالمدينة ورآته ينفلت فى رجال كثر فيشرف بهم على مكة أو يكاد وهو فى طريقه بهم الى حج البيت ، خشيت ان هو دخل عليها بلدتها ولم تمنعه تقولت عنها العرب ، وان وقفت دونه تسد عليه الطريق وتحول بينه وبين ما يريد رفع السيف الى رقابها .. وكلا الأمرين عليها شديد ! ...

وفكر سادتها وأعملوا الفكر . ما كانوا بمستطيعى قتاله ، عامهم هذا ، وهم منهوكو القوى قد اكلت الحرب منهم مأكلها ، وما كانت كبرياؤهم لتلين أمام تقدمه بهذا الجحفل المنشود وتخلى بينه وبين البلدة يدخلها عليهم بدون قتال ... ان الجزيرة لن تصدق أن محمدا دخل مكة عن رضا من قريش بل سيذهبن فى الآفاق انها طأطأت رءوسها راضخة لأنها تخشاه .

استطاعوا أخيرا أن يصلوا إلى الراى الذى يحفظ عليهم كلتا دمائهم وكبريائهم ، فقر عزمهم على مهادنة محمد على ان يرجع عنهم

عامه ثم له عود فى الموسم القادم ان شاء . ولم يكن محمد بالذى يخيب رجاء أو يرد حاجة . فاستقبل رسولهم وراح ينصت اليه ويحسن الانصات ، وراح سهيل بن عمرو يناشده حق الدار ، وحق العشيرة ، وحق قومه الذين خشوا ان يقتحم عليهم بلدتهم عنوة فلا ترتفع لهم مكانة بعدها فى نظر الناس . وتحدث الرجل طويلا ، ووسع حلم النبى كل حديثه وكل مطلبه . وتم الاتفاق بينهما الا يعدو منهما فريق على فريق ، وأن يضعوا الحرب الى أجل معقود ، وأن يرجع رسول الله بالمسلمين الى المدينة هذا العام ثم لهم عود الى زيارة البيت بعد عـــام ...

ودعا رسول الله عليا ليكتب لهما العهد .

قال له ممليا :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ... »

فقاطعته جهالة الجاهلية على لسان سهيل :

« بل ، باسمك اللهم »

قال محمد موافقا :

« باسمك اللهم ... » ثم مضى يملى : « .. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل ... » ولكن رجل قريش عاد يقطع عليه الاملاء .

« امسك ! ... فلو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك ... بل اسمك واسم ابيك »

فقال رسول الله لعلى يأمره :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله .. »

وكذلك أصبح عهد الحديبية موثقا ، وأمن الاسلام عــدوه المبين الى حين ، فاستطاع محمد ان يفرغ لتنظيم دولته واعــداد العــدة لمستقبلها ، كما استطاع من اراد من القبائل أن يحالف المسلمين أو يحالف المشركين فلا يصيبه من الفريق الآخر عدوان ولا يجرى عليه اكراه .

***

ولكن قريشا لم تكن لتستطيع أن تنزع عنها ما ركب فى طبائعها من حب العدوان ، فلم تلبث حين سرت إليها الأنباء بأن المسلمين فى مؤتة سقط الكثيرون منهم صرعى على أيدى الروم ، ان ظنت الاسلام قد اصبح مهيض الجناح سهل المنال ، غير منيع ولا مرهوب ، لا يقوى رجاله أن يدفعوا عن أحلافهم ومن فى عقدهم من الناس ما داموا قد عجزوا عن الدفع عن أنفسهم .

كانت بنو بكر فى عقـد قريش ، وكانت خزاعة فى عقد الرسول فعدت اولاهما على الثانية فأصابت منها بثأر قديم . وكان شبان قريش قد علموا أنباء مؤتة فحفزهم ما ظنوه هزيمة المسلمين على أن يقتصوا منهم فى اشخاص أحـلافهم الخزاعيين وفى حسبانهم أن محمدا ليس بقادر على رد العدوان . ولكنهم لم يصيبوا الظن وان اصابوا العدو ... بل كانوا فى بغيهم مسرفين اذ تبعوا من خزاعة رجالا تحصنوا بالحرم فأعملوا فيهم الأسياف ، لا يمنعهم عن الايذاء قدسية البيت ولا حرمة المكان .

وأسرع عمرو بن سالم الى رسول الله بمسجد المدينة ، وأسرع بعده بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة يقصون على محمد نبأ من قتلت قريش الباغية واحلافها منهم ، ويستنصرونه على أن يقيم الحد على من نقض العهد .

هى الحرب اذن تأخذ من قريش مآخذها نصرة لأولئك المظلومين ، وثأرا لكرامة المسلمين ... كذلك توقع الناس ، وقراوا فى الغضبة التى شاعت آثارها في محيا الرسول وهو ينصت الى شكاية المظلومين .

ورفع رسول الله بصره الى رجال خزاعة وقال :

« لا نصرت ان لم انصركم مما أنصر منه نفسى ! ... »

وراحت توا فرحة النصر الرخيص الذى استشعرته قريش من وراء العدوان ، حين فتحت عينيها على ليل حالك باتت فيه على قلق لا تعرف مداه كلما اجالت فى اذهانها الخطة الغامضة التى لابد أن يتخذها حيالها محمد . ان حماس شبابها لن يثبت للمسلمين فى ميدان . وان محمدا ، الذى لم يعهدوه نواما على الضيم وهو منفرد وحده أمام جموع المناوئين ، لن يغضى لهم اليوم عن الاساءة وقد أصبح القوى العزيز السابغ السلطان .

ثم عجمت أعوادها وتخيرت من بينها السهم الذى ظنته يصيب .

كان لابد لها من مخلص من هذا الحرج الذى وقعت فيه ومنجى من العاقبة التى جرها عليها طيش الشباب فيها وغفلة الشيب . وليس بعاصمها من غضب محمد سوى أريب ماهر وداهية مداور ، يستطيع أن يصل بحديثه الى قلب محمد الرقيق الكريم قبل أن يصل الى أسماعها .

وهكذا اختارت قريش شيخها أبا سفيان بن حرب . ففى الرجل دهاء ، وفيه مداورة ورياء ، ثم هو قبل هذا وفوق هذا له بمحمد أواصر قربى تصل الى الأجداد ، وثق رباطها النسب مذ تزوجت ابنته أم حبيبة برسول الله ... ولعل ما يشكل على السياسة حله يكون هينا ميسورا عند انعطاف القلوب بين القريب والقريب .

ولقد وفقت حقا قريش ، باختيار أبى سفيان رسولا عنها الى محمد ، الى اختيار السهم الذى لم يصب وان كانت ظنته يصيب ! . ولكنها على أى حال لم تجد بينها من كان أولى من الرجل بأداء هـذه الرسالة والسعى الى رسول الله يترضاه . وكان اختياره فى ذاته توفيقا وان لم يوفق مختارها فى مسعاه ؟ ... وكأنى بمحمد ، ذلك اليوم ، قد تكشفت عن بصره الأسجاف التى تغشى ابصار النـاس وتجعل نظراتهم لا تنطلق الا بمقدار ... كأنى به — من بعيد — قد أطلع على قريش ، وعلى قلوبها ، وعلى ما طاف بأذهانها من افكار وما أجمعت عليه من اختيار ، حين التفت وهو بمسجد المدينة الى صحبه يقول :

« كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ، ليشد العقد ، ويزيد فى المدة . . »

١٣

قال ابو سفيان وهو يجلس ، بمسجد المدينة ، امام رسول الله :

« يا محمد . انى كنت غائبا فى صلح الحديبية ، فاشدد العهد ، وزدنا فى المدة » كأنه لم يعرف بنكث قومه ! ...

وقال محمد يجيبه فى هدوء :

« ولذلك قدمت يا أبا سفيان ؟ »

« نعم » ...

« فهل كان فيكم حدث ؟ » .

فلم ير الرجل بدا من الكذب فقال :

« معاذ البيت ! فنحن على موثقنا وصلحنا يوم الحديبية ، لا نغير فيه ولا نبدل » :

هنـــا طاشت حيلة ابن حرب ، وعـــرف أن اسلوبه فى الكذب المداورة مغلوب أمام اليسر والبســـاطة فى هذا الأســـلوب !.. ان كانت قريش لم تنكث فالعهد قائم لا تبديل ولا تغيير ، وان كانت نكثت فعلى نفسها الجزاء الذى يفرضه النص المكتوب ثم لا تغيير بعد هذا ولا تبديل ! ..

وقام الرجل عن مجلس محمد بعد قليل ، مدحورا لأنه لم يستطع أن يلتمس الوسيلة الى اقرار ما جاء فى شأنه بعد ان يئس من الفوز بسمع محمد فضلا عن الفوز بقلبه . وخرج يسير ، ويعتصر ذهنه ويكده عساه ان يطلع عليه برأى رجيح . ولكنه وجد نفسه من ذهنه المكدود فى بيداء لا يستطيع ان يقع فيها على الثمرة المشتهاة ...

أحس مقدار عصيان عقله له وخذلانه اياه واستشعر فى قرارته ضغطا لم يقف له من قبل على نواة فتاقت نفسه الى من يشد ازره ويظاهره ولم يكن يأمل أن يجد بين أسوار المدينة من يقف الى جانبه أمام محمد ويؤيد القول الذى اختلقه منذ لحظات ، وانما ود لواستطاع أن يرتد ثانية الى المسجد ليذكر فى جلاء الحقيقة التى من أجلها جاء ، والرسالة التى سعى سعيه وهو يرجو لها الأداء . ولكنه آثر أن يتريث ، وأن يحاول الولوج الى قلب محمد من خلال زوجه — أم حبيبة ابنته — التى ما حسبها تحب أن يرده محمد على أعقابه الى قومه بمكة ، يسبقه الهوان ويمشى فى ركابه الخذلان ...

دخل عليها دارها ، واهنا منهوكا بعد رحلة منهكة . ومشى شارد البال فى الغرفة يهم أن يجلس ليريح قدميه ثم يدلى اليها بما يشاء . فما أسرع أن رآها تثب فتسبقه الى الفراش فتطويه دونه ، وادهشته هذه البادرة منها وحيرته ، فرفع الى وجهها بصرا ران عليه التساؤل ، وقال :

« عجبا من العجب !.. ارغبت بهـــذا الفراش عنى أم رغبت بى عنه ؟ » ..

« به عنك ! » .

فصاح كالملسوع :

« ويحك ! ما تقولين ؟ » .

فلم يمنعها غضبه من مجابهته بالجواب :

« انه لفراش رسول الله وانت امرؤ مشرك نجس ، فلم احب ان تجلس عليه » ..

فمصمص بشفتيه وقد اعياه ان يرى الصواب فيما تقول ، وقال مغالبا غضبه وهو يهز رأسه هزة اسف :

« يا بنية .. والذى يحلف به ابو سفيان لقد اصابك بعدى شر »

قالت ولم يذهب عنها هدوءها :

« بل هدانى الله الى الاسلام ... »

ولعلها أحسنت به الظن اذ ذاك . او لعلها عطفتها اليه بنوتها وخشيت عليه سوء المصير ان ظل سادرا فى غيه لا يتبين مواقع الرشاد ، فراحت تستحثه وتغريه :

« اى ابت ! ... كيف يخفى عنك فضل الاسلام ، وأنت سيد قريش وكبيرها ... وتعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر ؟ »

فصاح بها محنقا وهو يغادر مكانه :

« وهذا منك ايضا ؟ ... يا عجبا ! ... االترك ما كان يعبد آبائى واتبع دين محمد ؟ »

« يا عجبا الا تتبعه ! »

* * *

تخلى الشيخ عن كبريائه وعاد الى محمد .

ولكنه هذه المرة كان أبعد عن هدفه منه فى الأولى ، اذ طوى عنه محمد كشحا واعرض لا يسمع منه ولا يقول له .

ثم تخلى عن كبريائه امام أبى بكر ، ثم امام عمر بن الخطاب ، يرجو واحدهما بعد الثانى أن يشفع له لدى رسول الله ، فما قبل الأول ، ولا اكتفى الثانى بالرفض دون جفوة الجواب كالمألوف من لسان ابن الخطاب !

ولم ير بدا بعد هذا من الالتجاء الى واتره البغيض ، قاتل حنظلة ابنه ، وثلة أصهاره من بنى عبد الدار ... التجا وفى نفسه غضاضة

ايما غضاضـــة اله، على بن ابى طالب والمضطر يركب الصعاب فى سبيل الآراب !...

دخل عليه داره ، وعنده فاطمة : والحسن طفل يدب بين يديها ، فما استوى به مجلسه حتى قال متوسلا :

« يا على ، انك امس القوم بى رحما ، وقد جئت فى حاجة فلا ارجعن خائبا ... »

« فقل يا ابا حنظلة »

« اشفع لى الى محمد »

« ويحك ! ... »

فاربد وجه الرجل وغاض لونه ، ثم همس :

« ألا تفعل ؟ »

قال على بالمعهود من صراحته :

« لقد عزم رسول الله على امر ما نستطيع ان نكلمه فيه ... »

وساد الصمت . وتلفت أبو سفيان حوله محيرا لا يدرى ان كان اولى به ان يقوم ويدع الامر الذى جاء فيه . ومضت عليه فترة من الوقت لا ينبس ، يتقاسم قلبه الفشل والرجاء . وكان على لا يعرف كيف يخفى المه لحرج الشيخ ولا يستطيع ان يوليه يدا .. وكانت فاطمة ترقب ما يبدو على وجه زوجها من رقة ومن اشفاق وان حرصت على أن تكون بمنأى عما كانا فيـــه حتى راحت تداعب طفلها الصغير .

وابتسم شيخ امية بعد قليل فقد راود ذهنه خاطر جديد . ان هذا الحفيد الصغير له عند جده شان بالغ ومكان مرموق . وان له عند امه حظوة كما لغيره عند غيرها من الأمهات ، وله فى قلبها ، وفى خاطرها ، وفى خيالها رفعة ترجو ان يصل الى شأوها مع الأيام . فاذا استطاع رسول قريش ان يثير فيها عواطف الفخر بالغلام فقد وقع اذن على الوسيلة التى يصل بها الى مأربه الذى يرجوه ...

وكذلك التفت الى الزهراء ، يحدثها وعينه على الغلام :

« يا بنت محمد . هل لك ان تجعلى بنيك هذا سيد العرب الى آخر الدهر ؟ »

فرفعت بصرها اليه متسائلة :

«وكيف يا أبا سفيان ؟ »
« مريه فيجير بين الناس ... »
فقالت بغير اكتراث :
« ما بلغ بنى هذا ان يجير بين الناس »
فراح يحفزها بنبرات ملؤها التوسل :
« يا بنت محمد .. انها دماء قريش يحقنها عليها ان اجار فمريه.
فتذكرها له العرب الى آخر — »
قالت تقاطعه وفى صوتها حزم :
« لا يجير أحد على رسول الله ! »
وسدت بهذا عليه السبيل الى قلب محمد من خلال آل محمد .
ولم يجد هو معدى بعد أن نفدت حيله أن يلتفت ثانية الى على ويقول :
« يا أبا الحسن .. انى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ... »
أجابه :
« والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ... »
« فهل أرجع ؟ »
« انك سيد بنى كنانة ، فان شئت فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك »
« أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ . »
« لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غيره » .
وقام الرجل يائسا . على أى حال لقد وجد عليا أرحب صحب محمد صدرا ، وأصدقهم ، وأحدب عليه من سواه وألين قولا ..
ومضى الى المسجد يجير فما التفت اليه انسان . ثم خرج عائدا الى مكة فى حلقه من هذا الفشل مثل طعم الصاب .

١٤

خاب ما توقعت قريش ، وما املت ان يتم لهـا على يد شيخها ابي سفيان . واصبحت الكلمة الدائرة على الألسن « الحرب » .. اما شبابها فقد كان غرورهم ما زال يملأ منهم الصدور وهم يعتقدون أن محمدا ليس يملك ـ بعد مؤتة ـ قوة تدفعه الى ركوب الصحراء لاقتحام مكة . واما اشياخها فقد ركبهم الهم من سوء المغبة التي اخذت تلوح امام بصائرهم . فلم تغفل عيونهم خشـية ان يتحين المسلمون منهم غرة . ولم يكن محمد قد جاهر أصحابه بأنه يقصد التوجه في قتال الى البلدة الحرام وان كان قد امرهم باتخاذ الأهبة والاستعداد ، فظلت قريش لهذا لا تعرف كيف تقف وبقيت نهبـا للقلق والتوجس . تبعث العيون تلو العيون الى اقصى ما تستطيع عساها تأتيها بالأنباء . وكان أبو سفيان دائما احرص قومه على تعرف ما يأتي من صوب محمد وعلى تنسم الريح والاستطلاع .

وجاءت أخيرا اللحظة الحاسمة في تاريخ هذا الشيخ الضال !.. كان قد خرج من البلدة ليلا كدابه يستروح الأنباء حتى اشرف على « مر الظهران » فاذا نيران في الصحراء على مدى البصر موقدة تكاد أن تختفي أمامها أسجاف الظلام . واذا خيام مضروبة والوية منصوبة وجف لمرآها قلب الرجل واصابه انقباض .

واقبل على صاحب معه يستنبئه ما عسى ان يكون وراء هذا الزحام فقال له رجما بالغيب :

« اراها خزاعة تأهبت تأهبا وجاءت تثأر . »

فهز الشيخ راسه غير موافق ، وقال :

« خزاعة ! ... اذل واقل »

اجل ، فانها جموع ما رأت مثلها عيناه . واخذه الخوف على قومه فأسرع يهم أن يرتد اليهم ليبصرهم بالأمر . ولكنه ما كاد أن يخطو حتى سمع من ورائه هاتفا يقول :

« يا أبا حنظلة ؟ »

فاستدار ينظر ؟ ثم هتف :

« أبو الفضل »

قال له العباس وقد اقبل عليه ، وهو يشير الى ناحية الضوء :

« ارأيت يا أبا سفيان ؟ هذا رسول الله فى الناس ... »

فصاح مبغوتا :

« محمد ! »

« هو والله ، واصباح قريش والله ! »

فهمس بصوت مبحوح :

« نعم ، واصباح قريش ! »

ثم اردف متلهفا ، يسأل :

« وما الحيلة يا أبا الفضل ؟ »

قال العباس :

« والله لئن ظفر بك رسول الله ليضربن عنقك ، فقد تلف العقد . فاركب معى فى عجز هذه البغلة حتى أمضى بك اليه . فأستأمنه لك ، وتستأمنه على قومك ... »

تردد الرجل هنيهة ، لا يدرى أيمضى لما اشار به عم النبى أم يعود قافلا الى مكة .. ووقف يوازن بين كلا الوجهتين ليقرر الى ايهما يولى وجهه . ايهما اجدى عليه هى ايهما يتخذ بلا ريب . لأنه تاجر يزن الأمور بميزان الخسارة والرجحان ' وهذه دعوة للحياة جاءته على لسان العباس . دعوة لحياته هو ، ثم حياة أهله ، ثم حياة قومه التى أصبحت جميعها فى كف محمد ، لا عاصم لها منه ان دخل عليهم مكة عنوة وصاروا له صيده المستباح ..

ولم يلبث أن عزم أمره وسار مع العباس بعد ان تبين له رجحان صفقته ان سار ! ...

ودخلا المعسكر يردفه ابو الفضل وراءه على بغلة الرسول فيوسع لها الحراس ويفسحون الطريق كأنها كانت جواز المرور ! . ولم يتبينه فى بادىء الامر أحد حتى أوشكا على بلوغ الغاية . فاذا رجل يقظ العين يعرف هذا الرديف المنكمش تحت ردائه فيصيح صيحة الظفر :

« أبو سفيان عدو الله !... »

واقبل اليهما يعدو . وارتجف جلد شيخ بنى امية ، وهبط قلبه وقد رأى ابن الخطاب يعاود الصياح :

« الحمد لله الذى امكن منك بغير عقد ، ولا عهد ! »

وراح العباس يهيب به :

« مهلا يا عمر »

ولكنه عدا يستبق امامهما السبيل الى رسول الله .

وتمتم ابو سفيان من بين اسنانه ، جزعا وموجدة :

« تعس ابن الخطاب ؟ ... انه لأعدى القوم »

وكان هذا حقا لان عمر لم يدخر وسعا لدى رسول الله في اثارته على الرجل ، وحثه على الفراغ منه بجز رقبته .

قال يستحث النبى :

« يا رسول الله هذا أبو سفيان أمكن الله منه . فدعنى أضرب عنقه »

وهتف العباس :

« يا رسول الله انى قد أجرته »

فلم ينثن عمر عن دعواه ، بل اخذ يكررها ويعيد التكرار كلما راى العباس يحاول أن يترضى للرجل عند رسول الله . وكادت ان تنشب المشادة بين الرجلين الظهير والمهاجم ، بل لقد بلغ الغضب بالعباس أن صاح وقد نفد صبره . واحنقه من عمر هذا الالحاح :

« بعض الذى تقول يا بن الخطاب ! ... انك لتعلمن انه من عبد مناف ولو كان من بنى عدى لما قلت ما تقول ! »

وقال عمر :

« انك لتعلمن يا ابا الفضل لو كان هو الخطاب لأقولن ما اقول »

لقد كان العباس امرءا من هاشم فيه السماحة الهاشمية . عطفته الرحم حتى نسى ما كان من ضغن ابى سفيان ، ونسى اخاه الشهيد حمزة والمثلة به ، ولما ينصرم الكثير من الزمن على يوم مصرعه وما لقيه من هذا الشيخ الحاقد وزوجه الكاسرة ! ... ولكنه سخاء فى العطف ايما سخاء ، وصفاء فى القلب ليس مثله صفاء .

ورأى محمد أن يفض الخلاف بين صاحبيه فارجأ النظر فى امر عدوه الى الصباح .

وعندما اقتيد الرجل ثانية الى موقف المحاكمة والاتهام . كان الغضب قد انفثأ عن الرسول وعاوده حلمه المعهود ، واتسع قلبه الكبير للرحمة اكثر من اتساعه للقصاص ، فقال :

« ويحك يا أبا سفيان ! ... الم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله ؟ »

قال الشيخ الداهية مداورا :

« بأبى انت وامى . .. ما أحلمك واكرمك واوصلك ! .. والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد اغنى عنه شيئا » .

فعاد رسول الله يقول :

« ويحك يا ابا سفيان ! ... الم يأن لك ان تعلم انى رسول الله؟ »

فتردد برهة ثم لم يستطع — رغم التزامه جانب الحذر — الا ان يفضح ما يملأ قلبه من تشكك فاجاب :

« بأبى أنت وأمى ! . اما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئا ... »

فأسرع اليه العباس ، يلكزه ويهتف به ، ليرده الى سبيل الصواب فى الجواب :

« ويحك يا رجل ! ... اسلم واشهد قبل أن تضرب عنقك »

فهل ترى حببت هذه الكلمات اليه الاسلام ؟ ... لقد اسلم ، وشهد — وبعض الشر أهون من بعض ! — ليحتفظ براسه على منكبيه ! .

الا من ذا ينبئنا عما قراه العباس فى وجه شيخ بنى امية اذ ذاك ؟ ..

واى خلجات النفس انطبعت على المحيا الدميم ؟ ... ذلة الهزيمة وما توجبه من آثار الغيظ الكظيم والسخط المكتوم كان ادنى الى طبع الشيخ فى ذلك الموقف . فان الانسان — على اى حال — لا يستطيع أن يتقبل بقبول حسن ما يأتيه على سنان سيف وان كان نعمة الايمان ذاتها . ولقد كان العباس فيما بدا ، رجلا بعيد مرمى النظرات فى أغوار الطبائع البشرية فضلا عن علمه بطبائع بنى أمية حين قال لابن أخيه :

« يا رسول الله ... ان ابا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئا »

كأنما اراد ان يرضخ للرجل رضيخة تفيء عليه الرضا عن هذا التغيير .

ولقى طلب العباس موافقة رسول الله ، فابتسم وقال :

« نعم . من دخل دار ابى سفيان فهو آمن ، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

وربح الشيخ ما أراد وفوق ما أراد ــ ربح راسه ، وربح فخرا ما لغيره مثله من قبل ولا من بعد : وربح لقومه حياتهم ما خلوا بين محمد وبين مكة يدخلها ولا يقاتلونه .. ثم فوق هذا وذاك ربح الاسلام وان كانت العقائد اعصى تبينا على الفاحصين لانها من القلوب فى احراز . على ان الرجل ، مع هذا ، سار فى التاريخ مسلما منذ اللحظة التى قهره فيها محمد على الاسلام ، ثم الأيام من بعد هى الكفيلة وحدها بطوايا النفوس ، ان شاءت اخفتها او شاءت كشفتها !..

١٥

فى طريق العودة ، وقف شيخ قريش الى جوار العباس بن عبد المطلب عند خطم الجبل بمضيق الوادى ، يشهد كتائب الرسول تمر على الويتها تباعا الى غايتها .

وبهرت الرجل الكثرة فى هذه الحشود والقت فى روعه المصير الموعود . ما لقومه بكل هؤلاء طاقة ، وما للعرب بعدهم معدى عن الدخول فى دين هذا الرجل الذى خرج بليل ، منذ اعوام من داره مستخفيا عن الأعين .

فلقد علت اليوم كلمته ، وسطع نجمه وتألفت حوله قلوب الرجال قبل تألف السيوف والنصال .

والتفت ابو سفيان الى جاره وقال :

« يا أبا الفضل . لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيما ! » .

فأى ايمان هذا الذى كان يقيس جهاد الدعوة الاسلامية بمقاييس الكفاح من أجل السلطان ؟

واسرع العباس يرده عن ظنه ويردعه :

« يا أبا سفيان انها النبوة » .

فهز راسه هزة الموافقة والتسليم وهو يقول :

« فنعم اذن .. » .

ثم انطلق الى بلدة البيت يسبق الجيش . وكان الناس بمكة قد ضاقوا ذرعا بالانتظار وذهبت به ظنونهم كل مذهب ، فلما راوه اقبلوا عليه يستبقون ويسألون .. الا فليثوبوا الى الطمأنينة ما دام قد وسعه ان يحقن عليهم دماءهم ويحفظها أن تسيل على الرمال ما خلوا بين محمد وبين البلدة ..

وتصايح عليه الشباب :

« بل نذوده عنا ما ملكنا السيوف ! » .

وزأرت هند زوجه :

« قبحت من طليعة قوم ! » .

وكثر حوله الضجيج فقام فى الناس يناشدهم التزام التعقل وسلامة التفكير :

« يا معشر قريش .. مهلا . هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. » .

ولكن الطيش اعمى بصيرتهم وسد منهم منافذ الآذان . وهذه امراته تقود امامه حركة التمرد عليه وعصيان نصحه ، وتنطلق تؤلب القوم عليه بدافع موجدتها على محمد ، ثم لا يرضيها الا ان تهجمه فتمسك بشاربه تجذبه وهى تصيح :

« ايها الناس !.. دونكم الحميت الدسم الاحمس فاقتلوه !.. » .

فيلتف الجمع به وقد ثارت ثائرتهم على هذا الشيخ الذى ارسلوه هينا على جيوش الأعداء فجاءهم يفت فى اعضادهم ويدعوهم الى الرضوخ لهؤلاء الأعداء .

وجاهد حتى خلص من حلقتهم المضروبة حوله ، ورفع صوته بالنداء عسى ان يسمعوا له وينتصحوا :

« ويلكم !.. » .

فقاطعته امراته .

« ويلك خسئت ! » .

فلم يلتفت اليها ، بل استانف ما يريد أن يلقيه من حديث :

« لا تغرنكم هذه من انفسكم .. الا وانى نذير » .

فهتف به واحد منهم :

« فاشر بما ترى .. » .

« من دخل دار ابى سفيان فهو آمن .. » .

فيضحكوا منه :

« وما تغنى عنا دارك ؟ » .

« هذا عهد محمد .. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

ثم مضى عنهم .

ولعل أول من أفاد من عهد محمد هذا ، كان يزيد بن أبى سفيان . دفعت الفتى جهالة الشباب ، كما دفعت غيره من شباب قريش ، الى رفع السلاح فى وجوه المسلمين حين دخلوا مكة فما لبث ان هزم كغيره وولى مدبرا ، فلما وقع أسيرا فى يد خالد بن الوليد أو كاد ، سارع ابوه اليه فخلصه وأدخله داره ليكون بمأمن .

***

واتم الله نصره على نبيه . وأباح له مكة جميعا ورقاب اهلها . وكان محمد — كدأبه ابدا — الكريم السمح فلم يحرمهم عفوه ومنحهم الحياة ، وفك رقابهم وكلهم اسراه ساعة أن جاءوه منكسى الرءوس من خزى الخذلان فقال :

« اذهبوا ، فأنتم الطلقاء ... »

ولم يضن عليهم بعد هذا بغاية ما يستطيع فراح يشترى منهم عقائدهم الخاطئة بالهبات وبالأعطيات ، ويسبغ عليهم كرمه وآلاءه لا يضن على طامع فى عرض من عروض الدنيا ، كما لم يضن من قبل على شيخهم ابى سفيان بما تألف به قلبه من فخر ، وكما لم يضن عليه من بعد بالابل وانشاء غب الفتح ، يهبه اياها ويهب ولديه معاوية ويزيد ومن سار سيرتهم من رجال قريش ، عسى أن يخضع النشب من نفوسهم ما لم يخضع سلطان الايمان ...

ومع ذلك فان الأيام وحدها هى الكفيلة بطوايا النفوس ، ان شاءت اخفتها ، أو شاءت كشفتها . لم يقم محمد الا قليلا بمكة ثم أراد الله لبعض هذه النفوس ان تظهر ما تضمر . فهذه هوازن جزعت حين أتتها انباء انتصار المسلمين فأخذت تلف حولها القبائل وتضمها لتناجز رسول الله . كان أخشى ما تخشاه ، ان هى استنامت للنصر الذى اصابه الرسول الا تقوم لها من بعد قائمة . وهى ان ظلت فى الماضى بمنجى عن الصراع الناشب بين حماة الاسلام وحماة الاصنام فلقد كان هذا لظنها ان محمدا لن يظهر على قريش ، أما وقد رأتها

تخضع له اليوم وبدأت تلتف به ، فقد رات بقاءها مرهونا بقتاله لتعيش آمنة السرب .

وتجهزت هوازن وأعدت عدة القتال . وعلم محمد فسار اليها قبل أن تسير اليه ، وخرج بآلافه العشرة من المهاجرين والأنصار الذين فتح الله بهم عليه مكة ، وخرج معه من قريش ألفان بايعوه على الاسلام منذ أيام وان كان فيهم كثيرون دفعهم الى هذا الخروج حبهم الانتصار للقريب من الغريب ، وفيهم كثيرون دفعتهم الرغبة في الظهور امام محمد القوى المرهوب بأنهم له ناصرون ؛ وفيهم من علموا كيف أفاء الاسلام على رجاله المغانم والأسلاب فصبوا الى أن يصيبوا منها ما يستطيعون ... ثم لعلهم اجمعين — في معرض الايمان كمسلمين صادقين — لم تخل قلوبهم من دخل ولم يبرحها بعد الزيغ.

وانحدر رسول الله بهم في عماية الصبح ، في واد من أودية تهامة اجوف ، يريد أن يصيب من عدوه غرة قبل ان يأخذ حذره ، فما راع المسلمين الا احناء الوادى تمتلىء عليهم خيلا ورجلا ، وقد شدت هوازن وأحلافها على صفوفهم شدة رجل واحد من كل جانب ، تمعن فيهم الطعن وتشيع المقتلة حتى انشمر الناس ذعرا وتفرقوا عن نبيهم لا يلوون ، وان ثبت هو في مكانه لا يريم وراح يدعوهم بصوته القوى الجهير :

« أين أيها الناس ؟ ... هلموا الى ! ... انا رسول الله .. »

ولكن نداءه تبدد في أنحاء الوادى ولم تلقفه الا آذان ذويه وغيرهم ممن عصم الله ، وكان على في مقدمة الثابتين . ووقف العباس ، والتف أبو بكر وعمر وبعض الصحابة برسول الله يناضلون ما وسعهم النضال ... والأهوال دائما محك ايمان الرجال .

أما أبو سفيان فلم يفارقه طبعه ، بل بدا أشد لصوقا به في هذه الأزمة فانتحى ناحية عن الصراع ... لمثل هذا الموقف لم يأت الشيخ ، ولغير البذل من اجل محمد العدو القديم قد جاء ! وانما قاد خطمه الى المكان ظنه يسر المغنم في ركاب هذا الواتر المحسود الذى أوسع له « الحظ » في « ملكه » وأورثه من الدنيا ما شاء . اما وقد لاح له الآن ان الدائرة توشك أن تدور على الرجل الذى تابعه من قليل وعنقه تحت حد السيف ، فقد آن اذن لقلب شيخ بني أمية ان يظهر ما كان يضمر ! ...

شد على كنانته بيده وفيها أزلام لم يهجرها بعد دخوله فى الاسلام ، ولعبت على شفتيه بسمة منكرة تجأر بالشماتة وهو يقول لبعض من انتحوا ناحية من اقرانه المكيين :

« والذى يحلف به أبو سفيان لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! ... »

وضحك جبلة بن الجنيد مسرورا بنبوءة ابن حرب وقال :

« بلى قد بطل سحر محمد اليوم ! ... »

ولئن كان أبو سفيان لم يفرغ بعد كل ما فى جعبته من حقد مكنون ، وكان جبلة لم ينس مكانه من جاهليته الجهلاء فان الله شاء ان يكشف عارهما على يدى رجل مثلهما من قريش لم يكن قد تابع محمدا كابن حرب على الاسلام ، لم يمنعه شركه من الغضب لمحمد فى محنته وساعة كربه .. كان هذا الرجل صفوان بن أمية الذى لم يكد يسمع قول جبلة حتى صاح به مغضبا :

« اسكت ، فض الله فاك ! »

ثم التفت الى الشيخ الحقود ساخرا وقال :

« ويحك يا أبا حنظلة ! ... لأن يربنى والله رجل من قريش لاحب الى من أن يربنى رجل من هوازن ! »

* * *

وهكذا كبا الحقد بأبى سفيان هذه المرة لان شماتته سبقت الأحداث قبل الأوان ، فلم يتخل الله عن المسلمين فى حنين ، ولم تطل بهم الهزيمة أو تنتهى عند البحر ، ولم يغير من مصير المعركة ان وقفت كثرة قريش منها موقف المشاهد أو المتربص الحاسد ، بل اتم الله النصر الذى وعد نبيه ، وايده بجنود لم يرها الناس كانت له الظهير ، وكان بها الظاهر العزيز .

ونشر الاسلام بعد هذا لواءه فى بلاد العرب كافة . ودخل الناس افواجا فى دين الله حتى أصبح الشرك سبة ، وغدا المشركون قلة . ولم تهل السنة التاسعة من الهجرة حتى كان جهاد الرسول بالسيف فى الجزيرة قد قارب الغاية وأوفى على النهاية ، ثم لم تكد تشرف على نهايتها حتى قضى الله على الشرك بالتشريع فانزل آياته

الكريمة تنقض كل عهد كان للكفر الا عهدا موقوتا فانه يبقى الى اجله ولا يتعداه .

وبهذا التشريع أرسل النبى عليا الى مكة ليؤدى عنه ويقرا محكم التنزيل على الناس . وكان الوقت موسم حج ، وكان ابو بكر اذ ذاك اميرا على الحج من قبل رسول الله فراى بعض الصحابة ان يبعث اليه فيؤدى الرسالة عنه ، ولكن محمدا ابى الا ان « يؤدى عنه رجل من أهله »

ولحق على بأبى بكر ، والناس بمنى يقومون بمناسكهم ، فتنحى له الأمير وقام هو بينهم مقام محمد يرسم ناحية سياسية جديدة فى تاريخ الدولة ، ويرفع صوته بتشريع الله :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ... »

حتى اذا أتم تلاوة ما انزل الله ، التفت الى الملأ يقول :

« ايها الناس ... انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو الى مدته » .

وانتهى بهذا البيان ما كان لأهل الشرك ممن لجأ فى عهود قطعها لهم رسول الله على نفسه . وظل مستمسكا بها لا يحيد طوال اعوام . وخبا نجم الكفر أو كاد ان يصيبه الأفول ، الا فى طرف ناء من اطراف الجزيرة حيث قامت فتنة باليمن حيث ابى الناس ان ينزلوا على حكم الله ويرفضوا الاسلام . فكأنهم بهذا أرادوا لابن ابى طالب ان يبدى للتاريخ صفحة من البطولة جديدة . ومن سواه ، جيش وحده كما قال رسول الله ، أولى ان يسير الى اولئك الأقوام ليخضعهم ويضع أنوفهم فى الرغام ؟

ذهب اليهم ، فى جمع من الرجال لا يزيد على ثلثمائة يسير بهم الى دولة لم تعن مرة واحدة للحجاز وخضع لحكمها الحجاز مرات ، وعاود هناك سيرته ، معتدا ، معتزا ، واثقا بنفسه وبنصر الله ، لا ترهبه الكثرة التى طالعته من عدوه ، ولا الهجمة العنيفة التى فاجأوا بها جيشه الصغير . وثبت لهم كما لم يتح لغيره احسان الثبات . وكر فأوقفهم ، ثم كر فشتتهم ، ولم ينجهم من الهزيمة

والخسران ان اعادوا تنظيم صفوفهم وزودوها بقوى جديدة من رجال وعتاد لأنه ما زال بهم ينقلهم من رعب الى رعب حتى آثروا السلامة بالتسليم .

وكانت هذه الواقعة ختام الغزوات بالجزيرة ؛ وكان وفد اليمن آخر الوفود التى اقبلت من الأنحاء على رسول الله تلقى اليه بالزمام ، وتبايعه على الاسلام ، وفرغ على مما بعث اليه فشد رحاله الى مكة ليلقى رسول الله قد اعتمر وتأهب لحجة الوداع .

البداية

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون » .

١

مدينة الرسول زال عنها كابوس التوجس الذى الم بها ثلاثة ايام سيطر فيها على حواسها فأكربها ، واصبحت صباحها هذا مطمئنة قد عاودها رضاء البال ، باسمة ، فياضة البشر بعد هم ... وهؤلاء ناسها قد استطاعوا اخيرا أن تنفرج منهم القلوب وتتحلل من اصابع اليأس التى كانت تقبضها وتعتصرها عصرا . وانثلجت صدورهم فهدات الخواطر وبسمت الشفاه والنواظر ، ثم راحوا يستقبلون حياتهم كما عهدوها ، ريانة جميلة ، يرف عليها صفاء محمد وتثيرها اشراقة محياه . غاب عنهم الآن ما ساورهم من قلق عليه وجزع قتال . وانطوت المحنة التى جثمت اشباحها كالجبال على قلوبهم خلال أويقات المرض الذى نزل بمحمد فحجبه عنهم . أما اليوم فقد تبدلت الحال وزالت شدتها ، ولن يلبث الرسول الا قليلا ثم يعود فيهم ، كما كان ، حادبا عطوفا يوليهم من رقيق حنانه ، وعذب بيانه ، وخالص ايمانه وقدانبس عافيته وعاودته الصحة... وانهم ليوقنون ان دعواتهم التى انطلقت بها القلوب قبل الألسن ، قد وجدت عند ربهم سميعا . ما كان الله ليرزأهم فى نبيه ويدعهم بعده حيارى وما كان ليغيب عنهم وجهه ، ولكنها تجربة مرة اجتازوها ليختبر الله قلوب قوم مؤمنين .

على ان واحدا منهم ، قبل يومهم هذا ، لم يكن يستطيع ان يلمح قبسا من الأمل فى احناء ما احاط به من قنوط . فالالم ينزل بمحمد ، ويبرح به ويشتد عليه حتى يحتجب مكدودا أعياه الوجع ونالت منه برحاؤه . ثم الحوادث من قبل قد تكلمت بافصح لسان فابانت عن المستقبل اشام بيان ... ان حجة الوداع كانت أول النذر بالمصير المخوف واثارت فى نفوس المسلمين كوامن التوجس . سمعوه جميعا اذ ذاك يقول :

« انى لا ادرى لعلى لا القاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف ابدا ... »

فما عساه عنى بهذا الكلام ؟. وماذا اصابهم وهو يجاوز شفتيه

فتتقبله الأسماع ان لم تكن اصابتهم رجفة هزت كيانهم واشاعت في قلوبهم شائعات الجزع ؟ ...

ثم جاءهم التنزيل بما لم يدع لهم معدى عن لازم التأويل . الم يقل الله سبحانه في ختام آياته :

« اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ... »

فاذا اكتمل الدين الذي به أرسله الله فلأى الغايات بعد تمتد بالرسول الحياة ؟ ...

ثم توالت النذر من بعد تلوح بالمصير المحتوم ، ولم يكن آخرها أن تلا محمد القرآن مرتين على جبريل هذا العام وكان يتلوه مرة واحدة فيما سبق من الاعوام ... توالت النذر وما فيها الا صور تفصح عن القضاء الداهم والرزء القاصم حتى غدت بها النفوس على حوافى اليأس .

ولكن هذا كله وغيره ، ما لبث القوم أن انسوه لان المسارعة الى نسيان المكاره أولى بطبيعة الانسان ... هذه اقباس من الامل أخذت تبدو في آفاق القنوط فتبدد ظلامه وتطوى اعلامه . ان محمدا برىء أو هو الى البرء يسير . بهذا انبأ البشير ، وبه جرت الظنون في الأفهام كمجرى ثابت اليقين . وكفاهم لينسوا قلقهم ان طلع عليهم ، وهم خلف أبى بكر في صلاة الصبح ، معتمدا على على بن أبى طالب . بل لقد كاد أن يفتنهم ظهور محياه عن الصلاة ... واقبل فصلى بينهم ، فلما انتهى وعاد الى داره كان قد خلف في كل قلب رجاء النجاة . وانقضى الوقت بعد هذا على خير ما يكون الأمل . ويأتيهم من لدن نبيهم ، بعد قليل ، من يأمرهم عنه بانفاذ بعث الشاب أسامة بن زيد بجيشه الى الشام فتكاد تنطق ظواهر الحال بصدق الآمال ، الم يكن هذا الجيش يضم ابا بكر الصديق ، ويضم عمر ابن الخطاب ، ويضم غيرهما من صحابة الرسول صفوة الرجال ؟. وهل يدور بين الأخلاد والأذهان ان يبعد النبى عن المدينة كل هؤلاء لو كان يعلم ان سيقع الخطب ويرزأ المؤمنون فيه ؟ ... ثم من عسى أن يكون للناس مقياس الطمأنينة على نبيهم ان لم يكن ابو بكر وقد شاهدوه قد امتلأ طمأنينة حتى غادر المدينة الى السنح لقضاء يومه بين اهله وذويه ؟ ... ومن غير ابن أبى طالب اعلم بالحال وقد لازم الرسول طوال المرض وكابد ما كان يلقاه ؟ ... من غيره وقد رآوه

تطلق محياه اذ خرج من بيت عائشة والشمس جانحة الى الضحاء ذلك الصباح ، حتى توسموا خيرا فأقبلوا عليه يسألون :

« يا أبا الحسن ، كيف خلفت رسول الله ؟ »

فأجابهم بكلمات ، حلوة الجرس صافية النبرات :

« أصبح بحمد الله بارئا ... »

* * *

ومع ما افاءت البشرى على نفوس الناس من طمانينة وبذرت فيها الرجاء والآمال ، فلقد كانت هناك بين موجة التفاؤل التى سرت بين القوم قلوب لم يبرحها الهم . مرهفة الشعور تكاد أن تلمس المصير المرهوب ونزلة القضاء ... فلم تنفرج فاطمة ، ولم يذهب عنها الروع وان رات اباها معافى يخرج ذلك الصباح ويصلى بين صحبه المتلهفين على لقائه المشوقين الى سماع صوته الذى حرموه ثلاثة أيام . ان الزهراء لم تخنها الذاكرة ولم تخدعها ظواهر الحال وهى العالمة بخباياها الواقفة على بواطنها وليس ذلك اليوم عليها ببعيد وقد ترك فى نفسها طابعه ... وليست حليفة الأحزان بالسباقة الى نسيان الأحزان وان بدت لها اليوم بشائر الرجاء . وكم من لحظة راودت فيها قلبها على التفرج فأبى القلب الرقيق الحساس الا العودة بها الى تلك الجلسة الهادئة بجوار أبيها فى دار عائشة وهو يعد فى مكتمل عافيته . ولم تكن اذ ذاك توجس شرا ، بل كانت تحسب الأيام تجرى وئيدة بالسعود . ومع هذا فقد مال عليها رسول الله يسر في أذنها حديثا لم تملك عند سماعه الا أن تدمع عيناها وتبكى . واشفق عليها ابوها فمال ثانية يلقى فى سمعها كلاما افترت له شفتاها عن بسمات فياضة البشر والرضا ، وعجبت عائشة اذ رات ذلك ، فأقبلت عليها تسألها عما أسره لها رسول الله ، وتقول :

« ما رايت كاليوم فرحا أقرب من حزن ! ... »

فلا تشفى فاطمة لها غليل السؤال ، بل تجيب :

« ما كنت لأفشى على رسول الله سره ! »

فاذا تصرمت بعد هذا الأيام سبق الظن بفاطمة ظواهر الحال ،

وتجسم حدسها يقينا ظاهره ما اسره لها رسول الله . وحضرتها الآن وهى الى جواره ، وقد عاد لتوه من صلاته الاخيرة خابى اللون معصوب الراس ، تلك الكلمات التى ابت ان تلقى بها الى عائشة حين احفتها السؤال .

« ان جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة ، وانه عارضنى هذا العام مرتين ، وما اراه الا قد حضر اجلى ... »

وغام بصرها بفيض الدمع كأول مرة فنأت به عن ابيها حتى لا يشهد عليها الما يؤذيه ثم استرجعت بقية سره حتى لقد حسبته يعيد عليها القول :

« ... انك اول أهل بيتى لحوقا بى ، ونعم السلف انا لك ... الا ترضين ان تكونى سيدة نساء هذه الأمة ؟ ... »

فتعاودها ثانية بسماتها الذاهبات تدفع عنها أساها . لانها لن تلبث الا قليلا ثم تلحق بأبيها رسول الله ، وليس عليها بعد هذا خوف من الألم لطول الفراق ...

ولئن كانت فاطمة قد تفردت بمعرفة السر حتى باتت اثناء المرض تكاد أن تلمح أشباح المصير المخوف ، فان عليا كان من الالى توجسوا من مرض النبى وسكن قلوبهم الاشفاق من قرب وقوع الرزء الداهم . ان زوجه — بطبيعة الحال — لم تفش اليه ما كان من حديث الرسول ولكنه كان حقيقا بأن يلمح فى وجهها ما يخشاه . ثم هو يعلم ما علمه غيره من القوم من البينات التى كانت ترجح كفة التشاؤم ، كحجة الوداع ، ومعارضة جبريل مرتين بالقرآن ، ومصارحة التنزيل بختام الرسالة التى بعث الله بها نبيه لهداية الناس . علم هذا كله وجاءته بعده بينة لا تقبل الريب ولا تحتمل التأويل . ففى ساعة من ساعات المرض تسبق الرحيل عن الأرض بقليل . دعاه اليه رسول الله وفى عينيه ما كانتا تشعان من نظرات اعزاز واكبار لهذا الربيب الحبيب ، حتى اذا استوى بالشاب المجلس خلع الرسول خاتمه وحمل سيفه فقدمهما هبة منه لابن أبى طالب . وارتجف كيان على اذ ذاك ، وسارع يشيح بوجهه عن رسول الله حتى لا يرى فى مآقيه لمعات الدموع — وكان ابو بكر معهما ففعل مثل فعله وغض من طرفه . ولم يبق شك لدى الرجلين فى أن رسول الله — اذ علم مصيره كما الهمه الله — قد

آثر بخير ما يملك فى دنياه صفيه المحبوب لان العمر لم تبق فيه بقية لحمل الاختام او لامتشاق الحسام ...

ولقد كانت اللحظة التى طالع فيها على الناس بكلماته المطمئنة هى نفس اللحظة التى لم يمس فيها قلب العباس بن عبد المطلب اثر واحد من آثار الاطمئنان ، الشيخ المجرب لم يذهب ما راح من سنى حياته عبثا ، ولم تفقد بصيرته ما كان لها من نفاذ . لذلك أقبل على ابن اخيه ينتحى به من القوم ناحية ويقول :

« يا على . احلف بالله لقد عرفت الموت فى وجه رسول الله كما كنت اعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب . فانطلق بنا الى رسول الله .. فان كان هذا الأمر فينا عرفناه ، وان كان فى غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس » .

ولكنه طلب كان قمينا بان يلقى من على الرد والاباء قبل ان يلقى السمع والاصغاء . أفيقر له الناس بوصية رسول الله لو أنه أوصى بأن يكون فيه الأمر ؟ .. هذه خاطرة طافت بذهنه اذ ذاك وفيه من وقائع الحال الجواب الحاضر على السؤال . فمن قليل ، ورسول الله يغالب وعكة شديدة قال لمن حضره من الصحاب :

« ايتونى بدواة وصحيفة ، اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده .. »

فكيف استقبل الحاضرون من بينهم هذا الكلام :

قال عمر :

« ان رسول الله قد غلبه الوجع ! »

وقال سواه :

« بل قربوا يكتب رسول الله ... »

ثم اختلف الباقون فى الأمر بين موافقة واباء ، لان الذى كان حريا بأن يقر فى الأذهان أن وصية الموعوك اولى أن تكون فريسة الشكوك .

وهكذا لم يكن لعلى بد من ان يجيب عمه :

« والله لا أفعل ، فوالله لو منعناه لا يؤتينا احد بعده ... »

وكان بهذا الجواب موفيا على الصواب وكان العجيب لو انه حدث النبى اذ ذاك فى ان يوصى له أو به ، لانه بهذا الحديث سيكون النذير لرسول الله بغائلة الموت — وحاشاه ! .. والأعجب ان يخالف طبيعته فى البر بمحمد الجدير منه باستقصاء الترفق به فى لحظاته

الباقية اشد استقصاء ! .. .فى لحظاته الباقية لأن الضحاء لم يكد يشتد من ذلك اليوم الذى فرح فيه الناس ببرء نبيهم حتى عدت العادية التى دهمت الأنام واطاشت الأحلام . قضى الأمر فى محمد ، وسمت روحه الى جنة المأوى .. والى سدرة المنتهى .. والى الرفيق الأعلى . وبقى الناس حيال النبأ مهدودى الكيان من جزع يعقل اللسان فلا ينطق ، وفجيعة تأبى على الجنان ان يصدق . كلهم امام الخطب ذاهب اللب مسلوب القلب ، أذهله النعى عن نفسه وخلفه من شدة ولهه فى غمرات .

يا لمدينة الرسول ، وآل الرسول ، وصحب الرسول !.. يا لهم من يوم خالد فى دنيا الأحزان ، ليس كمثله فى الليالى الحالكات ليل ! .. يا لهم منه . قاتما اسحم . اذا جرى به نحسه وان سطعت شمسه .. موصول به الكرب كأن لم يكن قبله كروب تصيب القلوب ! افذهب محمد عن دنياه وغرب عن نور محياه ؟ او لم يعد الآن موته فكرة دسها على النفوس شدة حرصها عليه ؟ .. ما لهذى القلوب فيها صدوع ، وهذى العيون فيها دموع ، وهذى الدور من الحزن تمور وتمور ؟ .. لقد مضى الرسول حقا . مضى فعز الصبر فيه على ذى جلد صابر ، وشق الاحتمال على عزائم الرجال . مضى .. فهلا انطلقت اذن الألسن نادبة ، والأعين باكية ، والحناجر صائحة ناعية ، ما دامت شقت امامها الأجواء صيحة الزهراء — الى السماء :

« أبتاه أبتاه ! .. يا أبتاه ، أجاب ربا دعاه ! .. يا أبتاه ، جنة الفردوس مأواه ! .. يا أبتاه ، الى جبريل ننعاه ! .. يا أبتاه ، من ربه ما أدناه ! .. يا أبتاه .. »

٢

يوم خالد فى دنيا الأحزان ...

لمثله لم يهيأ قلب لأنه فى الرزء فريد ، ولم يشد عزم لأنه يوهى بكل صليب جليد . رزء نزل ففدح ، وعزم حمل فرزح .

ولغير هذه الغاية التى أوفت عليها المقادير الآن كانت تستبق حوالك الأحلام وتجرى فى الخواطر والأوهام . ولكنه حلم صدق فصعق ، وخطب دهم فحطم .

ان الحزن ليفعل فى القلب كمثل النار ، ان سرى اكل وان لبث قتل . وان العين لفى يد الدمع لقى ، ان شاء فاض فأغرق ، أو شاء غاض فأحرق . وان الحديث لفى الأفواه عيا أفصح عن الجزع من كل بيان ، وعلى الشفاه نطقا لن توصف الفجيعة كمثله بلسان .

يوم خالد فى دنيا الأحزان اذ مضى رسول الله . وما بعد رسول الله للناس اسوة أو عزاء ، وما للحزن على فقده مدى ولا انتهاء .

***

كذلك كانت المدينة . ثم كانت اطرافها .. ثم كانت الجيرة من بادية وبلدان كلما سرى النبأ الفاجع فى انة باك أو همسات محزون .

وكذلك اجتمع الناس حيارى ، يدفعهم اشفاقهم على قلوبهم آونة الى تكذيب الخبر ، ثم ترسلهم الصيحات التى تجاوبت بها دار الرسول الى واد من الألم ، سحيق ما له من قرار .

ولقد تجمعوا فى المسجد وخارجه حشودا بين واجم وصائح ، ومشدوه ونائح . وهذا عمر بن الخطاب بينهم اذهله المصاب حتى خرج من وقاره الى طور من الثورة عجيب . وانه ليهز فى يده سيفه ، وتندفع الكلمات من شفتيه تلتهب بنيران الوعيد وقد اقبل على الناس فى غضبة الاعصار ، يقول .

« ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد مات . وانه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران .. ووالله ليرجعن رسول الله فيقطعن ايدى رجال وارجلهم زعموا انه مات ! »

ولكن محمدا قد مات وان كره عمر ، وان كره قبله وبعده كافة المسلمين بالآلاف وبالملايين ، ذاق الكأس التى لا معدى عنها ، وخلف متبواه فى الأرض الى متبوا فى خير دار بخير جوار . وهذا جثمانه الطاهر رحلت منه الروح ، والتف به ذووه لا يذهلهم الهول عن جهازه ، ولا يقعد بهم عن تهيئته لغايته من دنياه ونصيبه المحدود من ترب الأرض — هو الذى ضاقت بعزم صاحبه رقعة الأرض وآفاق السماء .

ها هنا الجدث ، مسجى على الفراش . وها هنا على ، والعباس والفضل وقثم ابناه . وها هنا الزبير بن العوام وصاحبه طلحة بن عبيد الله قد انضم اليهم جميعا اسامة بن زيد مخلفا جيشه بالجرف اذ سمع بنبأ وفاة الرسول . وان الموقف لفياض بالحزن الذى يفعم القلوب بالآلام ويحيط بالذهول الافهام ... ولكن شيخ بنى عبد المطلب رجل فيه تبصر وله حنكة ، بعيد مرمى النظرات فى أغوار المجهول فلم تغش قسوة الموقف عينيه ، ولم تشل خاطره ، ولم تغيب عن بصيرته ما هو مقبل عليه او وشيك على الاقبال . فقد علمته الاحداث انه يحسن قراءتها ، وانه صادق الحدس بالعقبى . ولقد كان حقا صادق الحدس ، ساعة الضحى من هذا النهار ، حين تنبأ بوفاة الرسول وأراد حمل ابن أبى طالب على السير اليه بكلماته ليوصى بهما او يوصى لهما . وهو الآن شديد الاحساس بأن امرا ما لن يلبث أن يتكشف الزمن عنه ، فان شاء انتهز واسرع ، وان شاء تريث فضيع ! ..

وكذلك بسط الرجل — وهو الى جوار جدث الرسول — كفه الى على ، على ملأ ممن حضر وقال :

« يا بن اخى ، أمدد يدك أبايعك ، فيقول الناس : عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان .. »

فأجابه على ولم يرفع بصره عن الجثمان الكريم :

« لنا برسول الله يا عم شغل »

فصمت العباس .

ودخل بعد هذا أبو بكر وقد عاد من السنح مهدود الكيان من الحزن . لم يلق الرجل الى احد بالا ، وانما اتجه الى صاحبه الكريم المسجى فكشف عن وجهه الغطاء ، وبكى كما شاء له اساه أن يبكى ، وهو يناجيه بنبرات سالت الما :

« بأبى انت وامى يا رسول الله ! .. طبت حيا وطبت ميتا . اما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها يا رسول الله ، ثم لن تصيبك بعدها موتة ابدا .. بأبى انت وامى يا رسول الله ! . »

وانفلت الرجل عائدا فى سكون كما جاء . ولحق بالقوم قدتزاحموا حول الدار ، حائرين بين نبأ المصاب ووعيـد ابن الخطاب . فلما راى الامر ، انطلق فوقف بين الناس ، وهو يصيح به :

مه يا بن الخطاب .

فجفت على شفتيه الكلمات ، وحملق فى وجوم شديد الى الصديق وهو يخاطب القوم ويقول :

« ايها الناس ... من كان منكم يعبد محمدا فان محمدا قد مات .. ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت .. وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ... »

فما تركت كلماته فيهم عينا لم يفض بها دمع ، ولا قلبـا الا اصابه صدع ، بعد أن تبين — من لم يكن قد ايقن — أن رسول الله لم يمض كما مضى موسى بن عمران وله عود اليهم قريب .. بل ذهب الى غير مآب ، ولن يكون بينه وبينهم لقاء الا فى ساحة الله ، وبعـد زوال الأرض وانفطار السماء ...

***

... وراح على يعمل فيما هو بسبيله من جهـاز الرسـول ، والعباس لا يجد الوسيلة التى يتوسل بها الى موافقته على قبـول البيعة حتى لا يخرج تراث محمد من بين ذويه . ولقد كان العباس محقا فيما ذهب اليه ظنه ، لأن الناس — وقد تبينوا الحقيقة — اخذوا يتحدثون فيما عسى سيصير اليه الأمر والى من بعد نبيهم سيؤول . ولم يكونوا اذ ذاك على اختلاف أو كانت مسالك الراى قد تشعبت بهم فنونا ، بل كان الجانب الاكبر منهم فى صفوف بنى هاشم لفرط ما تر فى الأذهان من أن هذا تراثهم الموروث الذى لا ينازعهم فيه من العرب منازع . وبهذا جرت الأخبار فيهم قبله وانطلقت به السن المتحدثين ، وما اظن عمار بن ياسر ولا سلمان ، ولا المقداد ، ولا ابا ذر الغفارى واشباههم ، من الصـق الناس بالنبى الكريم ، وابعـدهم نفوسا عن الانحياز الى الأهواء والأغراض كانوا يميلون الى غير بيت

الرسول وعن حصر سلطانه فيهم ، وما كانوا — وهم الفئة التى لم يعقل ألسنتها عن الحق عقال — ليظلوا عما يدور بأخلادهم صامتين ... بل انى لأحسبهم ما فتئوا يتحدثون بما أيقنوا أنه الصواب وأنه جماع الخير لأمة الاسلام . وان رجلا كأبى ذر ، ورجالا كصحبه هؤلاء لخير رجال حرية كلماتهم المنوهة عن الهوى ان تنفذ الى قلوب العامة من الناس فى وقت لم تكن فيا القلوب قد لاثتها الأغراض .

ولقد اجتمعت طوائف من المسلمين فرقا تتشاور . فاجتمع عمر بمسجد المدينة يشاور أبا عبيدة بن الجراح . واجتمع سعد ابن عبادة بسقيفة بنى ساعدة يشاور الأوس والخزرج . واجتمعت هنا أو هناك زمر تتحدث وهى لا تقطع برأى ، ثم ظل آل محمد ، ومعهم الصديق ، مشغولين بالجثمان وان بقى العباس من دونهم مشغولا بما ملأ خاطره وشاع فى باله من أمر الشاب الذى يجدر أن يرث سلطان الرسول ولا يحرك كفا لالتماس هذا السلطان ...

وطرق عليهم الباب فاذا رجل يدعو أبا بكر :

« ان ابن الخطاب ، يا أبا بكر يدعوك .. »

فيجيبه الشيخ بهدوء :

« انى مشتغل .. »

ثم يعود هو وصحبه الآخرون الملتفون بالجثمان الى ما كانوا فيه . ولكن الباب يطرقه ثانية الطارق نفسه ، يكرر دعوته السابقة ويقول :

« يا أبا بكر .. ان ابن الخطاب — »

فيقطع الصديق حديث الداعى ، ويصيح به :

« أفى هذه الساعة ؟ ... ويح ابن الخطاب !... انىمشتغل بجهاز الرسول . »

« انه قد حدث أمر لابد لك من حضوره ، وقد جئتك أبلغ .. »

فلا يجد حينئذ مناصا من الخروج .

ويبدأ القلق يلعب بفؤاد العباس فلم يبق بعد تريث ولا امهال . ان كل لحظة تمر تغير من سير الأحداث .. ويهم أن يتقدم الى ابن أخيه فاذا الظروف تمده من لدنها بعون على التقدم اليه بما تقدم به من قبل .. تمده بأبى سفيان بن حرب قد أقبل بعد أن نما اليه الخبر عن وفاة الرسول ، ويبدو شيخ بنى أمية محزونا وحق له ،

فمحمد منه خير آله وان قضى بينهما من الخلاف ما كان . وابوسفيان بعد هذا رجل له دراية ، فجاء وفى يقينه مثلما انطوى عليه يقين الآخرين من سواد الانصار والمهاجرين . هو يعلم انهم كانوا فى قراراتهم مؤمنين بأن تراث النبى لن يترك داره ولن يخرج عن احب ذويه واقربهم اليه . علم هذا وعلموه حق اليقين . واولئك الذين لم يكونوا على ثقة منه كانوا يؤمنون بأن آل محمد اولى بتراثه ... حتى الذين انحازوا الى سقيفة بنى ساعدة لم يكن اجتماعهم فى البدء لانتزاع السلطان وانما للتحوط لأنفسهم ولمكانتهم ممن سوف يتولى هذا السلطان ..

وكذلك دخل أبو سفيان دار الرسول ليقر بالأمر لمن حسب الناس اجمعين سوف يقرون له به ، وهو فى هذا لم تغب عنه روح الناجر الذى يزن الزيادة والنقصان ، ولم تخل نفسه من حرص على حق لبنى عبد مناف أسرته خشية أن يلقفه دونهم غريب ... ولئن بدا الشيخ ، فى هذه الآونة ، اصفى نفسا لآل محمد مما كنا عهدناه . فلأنه يعلم عن يقين انهم اليه أدنى وعليه — من غيرهم — أجدى ... ثم لانه يعلم أن الأمر اشبه بسباق هو المتخلف فيه — على اى الحالات — وغيره السابق المجلى ولو كان هذا « الغير » هو اضعف المسلمين حسبا بين صحابة رسول الله !..

وتقدم الرجل ، بجوار العباس ، الى على يدعوه :

« يا أبا الحسن ... هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك ابايعك فانك لها أهل .. »

فيجيبه على فى طمأنينة ووثوق :

« يا ابا حنظلة . هذا امر ليس يخشى عليه .. »

ويسمع العباس جواب ابن اخيه فلا يرضيه . ان الأمور دائما رهينة بالأوقات وليس يملك المرء الا لحظة هى حاضرة ان تلبث بها لم تتلبث ، وتفلتت عجلى الى ماض قد لا يستطيع اخذه ، وحرى بالرشيد أن يملك زمنه ...

يقول له العباس ، وهو يشير الى شيخ بنى امية :

« يا ابن اخى .. هذا شيخ قريش قد أقبل فامدد يدك أبايعك ويبايعك معى . فانا ان بايعناك لم يختلف عليك احد من بنى

عبد مناف . واذا بايعك عبد مناف لم يختلفْ عليك قرشي . واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد فى العرب . »

فيتريث على برهة يفكر ، هذا حقا منطق الرجل النهاز الذى تعنيه الغاية ولا تعنيه الوسيلة ، وكان هو غير ذاك . انه ليعلم انه للبيعة أهل ولكنه يرى لزاما عليه أن يتخير الوسيلة الصالحة الى هدفه . وقد عرف للبيعة حقا يجب توفره لتكون بيعة صحيحة ترضيه وتوافق ما جبلت عليه طبيعته المثالية .. كان معنيا دائما بالتماس الكمال واحتذائه فلا يميل الى الحلول التى يمليها الارتجال او الدفعة أو تحين الفرصة . وانه لعلى ثقة من نفسه ومن قدره ، تقدم له أبو سفيان أو لم يتقدم . ولكنه كان حريا أن يعرف أن الامام جدير به الا يملك سلطان الناس بغير مشورة منهم وبعيدا عن أعينهم ، بل الأولى به والأبين على صحة بيعته أن يكون هذا على رءوس الأشهاد حتى لا يفصل بين احد وبين الاعتراض لو شاء الاعتراض .. ولم يكن العباس هو كل الناس ، ولم يكن شيخ قريش كذلك — بل هما رجلان مفردان وان علت اقدارهما بين القوم ... ولذلك نراه يغضى عن كف أبى سفيان المبسوطة اليه ويغضى عن كف عمه ، ويهز راسه لهما وهو يقول بالمأثور من صراحته وشدة التزامه نهجه الأمثل :

« لا والله يا عم !.. فانى أحب ان أصحر بها ، واكره ان ابايع من وراء رتاج !... »

وخرج أبو سفيان لا يعقب ، فقد رأى العزم وسمعه فى كلتا الكلمات والنظرات . وبقى العباس صامتا لا ينبس كما بقى الآل والصحب الحاضرون . أما على فقد عاد الى ما كان فيه من جهاز الرسول فاحتمل الجدث الطاهر ثم اقبل عليه يغسله . وكان أسامة ابن زيد ، وشقران مولى رسول الله يصبان الماء وقد أسنده هو الى صدره يدلكه من فوق القميص فلا يكشف عنه ولا تفضى اليه يداه . ولقد استطاع على أن يفرض على نفسه — ثابتا — هذا الواجب المؤلم الذى يهد الكيان ويمزق نياط القلب .. وبحسبه ان كان يهيىء اذ ذاك حبيبه المختار لرحلة فراق ما بعده فى هذه الدنيا تلاق . استطاع هذا وان ابت عينيه ان ترقأ وأبى ان يخفت وجيب قلبه وهو لا ينى يردد من بين الدمع بنبرات ثاكل محزون :

« بأبى أنت وأمى .... لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء . لولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون . ولكان الداء مماطلا ، والكمد محالفا — وقلا لك !.. ولكنه ما لا يملك رده ولا يستطاع دفعه ، بأبى انت وأمى !.. اذكرنا عند ربك ، واجعلنا من بالك .. »

٣

طرق باب حجرة الرسول ثالثة فى ذلك النهار .. ولكنها كانت ، هذه المرة ، طرقات عنيفة تلاحقت فى سرعة ، فيها لهفة وفيها قلق ، وكان الطارق هذه الدفعة ، رجلا آخر غير ذاك .

وقام الى البـاب من فتحه فاذا البراء بن عازب يمـرق داخلا كالسهم ، لا يحيى ولا يسلم ، مبهورة أنفاسه ، عليه وعثاء المسير ، فى وجهه وجمة الذى يخفى بذات نفسه أمرا يعرف كيف يؤذى اسماع القوم لو ألقاه وفى كيانه اضطـراب ، وفى عينيه نظـرات الغضب الثائر وان اختفت تحت حكمة التريث المحاذر .

وانبرى اليه العباس ، متلهفا يهتف به :

« البراء !.. فيم أنت ؟ »

فألقاها كلمات موجزة ، مريرة النبرات :

« فى أمر ، يا بنى هاشم ، فاتكم شهوده وفاتكم به الأمر !. »

وجلس يستروح .

وجم الحاضـرون . وملك الصمت منهم الأفواه ، وراحت نظراتهم تنتقل ، حيرى على وجوههم ، وكلهم رجل شارف به شعوره الشر المجهـول .

وكان العباس أملكهم لنفسه ، فلم يلبث حتى انتبه يستنبىء البراء جلية خبره :

« فقل ، ولا تخف »

فبسط الرجل كفيه يائسا ، وأجاب :

« قعدتم فملكتم ، وغلبكم ابن أبى قحافة عليها . »

« ويحك ! »

« وبايعته الأنصار فى بنى ساعدة .. »

« والمهاجرون ؟ »

« أما هؤلاء فلا . وانما هم فى المسجد الآن ... ولكننى شهدته بعد السقيفة بعينى ، الى يمينه عمر ، والى يساره ابن الجراح ، لا يمر بهم أحد ولا يمرون بأحد الا قدموا يده — شاء أو أبى — فمسحوها على يد ابى بكر .. »

وتوقف الرجل عن الحديث وقد بدات البغتة تظهر فى عينيه والقلق يشيع فى وجوه الحضور .. ان همهمة خافتة سرت فى الأجواء خارج الدار ثم أخذت تعلو ، ثم اخذت تقترب اذ تعلو حتى تبينوها ألفاظا وكلمات . وما لبث المكان الا قليلا حتى ارتج عليهم بأصوات التهليل والتكبير تسرى من مسجد الرسول . هتافا لخليفة الرسول ، فى لحظة كان جثمان الرسول مسجى فيها على فراشه لم يطوه بعد اللحد .

وصاح العباس اذ ذاك فى بنيه . وفى ابن أخيه ، وفى من حضره من آل هاشم وقد فاض بكلماته الغضب والهبها الهابا :

« تربت أيديكم !.. أما انى أمرتكم فعصيتمونى .. تربت أيديكم آخر الدهر !. »

ذاك لم يجر مطلقا لبنى هاشم فى بال ، ولا لغير بنى هاشم من المهاجرين ، ولا لغيرهم أيضا من الأنصار ، وان تمت البيعة لأبى بكر أولا على يد الأنصار .

ولكن الحوادث جرت سراعا تسبق سرعتها جريان الخواطر فى الأذهان ، حتى ابو بكر نفسه لم يطف بذهنه — الى قليل — انه سيكون خليفة الرسول ، لا ولا عمر ، ولا ابن الجراح وهما اللذان ساعداه وانتزعا له البيعة انتزاعا . وانما كان الأمر فى البدء لا يجاوز اجتماع الأنصار بالسقيفة يتشاورون فى مكانتهم بعد وفاة الرسول ، وفى مكانة بلدتهم ... ويحدسون يا ترى سيخرج سلطان الاسلام من المدينة دار هجرة النبى الى مكة بلدته وبلدة ذويه من قريش الذين سيؤول من بعده الأمر اليهم .. ويتساءلون هل عسى المهاجرون سيؤلونهم الخير الذى أوصى به رسول الله . انهم ليذكرون كيف اختصهم محمد ، وكيف شاد بذكرهم ، وكيف قال عنهم انهم بيعته

وانهم لجأه ، وانه السالك دائما شعب الأنصار وان سلك الناس اجمعين شعبا سواه ... فماذا تصير اليه حالهم لو أتاهم بعده من يخرج بسلطانه عن ديارهم فلا يشيرون ولا يشاورون ؟.

قال منهم قائل :

« منا أمير ومن قريش أمير .. » .

وسأل منهم سائل :

« فان ابوا عليكم ؟ » .

فخرج الحديث بهذا عن نطاقه المضروب ، وتفرق شجونا .

عز على الكثيرين منهم الا تكافأ نصرتهم النبي لدى المهاجرين ، بتأمير واحد من رجالهم الى جوار امير من هؤلاء ، وأن يبدوا فى عيون قريش اهون أمرا مما يعرفون من شأن انفسهم هم الذين اقاموا بأسيافهم دعائم الاسلام وبأموالهم اود رجاله الاولين . ولم يكن المهاجرون قد أبوا بعد عليهم شيئا ولم يحضر حديثهم ذاك منهم واحد ، ولكن الأذهان استقبلت الحوادث بالظن والترجيح ثم سارت فى سبيل الظنون تبنى على اساس الخيال .

وانقلب الحديث بعد هذا الى موازنة بين فضل وفضل ، وبين قوة وقوة . لئن تجشم المهاجرون الصعاب وخرجوا من ديارهم في سبيل دعوة الاسلام ، فلقد وجدوا فى المدينة رجالا ذادوا عنهم بغى القريب والغريب ، وشرعوا الأسنة فى سبيل الدين حتى نشر لواءه على الجزيرة من طرفيها . ثم فيم قريش اليوم من سلطان الاسلام وقد كانت — الى قريب — اعدى أعداء الاسلام ؟.. لقد ضربوا عليه بالسيف حتى دانوا اخيرا والقوا الزمام فى يد النبى وأيدى ناصريه . فاذا رأوا اليوم لهم من ورائه مغنما فى سلطان ، اقبلوا يستلبونه ثمرة ناضجة من يدى سقاته بدمائهم وغارسيه ؟!

هذا والله لن يكون !

وكذلك جلس سعد بن عبادة ، شيخ الخزرج ، فى سقيفة بنى ساعدة يدعو الأنصار ان يملكوا بينهم امرهم ويوحدوا كلمتهم فلا يخرج الأمر من أيديهم ، ولا يذهب دونهم بالفضل من تخلف عنهم فى الفضل . ولم يكن استلاب حق المهاجرين الأولين يدور للأنصار فى بال ، ولكن شيخهم علم ان أولئك المهاجرة قلة فى الناس وقلة فى قريش الى جوار كثرة الأنصار السابقين جميعهم الى الاسلام . وكان الرجل

ضاويا مريضا ، يسرى صوته كالهمس فوقف الى جواره يبلغ عنه ، رجل طوال ، مديد القامة ، اصلع ما فى وجهه طاقة شعر ، هو ابنه قيس .

ولقد كادت الأنصار تستجيب للدعوة ، وهمت ان تبايع لشيخ الخزرج وهو من علمت سابقته فى الدين ، وفضله ، وكرمه الذى استطار صيته بين الناس وغمر به المهاجرين قبل الأنصار . وانهم ليذكرون له فى هذا كلمة عرف بها وأثرت عنه يوم ان عاد قيس ابنه من سفر صاحبه فيه أبو بكر وعمر بن الخطاب .. كان قيس خلال الرحلة جوادا مسماحا ، ينفق على صاحبيه ويغمر ، ثم لا ينى ينفق ويغمر حتى دفع جوده أبا بكر الى ان يقول :

« بعض مال أبيك يا قيس !.. امسك يدك .. » .

فلما علم شيخ الخزرج ذلك وقد آبوا من سفرهم ، قال لأبى بكر :

« أفأردت انتبخل ابنى؟.. انا يا أبا بكر قوم لا نستطيع البخل!. »

أجل همت الأنصار أن تبايع للشيخ الكريم لولا أن رجالا من الحاضرين لم ينسوا حق آل الرسول وذويه من قريش ، ورجالا آخرين عادت أحقاد الجاهلية الأولى فى صدورهم المغلولة ؛ ورجالا سوى أولئك وهؤلاء استبد بهم حسدهم للشيخ وتحينوا به الفرص لكى يخذلوه .

انفلت من بين القوم من يمم شطر دار الرسول فوقع على عمر بن الخطاب بالمسجد يتحدث الى أبى عبيدة بن الجراح ، فأفضى اليه بما يدور فى السقيفة .

وهب عمر من مكانه مبغوتا يزأر . وبانت الغضبة فى وجهه اذ كانت الأنصار تذهب دون قريش بالسلطان على العرب . وتلفت حوله برهة حائرا ، ثم ما لبث أن مد الى رفيقه كفه وقال :

« ابسط كفك يا ابا عبيدة ابايعك ، فانت امين هذه الأمة على لسان رسول الله » .

فلم يبسطها الرجل . بل نظر اليه عاتبا واجاب :

« ما رايت لك فهة قبلها منذ أسلمت يا بن الخطاب !.. اتبايعنى وفيكم الصديق ثانى اثنين اذ هما فى الغار » .

وهكذا تبدل الموقف . واسرع رسول من لدن عمر الى دار النبى يدعو ابا بكر حتى يلحق بصاحبيه ثم يروا رايهم فى أمر الأنصار .

***

منـــذ تلك اللحظة قر فى ذهن عمر ان ابا بكر هو أولى النـــاس بخلافة الرسول . وليس فى هذا ما يؤخذ على ابن الخطاب او يطعن فى قدرة الخليفة الأول وجدارته لتولى شئون الناس ، ولكن الواضح الجلى أن راى عمر جاء عفو وقته ولم يأت من تدبر وتفكير .

اجل كان عفو وقته . ولو كان طاف بذهنه يوما من قبل لما مد الى أبى عبيدة كفه ، ولما تمهل بالزمن حتى يسمع بنبأ السقيفة ، بل لكان سارع ــ مذ علم بوفاة رسول الله ــ الى أبى بكر يبايعه وقد كانت أمامه من الوقت فسحة لهذا وفسحات :

انما الذى يؤخذ على الرجل ، حقا ، انه دعا أبا بكر من دار الرسول ولم يدع معه واحدا من آل الرسول ، فانفرد وحده بالحكم على صحة الراى الذى اشار به زميله ، ووضع ابا بكر فى كفة الترجيـــح دون مشورة رجل واحد غير ابى عبيدة بن الجراح كأنه وكل بقلوب المسلمين يكشفها وبألسنتهم يجرى عليها الكلام ، رغم تخلفه عن كثيرين منهم وسبقهم عليه فى الاسلام ، ورغم ما كانت تدعو اليه الحال من ضرورة مشورة واحد ــ فى القليل ــ من آل محمد الأدنين . .

ولكن عمر ــ فيما يبدو فعل كما الهم الموقف قلبه . واختار الصاحب الذى اختاره صاحبه اذ لم تكن لديه مهلة للتفكير فى سواه او فى التحوط لتوفير الصحة لهذا الاختيار . ولعله نسى عليا اذ ذاك كما نسى ابا بكر فى البدء . . . ولعله ذكره ثم أراد ان ينساه لأنه حاول فى لمحة خاطفة ان يفاضل بين كهل وشاب فلم ير وجها الى التفضيل ، لأنا نعرف الغلام ، ونحن رجال ثم تسير بنا وبه الأعوام فيظل فى أعيننا نفس ذلك الغلام ! . . .

٤

ما عسى كانت تصير اليه الحال لو ان ابا عبيدة اخذ الكف التى بسطها عمر وقبل البيعة لنفسه ؟.. وما عسى كان ابن الخطاب يقول للناس اذا وقف بعد هذا بينهم يقدم لهم ابن الجراح كخليفة رسول الله على المسلمين ؟. افكانت تقدمته هذه لا تعدو تلك التى قدم بها ابا بكر فكان يقول : « أيها الناس ، ان الله قد جمع امركم على خيركم ... » أم كان سيتنبه اذ ذاك الى الخطأ الذى أوقعته فيه دفعته وجعلته يختار فلا يصيب التوفيق فى الاختيار ؟

لقد كانت فى الرجل حقا دفعة . لا مراء عرفت فيه ابان كلا اسلامه وشركه : وكانت منه بعض خلقه كعنفه المأثور ... استبدت به جاهليته ذات ليلة قبل تفتح قلبه للدين ، فاقسم نيمشين الى محمد فيقتله ويكفى قريشا امره . واذا به يتوشح سيفه ويسعى الى الدار التى يجتمع فيها النبى بصحبه الأولين . وكان فى حسبان الرجل أن يضرب عليهم الباب ثم يقتحم المكان حتى يفضى بذؤابة حسامه الى قلب الرسول .. فأين الخطل فى التدبير ان لم يكن مجسما فيما كاد أن يرتكبه ابن الخطاب ؟.. وكيف نسى ان دون وصول سيفه المسلول الى قلب عدوه اذ ذاك قلوبا تتلقى عن نبيها الطعنـــات وتنعم اذ ترى دماؤها فى هــذه السبيل من جــراحها تسيل ؟.. وهلا علم ، وان غرته العزة بالاثم وهونت لديه الجرم ، ان شجاعة البطش فيه لا تقوم امام شجاعة الايمان فى رفاق محمد وناصريه ؟. لئن غاب هذا كله عن وعيه فى ذلك الحين ، فقد كاد ان توقعه دفعته فى عرين يحميه خير قرين ، هو أسد الله واسد رسوله : حمزة بن عبد المطلب ! وما أحسب عمر لو اقتحم الدار الا كان ملاقيا فى الليث من يرد عليه الطعنة بذات سيفه قبل ان يفضى بها الى الرسول أن لم تنسه هيبة حمزة كيف يرفع الحسام !.. وبحسبك أن تعرف أن ابن الخطاب تبدلت به سريرته فى الطريق فيمم تلك الدار لاعتناق الاسلام لا لضرب الهام ، حتى اذا ضرب الباب ورجفت

***

لمظهره قلوب بعض المجتمعين ، صاح حمزة يتوسل الى رسول الله :

« ايذن له يا رسول الله ... فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه ! ... »

تلك كانت دفعة من عمر عرفت فيه كبعض خلقه ، راضها الاسلام الى حد كبير ، وفل من عزمها ولكنه لم يات عليها ، بل كانت تبدو احيانا للعيان فيجعلها الناس كغلظة او كخشونة فى الطباع ... حتى فى حضرة الرسول كانت تملكه ولا يستطيع ان يتحرر منها الا اذا رده عنها راد . وكذلك كان يوم الحديبية شانه حين لم يستطع أن يتقبل بالرضا شروط الصلح التى املى اكثرها سهيل بن عمرو ووافق عليها رسول الله . فلقد هاج اذ ذاك ، وانفلت من يده زمام أمره ، حتى انبرى غاضبا الى نبيه يقول :

« أو لسنا بالمسلمين ؟.. أو لست برسول الله ؟.. أو لست كنت تحدثنا انا — » .

وظل على هذه الوتيرة الخشنة من جفاء الحديث حتى صاح ابو بكر :

« الزم حدك يا عمر !... فانى اشهد أنه لرسول الله ... »

وليس من ريب فى ان دافعه فى كلا الحادثين كان الغيرة على دينه وان اختلف بين الزمنين هذا الدين ، ولكنها مع ذلك كانت دفعات تتركه يتحدث فلا يتريث . ويدبر ولا يتدبر ، شأنه فيها كشأنه حين علم أن محمدا قد مات فقام يتوعد بسيفه من قال ان محمدا قد مات .. ولو كان تفكر قليلا لما عجب لوفاة الرسول ، ولما ثار ، ولأنباته به من القرآن آيات وآيات !.. وكشأنه حين علم ان البيعة توشك ان تتم فى سقيفة بنى ساعدة لواحد من الانصار دون رجل من قريش ، فاندفع يتلفت حوله ، حتى اذا وقعت عينه على اول قرشي — وان كان اى قرشى كما لاح ! — بسط كفه وهم أن يبايع !.. واحسب لو القت المصادفة — تلك اللحظة — فى سبيله بابن ابى طالب لما قبض عنه يده ، ولاقبل عليه يدلى بالبيعة فى غير ونى ولا امهال !..

غير ان المصادفة لعبت دورها فاجرت اسم ابى بكر على لسان

ابن الجراح ... أو لعله التدبر ... أو لعله صدق الشعور بمكانة ابن أبى قحافة فى نفس أبى عبيدة وقد رآه يقوم خلال مرض رسول الله بامامة المسلمين فى الصلاة . وسواء أكانت تلك ام هذه ام ذاك من خواطر وافكار هى التى دفعت ابن الجراح فقال قولته ، فان عمر لم يتحر مشورة رجل واحد من المسلمين قبل ان يبعث رسوله الى دار النبى يدعو صاحبه اليه .. لم يتحر مشورة مسلم واحد فى ترشيح الرجل الذى ستصير اليه قيادة دولة . ولم يتحر تمحيص الراى الذى لقنه ابن الجراح اياه عمن حسبه أولى قريش بخلافة رسول الله ، بل اندفع يعتنقه كملقيه ... وما أظن عمر قد اقتنع بجدارة ابى بكر بالمركز المنتظر اذ كان رفيق النبى فى الغار . واحق بالتقديم وأولى بالاختيار فتى خلف رسول الله على فراش أحاطت به السيوف والرماح — الراقد فيه أدنى الى القبر من مدلج فى الصحراء ، وانأى عنه التماس النجاة والفرار الى الحياة !.. وما اظنه قدمه اذ عرفه يؤم المسلمين فى الصلاة بضع مرات ، والامامة فى ذاتها تصلح بالسن ، وتصلح بالعلم ، وتصلح بالسبق الى الاسلام ثم بغيرها من ميزات ، لم يتخلف على عن واحدة منها الا الاولى وليس فى تخلفه هذا ما يعاب به ولا فى تقدم غيره ما يثاب عليه !. ولكنى أحسب عمر — فوق هذا — قد نسى فى آونة الاضطراب الذى انتابه ، موقفا شهده منذ قليل وكان حريا معه أن يميل بعلى الى جانب التفضيل . فلقد عرف كيف اجتبى رسول الله ابن عمه وقدمه على غيره من كبار المسلمين : انصارهم والمهاجرين يوم ارسله الى مكة ليكون لسانه الناطق بمحكم التنزيل فى موسم حج كان ابو بكر اميره ، وذلك ليقرأ براءة ولينقض ما سلف من عهود كانت تربط بين الدولة الاسلامية الناشئة وبين جيرانها المشركين . لقد عرف عمر هذا كما عرفه سواء ، وعلم اباء النبى ان يؤدى عنه ابو بكر ما اختار عليا لأدائه عنه ، وكان قمينا بعد هذا بكل متدبر ان يعلم علم اليقين ان مهمة على لم تكن دينية بقدر ما كانت سياسية ، كأنما الرسول قد اختار ابن أبى طالب للقيام بما هو بعيد الأثر فى كيان دولة الاسلام .

ولكن التاريخ جرى — رغم هذا — فى سبيله المرسوم أخطأ عمر او اصاب التوفيق !... وخرج ابو بكر مهرولا من دار الرسول يتجه الى المسجد وهو لا يعلم فيم دعوة ابن الخطاب . ولحق بصاحبيه هناك فحدثاه بما كان من أمر الأنصار فى السقيفة . ولست أظن الشيخ علم — قبل أن يبرحوا ثلاثتهم المكان — ان صاحبيه ارادا تنصيبه خليفة على المسلمين . ولا أظنهما أيضا حدثاه بما ينم عما اعتزماه ، وانما سار معهما يحث الخطا الى بنى ساعدة وفى باله ان يسعى جهده للاحتفاظ بسلطان محمد لقومه قبل ان يلقفه منهم الأنصار ...

اجل فلم يكن الرجل يطمع مطلقا فى سلطان . ولم يك يجنح قبل يومه الى حكم الناس ، بل قد كان من الألى ينفرون من التأمر ولايجرى امتلاك امور الأقوام له فى خاطر . وان ماضيه لعلى هذا لشاهد ، فقد مر به — ذات يوم على عهد الرسول — اعرابى عرف له صلته الوثقى بنبى الله فجاءه يستفىء منه بحكمة لعله نهلها من نبع محمد ...

قال له .

« يا ابا بكر ... أوصنى » .

فأجابه ، كأنما قد اعد له من زمان طويل جواب السؤال :

« اوصيك الا تتأمر على اثنين »

فكانت وصاة نضحت عن طبع جبلت عليه نفسه وان أراد له التاريخ الا يأخذ بها نفسه حين تداركت امامه الأحداث !...

***

ولقيهم — وهم موشكون على بلوغ السقيفة — عويم بن ساعدة ومعن بن عدى : أنصاريان خرجا على اجماع أصحابهما ذلك النهار .. فاستبقا نحوهم يسألان :

« أين تريدون ؟ »

قال ابو عبيدة :

« الى اخواننا هؤلاء ننظر ما هم فيه » .

فنصحهم عويم :

« لا عليكم الا تقربوهم » .

فصاح عمر بمألوف حدته :

« والله لنأتينهم ! »

فأجاب عويم :

« أما ان شئت فدونك .. ولكنى يا معشر المهاجرين قمت فيهم أقـدم على صاحبكم هـذا اذ قدمه رسول الله للصـلاة فعابونى واخرجونى » .

ولا شك أن تقديم أبى بكر كان رايا سرى بين بعض الناس .

وقال له عمر بلهجة المتربص بمجرى الامور :

« سننظر وينظرون ... »

« بل اقضوا أمركم بينكم يا معشر المهاجرين »

ولكنه أبى ، ومضى يتبعه صاحباه وطريدا الأنصار ، حتى اذا أشرفوا على المكان وسرى اليهم جرس الحديث من بعيد . سال عمر أحد الرجلين :

« فأين صاحب القوم ؟ »

« على فراشه يهمس وابنه يذيع .. »

« ويحه !... لا يملك الناس مريض ! »

٥

استطاع أبو بكر بمعهود حكمته أن ينفذ الى اجتماع الانصـار ، وأن ينفذ الى قلوبهم ، وأن يأخذ ما بأيديهم منهم طواعية او بمظاهرة ظروف الحال .. كان رجلا له فى الناس هيبة وفى النفوس محبة .

بانت البغتة على الوجوه حين بدا يتبعه صاحباه ، ومشى الوجوم فى المكان . لأمر ما عاد عويم بن ساعدة ومعن بن عدى فى ركاب الشيخ وهما الخارجان منذ قليل على الاجماع ، ولكن الالسن لم تكد تصوغ حروف الألفاظ حتى بادرهم أبو بكر بالكلام ، لا عليه ان يتريث حتى يستجمعوا شتات الأذهان ولا عليه ان ينصت ليقولوا فانما قد جاء هاهنا ليكونوا هم له منصتين ...

وكان حكيما غاية الحكمة فلم يدع للفرصة أن تسدد خطاه وان سدد هو هذه الخطا لتصل به الى فرصة وفرصات . وحزم الامر

على ان يكون بيده تدبير الأمر . ولو استطاع لكان أبعد ابن الخطاب عن الحضور الى هذا المكان حتى يأمن دفعاته التى قد تودى واحدة منها بكل تدبير ... ولكنه عرف كيف يملك هذا الزمام حيث يحسن جذبه ثم يرخيه لصاحبه بعدها اذ يشاء .

لذلك ما كاد يدلف الى السقيفة حتى مال على رفيقه يهمس :

« رويدا يا عمر حتى أتكلم ، ثم انطلق بعدها بما احببت » .

فأمسك وقد هم أن يثور بالناس . ووقف أبو بكر يتخير من كلماته مفتاحا الى القلوب . وكان الحديث عن رسول الله هو ذلك المفتاح ، فأثنى عليه وحمده كأحسن ما يستطيع ان يلهج بالحمد لسان وتستطيب الثناء آذان . ثم انثنى يتكلم عن المهاجرين الأولين والعصبة السابقين . قال :

« أيها الناس . لقد خص الله المهاجرين الاولين من قوم رسول الله بتصديقه ، والايمان به ، والصبر معه على شدة أذى قومهم وتكذيبهم ، وكل الناس لهم مخالف وعليهم زار . ولكنهم لم يستوحشوا لقلة . وكانوا أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالرسول . هم أولياؤه وعشيرته ، وهم أحق الناس بالأمر بعده ... »

ولم يفصح الرجل عن اى الناس بين اولئك المهاجرة اولى بتراث النبى لأنه كان قد جاء لاقرار مبدأ لا لتنصيب شخص معلوم . ولقد أفضى بما راود خاطره عن صاحب الحق فى هذا التراث . ولئن كان ابو بكر لم يذكره باسمه وسماته فقد عينه بتحديد صفاته فأبرزه امام الملأ امرأ من المهاجرين الأولين ، سبق الى الدين ، وكان للرسول وليا من عشيرته وقف الى جواره لا يثنيه أذى ولا يستوحش لضعف ولا قلة . بل راح يعبد الله قبل أن يعرف هذه العبادة فى الأرض سواه ... رسمه أبو بكر هكذا وان جاء الرسم منظرا عاما ظهر فيه غيره ، ولكنه كان على أى حال رسما لا يعوز العين الفاحصة أن تتبين تجمع ألوانه فى ناحية واحدة من نواحيه !...

على أن أولئك الذين لم يتبينوا الوضوح فى كلام ابى بكر من الانصار أو تبينوه ثم بدوا كأن لم يتبينوه لان نفوسهم ابت عليهم —

وهم الأعزون — ان يكونوا لغيرهم تبعا .. اولئك لم يلبثوا حتى نطق ناطقهم فقال :

« انمــا نحن أنصار الله وكتيبــة الاســـلام ، وانتم يا معشر المهاجرين — »

فسارع ابو بكر يقاطعه بلين الحديث :

« أنتم من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم فى الاسلام . رضيكم الله انصارا لدينه ، ورسوله . وجعل اليكم هجرته . وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور . »

وهكذا عرف الرجل أن يداوى الداء الذى خشيت الانصار ان يصيبها بعد رسول الله ، فقد أقر لهم بحقهم فى المشورة واقــرار ما يرونه من شئون الدولة جديرا بالاقرار . ولكن هذا لم يسكت لسان متحدثهم الذى بادر يعترض :

« بل انكم رهط منا !. وقد دفت دافة من قومكم واذا هم يريدون أن يختزلونا من اصلنا ويغصبونا الأمر . »

فعلا الهمس اذ ذاك بين الحضور ، وتجاوب المكان بهمهمة الاستحسان، صدق هكذا قائلهم واجاد لان حديثه كان لما فى نفوسهم صدى ... وانما هؤلاء المهاجرين رهط قليلون جاءوهم من قبل مستضعفين ثم استعزوا بهم بين اظهرهم فلا تكونن لهم قدم على أصحاب الفضل ، ولا يسبقن الأنصار اليها . وان فى أذنى كل رجل من السقيفة اذ ذاك لصوتا داويا مثل قرع الطبول ، يردد ما كان يهمس لهم به سعد بن عبادة ويذيعه ابنه قيس منذ قليل اذ كان يقول :

« ان محمدا لبث بضع عشرة سنة فى قومه يكذبونه الا رجالا قليلين . وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا ان يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عمهم ... »

اجل هكذا كانوا ... وهكذا كان بينهم النبى حتى اراد الله ان يرتفع لواء الدين فساق الى محمد الانصار مؤمنين ومانعين وناصرين . ولعل سعدا لم يتجاوز الحقيقة حين قال فى معرض اثارة الحمية فى نفوس قومه والتدليل على فضلهم المشهود :

« يا معشر الانصار . لما اراد لكم ربكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الايمان به وبرسوله ، والمنع له ولاصحابه ،

والاعزاز له ولدينه . والجهاد لأعدائه ... يا معشر الأنصار قد كنتم اشد الناس على عدوه منكم ، واثقلهم على عـدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا ، واثخن الله لرسوله بكم في الأرض ودانت بأسيافكم له العرب ... يا معشر الأنصار ـ فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس فانه لكم دون الناس ! »

... ترددت هذه الكلمات ومثيلاتها مما نطق به ابن عبادة ، فى اذهان الناس وأبو بكر قائم فيهم ، يكاد أن يغرق صوته فيما يملأ المكان من اصوات ، ولكنه رجل جاء ينصر مبدا ويدعو اليه ولا يقف به عن أدائه مقاطعة ولا اعتراض . فاذا كان الأنصار قد عرفوا لقضيتهم هذه حقا فقد عرف لقضيته أيضا حقا اثبت أمام حجة الخصيم والغريم .. قال مرفوع الصوت مهيب السمت ، فى رنة فيها لين وفيها جرس رصين :

« ايها الناس !... ما ذكرتم فيـكم من خير فأنتم له أهـل ، ولكننا ـ نحن المهاجرين ـ أول الناس اسلاما ، واكرمهم احسابا ، واوسطهم دارا ، واحسنهم وجوها ، واكثرهم ولادة فى العرب : وامسهم رحما برسول الله ... ولن تعرف العرب هذا الأمر الا لهذا الحى من قريش ! »

حجة تجبه الأنصار فلا تدانيها حجة لهم ، الفاظ فى مجـال المفاضلة والفخار ليست تطاولها ألفاظ . ولكنها على محك البحث والتمحيص لا تستقيم لكافة المهاجرين !.. لا ولا للقلة منهم !.. لا بل عساها ـ ان نشرتها لهم كالثوب ـ لا تزال تبدو فضفاضة مهدلة الذيول والاكمام عليهم اجمعين ثم لا تنسجم بعد الا على فرد فيهم لأنها اقتطعت على قدر صفاته وميزاته !.. انا لنؤمن حقا ان قريشا بين قبائل العرب كانت الأعلين . وأن ذاك الحى حقا كان أعلى قريش . ولكننا نؤمن ايضا ان آل هاشم كانوا فى حيهم هذا وفى العرب كافة الأوسط دارا ، والأذكى نارا ، والأعز جارا ، وبحسبهم أنه كان منهم رسول الله . ثم دع السامع والمتحدث كليهما يتخيران من بين هؤلاء رجلا ـ سوى على بن ابى طالب ـ كان أول الناس اسلاما ، وأدناهم قرابة من الرسول ، وجمع الظلال والأضواء التى أضفاها أبو بكر على صورة من يرى له حق ولاية الناس .. دع السامع والمتحدث كليهما

يتخيران رجلا له كل هذه الصفات لو استطاعا الى الاختيار السبيل!..
على اننا لا نستطيع أن نجزم ان كان أبو بكر قد زوى هذا الكلام وفى نيته أن يروج به لعلى ويدعو اليه ، ولكننا نجزم ان الشيخ — على أى حال — لم يعن به اذ ذاك نفسه ، لانه رسم ميزات اجتمع له منها الجل ولم يجتمع الكل ، ولانه كان قبيل هذا المقام لا تجرى له ولاية القوم فى بال ولم يسع سعيه الا ليقيمها فى الحى الذى آمن انه اجدر بها من كافة أحياء المسلمين .

ومع ذلك فلم يستطب منه بعض الأنصار ما قال لأنه اجمل المقال ولم يحدد هدفه تمام التحديد . وعساه لو كان القى على اسماعهم اسم ذلك الشاب الذى خلفه قائما على جثمان نبيه وابن عمه يتمهده بالاعداد والتجهيز لكان للأنصار شأن غير شأنهم هذا ، ولكانوا القوا له كلا السمع والمقادة لا يعترضون ولا يحاجون . ولكن أبا بكر انتهج ذلك اليوم النهج الذى يستقيم وطبعه اللين الرقيق ، وآثر ان يكسب الأرض تحت قدميه شبرا شبرا ولا يقطع الشوط كله بقفزة .

كذلك فعل ابو بكر ليخضد شجرة الأنصار شوكة فشوكة ، فبدا يحد من غلوائهم بذكر الرسول ، ثم بلين الحديث ، ثم بالثناء على ما تولوا به الاسلام من فضل ، وكلما استراحت لحديثه الآذان انتقل وئيدا الى الناحية التى تقربه من الهدف المرموق . ولكنه ما كاد يبلغ مبلغه من الكلام واثره فى كثير من النفوس والاحلام حتى انفلت اليه الحباب بن المنذر ، وقد خشى مغبة هذه الرقة على قضية الأنصار ...

قام الرجل يصيح فى قومه محذرا :

« يا معشر الأنصار !.. املكوا عليكم امركم . ان الناس فى فيئكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ، ولن يصدروا الا عن رأيكم ... »

وانقلبت بهذا قضية الانصار قضية وطنية تسيرها العصبية !..
وبدا الأمر كأنه صيال المدينة ومكة كل منهما تبغى ان تفوز دون اختها بالسلطان !...

وأثارت كلمات الحباب الحماس فى الناس فاقبلوا عليه بافئدتهم يصيخون .

وعاود الرجل دعوته بقول :

« يا معشر الانصار !.. أنتم اهل العز والثروة ، واولو المنعة

والعدة ، وذوو البأس والشدة . وانما ينظر الناس الى ما تصنعون ... فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض أمركم . »

فتهاتفوا من كل جانب :

« وفقت فى الرأى »

واتم ، وهو يشير الى الثلاثة المهاجرين :

« فأما وقد أبى هؤلاء الا ما سمعتم . فمنا أمير ومنهم امير .. »

وكانت هذه زلة اللسان التى قوضت اركان البنيان !..

٦

امتقع سعد بن عبادة وغاض لونه اذ سمع كلمة الحباب ، وهمس لنفسه ، محنقا ، وهو يصرف بأسنانه :

« ويحه !... هذا أول الوهن ! »

لم يكن لسان ابن المنذر اول ناطق هكذا بقسمة السلطان بين قريش وبين الانصار ، بل سبقه الى التحدث به سواه حين بدا أصحاب السقيفة يتشاورون قبل مجيء أبى بكر وصاحبيه . ولكن النطق به الآن أقر المهاجرين بالحق فى تولى تراث الرسول بعد ان أوشك ابن عبادة أن يخرجهم من الأمر صفر الأيدى .

مع ذلك فان عمر لم ير فى هذا الحديث نصرا للقضية التى جاء يذود عنها وان كانت كلمات الحباب — فى الواقع — هى نصف النصر . فسريعا عاود ابن الخطاب عنفه ، وضاق بطول التزامه الصمت ، فما وسعه الا ان يصيح :

« هيهات هيهات !.. لا يجتمع اثنان فى قرن » .

واصر الحباب :

« بل يجتمعان ! » .

« لا والله !.. ولن ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم . ولكنها لا تمتنع ان تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى امورهم منهم . ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين .. » .

فقام أحد الانصار يهتف بقومه :

« يا معشر الانصار ! املكوا على ايديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا ، واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر » .

هنا ملكت الحدة لسان عمر فانبرى يقول :

« منذا ينازعنا سلطان محمد وامارته — نحن اولياءه وعشيرته — الا مدل بباطل ، أو متجانف لاثم ، او متورط في هلكة !؟ » .

قال الحباب ، وقد سمع هذا التعريض ، يخاطب اهل المدينة :

« أما وقد ابوا عليكم ما سألتموه ، فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، لانهم بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين .. » .

وازدهاه ما كان هو فيه من منعة بقومه وداره وبلده بعد أن اثاره عنف ابن الخطاب ، فانتضى سيفه يلوح به في وجه عمر ويصيح :

« أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب !.. اما والله — ان شئتم — لنعيدنها جذعة !.. » .

عصف الغضب بجوانح عمر لهذا الوعيد حتى تلهبت عيناه فمرق كالسهم الى الرجل يزأر :

« اذن يقتلك الله ! » .

« بل اياك يقتل ! » .

وأوشك أن يقع ما خشيه ابو بكر باديء الأمر من ابن الخطاب . بل لقد لاحت فعلا بعض نذر الشرك اذ ضرب عمر يد الحباب فاسقط منها السيف ، ثم أشرعه يهم أن يردى به سعد بن عبادة الذى راى فيه خالق الفتنة ومثير نوازيها . وما أحسب آفة كانت تصيب الاسلام بمثل ما أوشكت أن تصيبه هذه الدفعة العمرية الفوارة لو لم يتدارك الله الأمر فيلهم ابن الجراح ان يحول بين صاحبه وبين ما اراد . كان أبو عبيدة قد قضى الوقت جميعه يشهد ويسمع ولا ينطق بكلام . اما وقد كاد ان يفلت من بين اصابع صاحبيه الزمام فقد سارع الى جذوة النار يخمدها قبل ان تغدو مشبوبة الأوار .

هتف بأهل السقيفة بصوت هاديء رزين ، فى نبراته توسل ورجاء :

« يا معشر الانصار !. كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير .. »

فكأنما قد لمس بكلماته هذه صمام الهدوء والسكون فى القلوب ..

انصت له الناس ، ثم تهامسوا ، ثم لم يلبثوا حتى هدأت فيهم ثورات النفوس . وبدا المكان ساكنا كأن لم يكن فيه شجار أو جرى فى نواحيه حديث . وما برح القوم الا قليلا حتى تبينوا حقيقة الأمور ... تبين رجال انهم أوشكوا أن يغصبوا حق رجال آخرين . وتبين رجال أن فى صدورهم غرسا جاهليا كادت أن تذويه تعاليم الاسلام عاد اليوم يدعوهم الى ربه من جديد . وتبين رجال أن رفعة واحد من الآل تثير الحسد فى نفوسهم وان كانوا له بعض الآل .. وفى مثل لمح البصر عملت هذه العوامل كلها متفرقة ومجتمعة ، وكان مجتنى الثمرة من ورائها غير الأنصار !...

وكان اول تلك العوامل حسد الآل للمبرز من الآل . فقد قام بشير بن سعد فى القوم يخطبهم ويقول :

« الا ان محمدا — ايها الناس — من قريش . وان قومه أحق به واولى . وايم الله لا يرانى الله انازعهم فى هذا الأمر ابدا .. »

ولئن كان الدافع الذى أجرى لسانه بهذا الكلام قد خفى على بعض الناس فان الحباب ابى عليه أن يظل خافيا ابدا ، بل سارع فكشف عنه الغطاء .. صاح به ظاهر الغضب تقطر من الفاظه مرارة اشمئزاز :

« ما أحوجك الى ما صنعت يا بشير ؟.. انفست الامارة على ابن عمك سعد بن عبادة ؟! » .

فلم يسع هذا الحاسد الشانىء الا أن يجيب :

« لا والله .. ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله فيهم .. »

* * *

وكان ثانى العوامل أحقاد الجاهلية ثارت كثورتها قبل الاسلام وقبضت من بعض النفوس على الزمام .. قام سيد الأوس اسيد بن حضير ، وقد حضره فى هذا المقام ما سلف بين قومه وقبيلة بنى الخزرج رجال ابن عبادة فى الجاهلية من خلافات وثارات . قام يثير فى الأوس عصبية اطفأت فورتها سماحة الاسلام ويوقظ ما نام من سخيمة الصدور بأن راح يهمس لبنى قبيلته :

« يا بنى الأوس ، لأن وليتموها سعدا عليكم مرة فوالله لا زالت للخزرج بذلك عليكم الفضيلة ، ولا جعلوا لكم نصيبا ابدا .. »

***

واستقر بهذين العاملين السلطان لقريش . لا لأن الأنصار قدمت على نفسها قريشا ، ولكن لأنها استحبت أن تحارب رجلها الكريم وتسلبه ما كاد أن يتم له من سلطان !. وانتهز أبو بكر الفطن فرصة هذا الانقسام الذى دب فى صفوف هؤلاء المنافسين فأخذ عمر بيد ، وأبا عبيدة بالأخرى ونادى فى الناس :

« أيها الناس .. هذا عمــر ، وهــذا ابو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا »

ولكن ابن الخطاب لم يكن قد نسى بعد أى ثلاثتهم أولى بالبيعة دون صاحبيه وما زالت كلمات أبى عبيدة بن الجراح ترن فى اذنيه . فأسرع يقول :

« بل ابسط يدك يا أبا بكر ... »

وعقب أبو عبيدة بعده :

« انك لأفضل المهاجرين ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ... »

فبسط الشيخ لكليهما كفه يبايعانه . واسرع عند هذا بشير بن سعد يفعل فعلهما فينحاز وراءه بعض الخزرج ... ويرى هذا اسيد ابن حضير فيدعو قومه علانية بعد ما كان من همسه واسراره :

« يا بنى الأوس !.. قوموا فبايعوا أبا بكر ... »

وسارت هكذا البيعة للرجل الذى لم تجر خلافة المسلمين له فى بال ولم يك يطمع مطلقا فى سلطان ، ولعل وصاته لذلك الاعرابى راودت فى هذه الآونة خاطره فعرف كيف يروج المرء للمبدأ حينا ثم لا يلبث حتى يكون من ناقضيه اول ناقضيه !.. ثم عرف أن حجته التى ألزم بها منذ قليل هؤلاء الأنصار لم تعد حجة يلتزمها هو نفسه. ما دامت قد شاءت له أن يحيد عن هذا الالتزام ظروف الحال ، والفرص التى اتاحها له حسد الآل للآل ، وما عاد الى الحياة من أحقاد الرجال !..

٧

ثبت الأمر لأبى بكر ، يوم السقيفة ، بانحيـاز أسيد وبشير ومن تبعهما الى رجل بنى تيم . وازدحم الناس من هذين الحيين حوله يتسابقون الى بيعته حتى نسـوا الشيخ الذى أوشكوا أن يلقوا اليه بالزمام من قليل .. نسوا كريم المدينة سيد الخزرج سعدا الذى اقعده وجعه ثم كادت أن تطأه منهم الأقدام وهم يتدافعون نحو السيد الجديد !.. ما أسرع تنكر الانسان للمروءة أمام خيال السلطان !.. ان الناس لم يعد يشغلهم من دنياهم هذه اللحظة الا أن يمسحوا بأكفهم على كف أبى بكر . أما ذلك الذى كانت كلماته تلهب عواطفهم وتثير فيهم الحماس ، وكانت دعوته تملك اهتمامهم وتستغرق منهم الحواس ، وكانوا يتلقفون همسه كمثل تلقفهم خطرات الأنسام فقد هان لديهم الآن شأنه ، وبدا حاضرا كغائب حتى كادوا يقتلونه وهم لايشهدونه !..

وارتفع من أحد الذين التفوا بشيخ الخزرج المريض صوت محذر يصيح :

« يا قوم !.. اتقوا سعدا لا تطأوه ! »

فما أتمها حتى رنت ــ كرجع الصدى ــ كلمات جافيات غضاب :

« اقتلوه ، قتله الله !.. »

وكانت هذه دفعة أخرى من ابن الخطاب . انه حتى فى هذه الآونة التى يدعو ضيقها على الشيخ الى رحمته والترفق به ، لم ينس عمر عنفه ، ولم يتدبر موقفه ، ولم يجعل بخاطره قبل تفوهه بهذا الكلام ما عسى أن يصيبه وصاحبيه ثم يصيب الاسلام لو عدا على ابن عبادة رجل فقتله تلبية لهذه الدعوة الغاضبة . وما أحسب حتى أولئك الذين خذلوا سعدا من الخزرج حين تنازع السلطان سوف يبيحون دمه واحدا من الناس أيا كان . ولكن عمر تحدث وما تريث ، وقرر وما تفكر فى عقبى قراره ، فاذا أبو بكر يسارع فيكبح جماحه ، ويرده الى ما هو أدنى الى الصواب ان لم يكن عين الصواب .

قال له ناصحا وزاجرا فى آن :

« مهلا يا عمر ... مهلا فالرفق ها هنا أبلغ »

أجـل فالرفق واصطنـاع الأناة اولى فى مقام يعج بالمخالفين والأخصام ، وكانت الأناة اداة ابى بكر منذ البدء ، داور به الأنصـار ما استطاع حتى اكملت له الظروف فوزه . وكان العنف اداة عمر لأنه ادنى الى طبعه وابلغ — فى ظنه — اثرا فى مثل هذا المقام . ولقد اصاب أبو بكر فى تلك الآونة لأن كثيرين من الأوس التى أجمعت الكلمة على البيعة له ، لم يبايعوه لفضل وان كان صاحب فضل ، ولكن لأنه كان رجلا من غير الخزرج الغريمة القديمة !.. ولأن كثيرين من الخزرج بايعوا متابعة منهم لسيدهم بشير ... ثم لأن الأكثرين بعد هذا منها — وكانوا فى كف سعد — قعدوا عن البيعة ولم يثوروا بها لأنهم قداذهلهم موقف قومهم من حاسدين وموتورين بعد الذى كانوا كلهم عليه من اجماع .

❊ ❊ ❊

أصاب ابو بكر فى اصطناع الأناة ، وفى النصح لعمر بأن ينهج نهجه لأن العنف كان قمينا ان يعود بنفوس الأنصار الى تدبر الأمر من جديد . واخطأ عمر لأن رؤية الدماء كانت كفيلة بأن تثير حـرارة الدماء ، ولو أن دعوته الى قتل ابن عبادة لقيت سامعا مطيعا ، لمـا عجبنا أن راينا الأمر ينتقض على أبى بكر قبل أن يبرح السقيفة ذلك النهار ، ولرأيناه يخلفها كما دخلها ، رجـلا من قريش بغير بيعـة ولا سلطان . ولكن عمر ، وان يكن بدعوته تلك قد اخطأ ، فانه اصاب من حيث اخطأ .. أصاب لأنه راى فى حياة ابن عبادة عودا للفتنة وعودا الى الانقسام بين المسلمين : أنصار ومهاجرين ، لو شاء شيخ الخزرج فى يوم أن يحاول ابتزاز الحكم . بل ان حياة ابن عبادة عودا للفتنة وعوداً الى الانقسام بين المسلمين : انصار وهو آمن ، وفى هذا ما فيه من انتقاص هيبة الحاكم ، وكفيلة بأن ينقض البيعـة من بايع لأنه شهد السلامة لمن خالف ولم يبايع !.. وكفيلة بأن تترك غيره من الأنصار يحدث نفسه بذلك الحق الذى افلتته اصابع قومه ثم يسعى فى اصابة ما فاتهم من نجاح ، واخيرا هى كفيلة بأن تدع ايا من الناس ظن لنفسه الجدارة وفيها القدرة يحاول جهده التماس هذا النجاح .

اخطا عمر : ثم أصاب من حيث اخطا ، لاننا شهدنا مع الأيام ، الظنون التي طافت بذهنه اذ ذاك تتحقق أو توشك أن تتحقق ... شهدنا سعد بن عبادة يقبض يده عن البيعة لأبى بكر ثم لا يزال يقبضها بعد البيعة الثانية ومعه كثيرون من قومه ظاهروه على هذا الامتناع — لا يرجعه عن عزمه هذا اغراء أو دعوة الى التزام كلمة الجماعة ، بل لعل الدعوة أثارت فى نفسه قوة العزم والاصرار .

جاءه من لدن الخليفة رسول يقول :

« اقبل فبايع ... »

فيصيح مغضبا :

« أما والله حتى ارميكم بما فى كنانتى من نبل . وأخضب سنان رمحى !.. »

فيجيبه الرسول محذرا :

« اتق الله يا سعد ، ولا تشق عصا الجماعة . لقد بايع الناس وبايع قومك .. »

فلا تلين للرجل امام هذا قناة ، بل يقول :

« انى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى !... مقاتلكم بولدى ، واهل بيتى ، ومن أطاعنى من قومى !... »

ويعلم عمر بهذا فيخشى المغبة ، ويكاد أن يسبق الى خاطره منه أمثال وأمثال ما ظلت هكذا هيبة صاحب السلطان ورهبته لا تملكان القلوب ... واذا به يهتف بأبى بكر ناصحا :

« يا خليفة رسول الله .. لا تدع الرجل حتى يبايع .. »

ولكن بشير بن سعد ينصح بغير هذا :

« بل دعه يا خليفة رسول الله . انه قد لج وأبى . وليس بمبايعكم حتى يقتل . وليس بمقتول حتى يقتل ولده ، ثم اهل بيته ، ثم طائفة من عشيرته ، فاتركوه ... »

ومع ذلك فقد بقى راى عمر حيث كان . وبقى الخطر — فى يقينه — ماثلا فى شخص ابن عبادة لا يبرح وشيخ الخزرج قائم فى الحياة ... ولقد جاءت لحظة على هذا الشيخ جعلته يشد رحاله ويخرج من بلدته مهاجرا الى الشام ثم لا ندرى اكانت هجرته من خشية بطش ام نبا به المقام بين ظهرانى قومه الذين حسدوه ومالأوا

عليه الغريب ، ولكن الذى ندريه أن الأخبار جرت بعد قليل تروى قصة انتفاء الخطر الجاثم فى شخصه بعد ان لقى الرجل مصرعه وهو غريب الدار ... واقاصيص الغيلة على السنة العرب جديرة دائما بالسماع لفرط ما كان الرواة يضفون عليها من سمات وتزويق وان كانت غير جديرة دائما بالتصديق ! ولكن الذى نما الى الاسماع حينذاك أن هاتفا فى ظلام الليل باحدى نواحى الشام ما برح ليلة بعد ليلة يصيح :

قتلنا سـيد الخزرج سـعد بن عبـاده
رميناه بسـهمين فلم نخـط فؤاده !

وكان هذا الكلام — فيما روى الرواة — من شعر الجن التى قتلت سعدا ... فلما أصبح الناس لم يجدوا الرجل فى داره ثلاثة ايام ، فالتمسوه حيثما شاءوا فلم يعثروا عليه . ولم يبق الا ان يطلبوه فى مكان الهاتف فاذا بهم يجدونه فى بئر ، مطعونا ، قد اخضر لونه من العفن .

وقال بعض الحمقى :

« هذا فعله الجن ! »

وقال بعض الذين يعرفون ، او ظن أنهم يعرفون :

« قتله خالد بن الوليد وصاحب له ، طعناه بعد ان كمنا له ليلا ، والقياه فى البئر ... »

قيل :

« وما لهتاف الجن الذى سمعناه ؟ »

قالوا :

« بل هو هتاف صاحب خالد ، هتف به ليقول الحمقى مثل ماكانوا يقولون !... »

ثم قال آخر :

« انما قتله خالد بن الوليد بأمر ابى بكر ... »

ولكننا لا نستطيع ان نقحم الخليفة الأول فى هذا العدوان لان خلقه سياج حائل ، ولا نستطيع ان نبرىء ساحة خالد لان خلقه اولى به ما كان !. وليس القائد الهمام بالنقى الصفحة كل النقاء من العدوان !... ثم لا عليه ان فعل لحفظ جماعة المسلمين ان تتفرق بين

خليفة وداعية بأرض الشام عساه قد خرج اليها وفى قصده أن يفوز فيها بما فاته الفوز به فى المدينة !.. ثم خالد بعد هذا وذاك قريب فى حساب الأنساب وليس بغريب عن ابن الخطاب ... فاذا شرع أحدهما فى التنفيذ ولم يصب هدفه ، فقد راب الناس ان ثانيهما أصاب !...

٨

مال النهار ، وتفرق بياضه بددا فى أطراف الأفق ، ثم أخذت غوادى الليل تنتقص منه كما شاءت ، ويغير سواده حتى غشاه ، وامتلأت رقعة السماء بالظلال الدكناء .

وراحت حركة البلدة مع النهار وانطوى هتاف الناس للحاكم الجديد والحديث عنه بانطواء العشاء ، وبدا الظلام منشورا فى الجو كانتشار الرمال على الأديم المترامى ، لا تحده عين ، ولون الدجى الذى غلف الكون واحتواء يملأ الأبصار حتى لا ترى سواه .

وكان البراء بن عازب قد غادر دار الرسول مخلفا فيها عليا وآله الى جوار الجثمان الطاهر ، لا يشغلهم ما شغل غيرهم من أمر السلطان، بل قروا فيها ، حليفهم أساهم . وخرج هو نطاف هنيهة بالمدينة ، مثقل القلب من هميه : خطب محمد ، وخذلان صحب محمد آل محمد ... ولم يقر للرجل قرار بل أمعن — على غير هدى — فى التطواف . وبذل من جهده فى السير ما عسى ينسيه عناؤه ما كانت تلقى نفسه من عناء . ولكن لوعته صاحبته ، ولاحقته خواطره القاتمة قتامة الليل وملأت عليه آفاق روحه فتلمس معدى عنها رحبة المسجد لعله يفىء الى بعض هدوئه فى ساحة الله . ويمم ركنا يستريح فيه آونة ويمسح بالصلاة على فؤاده الجريح . ثم يستقر ويسكن لحظات . ولكن بصره كان لا يلبث أن يدور فى المكان ، ويستوعب نواحيه ثم لا يلبث حتى تثبت عيناه على ناحية دانية طالما ثبتت قبل هذه الليلة عليها العيون ... وانه ليخال ان محمدا الآن جاثم فى المحراب وان خلا منذ اليوم منه المحراب !... وينقبض بهذا صدره ، ويرعش جفنه ، ثم تبتل

منه الاهداب . وانه ليناى بناظريه آنا ، فاذا السمع يحمل اليه ما أبعد عنه عينيه — او هو الخيال — حتى ليسرى اليه الترتيل واضحا فى هداة السكون . ينطلق ذلك الصوت الرقيق الحلو النبرات بهمهمة خافتة يتردد جرسها حوالى البراء ، جائيا من ناحية المحراب فى هدوء حبيب ، وفى خفوت رتيب يمتلىء به السمع ولا يشبع ، اما القلب فيقنت ويخشع ، واما النفس فتعنو وتخضع ، واما العينان فلا تزالان تتلفتان ثم يرتد البصر ، لأن المسجد كله من محيا محمد خلاء ، وكان محياه قبل الليلة للبصر ضياء وجلاء .

ولم يعد للرجل محيص عن الرحيـل ، ودمعه سباق لا يرقأ ولا يغيض ، وقلبه قد اكتسى أسى فوق أسى .. فغادر المسجد . وعاود ثانية رحلة الطواف على غير هدى ، لا يحاول أن يتبين معالم الطريق. ولا اين يسير . بل كان بحسبه أن ينطلق والليل ، حيثما يحـدوه الظلام أو تحمله الأقدام . ليس يعنيه ان كان قد خلف وراءه العمران وراح فى جوف طريق موحش غير مطروق ، ولا أن يضرب قدما او ينكص ، ولا ان يوغل حتى يفضى الى البيد ، لأنه كان لغير غايةيسير ؛ وان كانت غايته هى الطواف والمسير .

ومع ذلك فقد كان كمن سددت لغاية خطاه ، اذ انبعث من ذهوله واعيا يدرك ، سامعا ينصت ، وان حال الظلام دون تبينه مصادر الـكلام .

أتته الأصوات مخافتة ، هامسة بالمناجاة ، كأنها تضن بحديثها على الشفاه ولا تدعه الا بحساب . وهم البراء أن يرتد فيعود ولا يوالى السـير خشية أن يكشف سرا او يكون عبئا على اصـحاب الحديث . وأطلق بصره فى المكان برهة فعرف أى شوط طويل سار حين تبين انه بفضاء بنى بياضـة ، وليس مثله بالناحية التى يتلمسـها من يريد الحديث الا من رغب عن فضول العيون واستراق الآذان .

هم أن يرتد ... لولا ان سرت اليه بعض الفـاظ مختلفة من المناجاة عرف فيها بعض الاصوات كان قد وشت بأصحابها له ... ولكنه ما كان ليعزم على المكوث ، رغم هذا ، لو لم يسر الى سمعه صوت يدعوه بهمسـة المحاذر :

« ابن عازب والله !.. هلم ! » .

فأجاب ..

« المقـداد ؟ » .

« نعم ... واقبل » :

فسعى حتى لحق بالثلة المجتمعة ها هنا تحت الليل . من اول نظرة عرف الرجل فيم كان هذا الاجتماع ، لأن كل واحد من هؤلاء الصحاب كان اجلى عنوان يفضح عما في باطن الكتاب !..

كانوا جماعة من صحب الرسول . خيرة صحبه ، وأقربهم الى نفسه ، واحبهم الى قلبه الكبير ممن أوذوا في سبيل الاسلام ، وفاضت بهم كأس الايذاء فلم يفتتنوا عن دينهم ، بل اعتصموا بالصبر غاية اعتصام . كانوا اشرق المسلمين اذ ذاك قلوبا وأرواحا وأولهم سابقة لدين الله ، وأدناهم من ربهم مقاما . كان بعضهم من أصحاب الصفة بمسجد الرسول ـ أولئك الذارين بالمرض والفرض ، المقيمين للحق على الحق ، التائبين عن الذنب ولا ذنب ، الذين رضوا من الدنيا بما دون الكفاف وبالخبز الجاف اذلالا للنفس وقهرا للبدن ورياضة للروح . وكان بعضهم من الأنصار ، ساروا كسيرتهم عزوفا وزهادة ، وفنيت قلوبهم في ذات الله ، وفي حب رسول الله .

وتطلع البراء حواليه برهة الى هذه الأجسام الناحلة من نسك ، والوجوه التي كانت تضيء من ايمان ، فما وسعه الا ان ينثلج لمرآهم صدره ، ويفرح قلبه لو عرفت القلوب ـ بعد الرسول ـ الأفراح . ولكنه على أي حال ، استشعر الفرحة تسري في فؤاده وتهز أعصابه اذ كان يعلم سلفا ما في باطن الكتاب ما دام هؤلاء هم الحروف التي تألف منها العنوان !.

* * *

كانوا حقا اجلى عنوان يفصح عن مادة الكتاب !.. كانوا ائمة الايمان بين كافة المسلمين من انصار ومن مهاجرين . لم يحضر منهم واحد بيعة السقيفة في بني ساعدة ، لو حضروها لما القوا قيادهم لشيخ بني تيم . ولم يمسحوا باكفهم على يده حين اتى المسجد بعد أن بايعه سواد الانصار ، بل تخلفوا هم ـ كما تخلف كثيرون من المهاجرين

الأولين — لانهم كانوا يعلمون تمام العلم اى الناس اولى منه بأن تمسح اكفهم على يده ، يلقوا زمامهم له طائعين .

وعاد البراء يجيل فيهم بصره فأحس الرضا اذ عرف ان القضية التى آمن هو بعدالتها اشد الايمان ، قد جاء هاهنا لنصرها خير الناس. واجتمعوا ، تحت الليــل ، فى هذا الفضاء يدبرون لهــا ويتشاورون بعيدا عن فضول العيون والاسماع .. اجتمع لها خير الناس من صحابة رسول الله الأدنين ، أولئك الذين ما كان يجمعهم هدف لولا ان يشعروا له بعدالة ترفعه فى عيونهم الى مرتبة التقديس . والذين صحبوا الحق مذ علموه ، لم يميلوا عنه أمام سطوة ولا قسوة ولا تعذيب ولا ايذاء . وبحسبهم ان كان فيهم رجل غفار ابو ذر ، الذى صلى لله قبل دعوة رسول الله ، ثم سعى الى محمد يبتغى الاسلام ولم يكن محمد قد جهر بعد بالدعوة الى الاسلام .. سعى اليه لان قلبه الناصع كان مهيأ للهدى . واقبل فأسلم ، ثم انطلق ومن ورائه كلمات الرسول :

« يا ابا ذر ، اكتم هذا الأمر وارجع الى بلدك ، فاذا بلغك ظهورنا فاقبل .. »

ولكنه — رغم هذا — راى الا يصدع بالامر لان فى الصدوع معنى خشية أذى قريش وما يستطيعون أن يركبوه به من قسوة وبطش ... فسارع يجيب رسول الله .

« والذى بعثك بالحق ، لاصرخن بها بين اظهرهم !.. »

وصرخ بها فاوذى !... ثم لم يمنعه الايذاء من معاودة الجهر والصراخ ثم معــاودة الجهر والصراخ لانه رجل يعرف للحق قــوة لا ترجحها قوى العدوان مجتمعة ومضمفة آلاف الاضعاف ... وكان شعوره دائما وما أوصاه به ذات يوم رسول الله :

« لا تخش فى الله تعالى لومة لائم »

وبحسبهم ان كان فيهم ايضا عمار ... ابن سمية التى استشهدت فى سبيل الاستمساك بالاسلام وهو واقف يشهد ولا يستطيع دفع الأذى عنها ، ولا عن أبيه ، ولا عن نفسه وقد احاط به بنو مخزوم الطغاة يلبسونه محمى الحديد ، ويتولونه بما وسعهم من ايذاء وهو صابر امام سوط العذاب ، وفى اذنيه يتردد نصح رسول الله :

« صبرا ابا اليقظان » .

... وبحسبهم ان كان فيهم الفارسى سلمان .. ذلك الشريف الذى خلف قصره وهجر بلده يريد أن يلتمس الحق ويظفر به أينما يكون . وارتحل يجوب الآفاق تاركا وراءه اصبهان بعد أن خلع فيها رداء المجوسية . ويمم أرض الشام يطوف بها ويبحث عن الهدى بين نواحيها . واعتنق المسيحية . وراح يعاود التنقل والترحال بين البلدان يستوعب المعرفة من أفواه اساقفة ذلك الدين . وكلما تعلم ما لدى واحد منهم تركه الى آخر حتى انتهى به المطاف الى عمورية حيث حدثه اسقفها ان الحق المنشود انما ينطق به لسان رجل يظهر فى أرض العرب لا يزال يدعو الى الهدى قومه حتى يخرجوه ظلما فيهجرهم الى ارض بين حرتين بينهما نخل .

ويدفع الحق سلمان الى أن يغذ السير الى منبع الهداية المنشودة . ويلقى فى الطريق ما يلقى من عناء فيفقد ماله ، ويفقد حريتـه ، اذ يسترقه اقوام يبيعونه بيع العبيد ، ولكنه لا يأبه لهذا الأسـار الجسمى ما دامت الحرية الروحية لن تلبث ان تطلع شمسها عليه . ولا يخيب الله رجاء عبده المؤمن ، الساعى جهده الى ابتغاء رضاه ، بل يهيىء له آخر الأمر لقاء محمد رسول الله .

ويقول سلمان وقد استوثق من شأن العربى الكريم :

« يا رسول الله .. انى رجل فارسى ، خرجت من بلادى غلاما حدثا ابغى دين الحق . ولكن يشغلنى عنك الرق .. »

فيتفكر هنيهة ثم يقول له :

« كاتب يا سلمان »

« نعم اكاتب صاحبى اليهودى على نخل أحييه له ، اذ لا مال عندى »

فيوافق رسول الله ويقول لصحبه الآخرين :

« اعينوا أخاكم »

ويستجيب المسلمون لدعوة رسول الله فيعاونون سلمان بالعمل معه فى النخل كى يشترى نفسه من سيده . ولا يحجم رسول الله عن العون بل يساهم فيه بنصيب — هو أوفى نصيب لأن الله يهب البركة كل ما يمد رسوله يدا اليه . يقول لسلمان :

« اذهب يا سلمان ففقر لها ، فاذا فرغت فائتنى اكن انا اضعها بيدى » .

* * *

بحسب العصبة المجتمعة هذه الليلة بفضاء بنى بياضة أن يكون فيهم هؤلاء الذين وهبوا دائما جهودهم للحق ،وبذلوا ما استطاعوا فى سبيل اعزازه ليعرف البراء عدل القضية التى ود بقلبه أن ينصرها . فاذا اجتمع اليه هؤلاء ، واجتمع اليهم المقداد بن عمرو ، وحذيفة ابن اليمان ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان وغيرهم من خيرة صحب رسول الله الذين تخلفوا عن بيعة أبى بكر اقتناعا منهم بأن فى الناس سواه أولى منه بالبيعة ومن كل الناس ، اذا اجتمع كل هؤلاء ، وأجمعوا الكلمة ، فلقد آن ان يعود الحق اخيرا الى ذويه ...

٩

التأم الجمع فى فضاء بنى بياضة تحت الليل ، أقبل اصحابه على الأمر يمحصونه ليروا له انسب الحلول .

قال عمار بن ياسر :

« ما لتيم وهذا الأمر ؟.. انه قد كان لرسول الله ، وهو من بعده فى خير الناس بعد رسول الله .. اما لقد ظلمت الأنصار ! »

فاجابه البراء :

« يا أبا اليقظان .. انما انتزعه الرجل بحق قريش وعاونه صاحباه » .

« ما لبيعة لم يشهدها المهاجرون الأولون صحة ! »

وقال حذيفة بن اليمان يدلى بالنبأ الذى ينير أمامهم الطريق :

« وان الأنصار لتريد أن تنقض ما كان منها ! »

« افتعلم حقا ؟ »

« والله ما كذبت وما كذبت ، ثم والله ليكونن ما اخبرتكم به .. »

فقال المقداد بن عمرو :

« فهذا والله خير ، وليردن الحق الى صاحبه من بعد » .

وتساءل سلمان :

« فان أبى الرجل ؟ »

فأجابه أبو ذر :

« فدعوه !.. انه ليس ولا صاحباه الا ثلاثة من المهاجرين . أما حجته فهى عليه .. »

ثم التفت الى البراء يوجه له الحديث :

« أو لست سمعته يا بن عازب يقول فى السقيفة ما تقول ؟.. »

« نعم »

« فلغيره والله — بحجته — الأمر دونه !.. والله لا يرانى أبدا أبايع ابن أبى قحافة وفى الناس ابن أبى طالب !.. »

قال عمار :

« وما الراى ؟ »

فرد المقداد :

« الراى ان نعيد الأمر شورى بين المهاجرين »

« أصبت »

« وهذه الأنصار تهم أن تنقض أمر السقيفة ... »

فثنى حذيفة بن اليمان :

« نعم . وهلموا الى ابى بن كعب فقد علم كما علمت »

وانطلقوا من مكمنهم ذاك وقد انتهى رايهم الى اعادة الامر شورى بين المهاجرين ينظرون فيه ، ما دامت بيعة السقيفة قد تمت بغير علمهم هم الأولى بأن يكونوا أصحاب الراى الأول فى اختيار خليفة الرسول ، وما دام الانصار قد انجلت عنهم الآن غاشية المفاجاة وعرفوا أنهم لم يكونوا محقين حين سلموا الامر لابى بكر ، حتى راحوا يتهامسون بانه جدير بهم أن يستردوا بيعتهم .

انطلق الصحاب المجتمعون الى دار أبى بن كعب يضربون عليه بابه ، فجاءهم صوته يقول :

« من ذاك ؟ »

« المقداد وقوم .. يا أبى ، افتح بابك فان الأمر اعظم من ان يجرى من وراء حجاب »

فأجاب :

« لقد عرفت ما جئتم له .. »

ثم أتم حين بدا لهم ، قال :

« كأنى بكم قد أردتم النظر فى هذا العقد ! »

أجل كان هذا هو الذى أرادوه ، والذى سعوا اليه ، والذى أجمعوا أمرهم عليه ، ثم كادت أن تعينهم على اتمامه الأحداث لولا ما سبقت به الأقدار من سطور التاريخ ...

ولعله يحسن بالمرء فى هذا المقام أن يتساءل ان رجال من شيعة شيخ بنى تيم قد نافقوا وبدوا أمام هذه العصبة كالناصرين ثم مشوا من بعد بأخبارها اليه ... ولعله قد شاع فى الناس اعتزام الأنصار نقض ما سلف من بيعتها للشيخ فأخذ حذره وأعد للأمر عدته قبل أن يفجأه وقوعه ... لعل هذا أو ذاك هو ما قدر له الحدوث وان كان الذى لا يرتاب فيه انسان ان أبا بكر كان حريا بأن يكون بارعا ، كما عهدنا فى بنى ساعدة ، ولا يدع عمله رهينا بما تجىء به الأخبار أو ينتظر ثم يرى كيف تلهمه العمل ظروف الحال ، وأحسبه بات ليلته تلك وفى همه الا يصبح الصباح حتى يكون هو صاحب الرمية الثانية كما سدد أولى رمياته الصائبة فى نهار الأمس !

هكذا كان الرجل ، وهكذا طلعت علينا صورته من خلال نسيج التاريخ فلم يكن عجبا ، اذن ، أن يسارع ، وضياء الشمس ينتشر فى الآفاق ، الى مسجد المدينة ومعه صاحباه . ونادى فى الناس مناديه فاجتمعوا له ... وبقيت عصبة الليل تلك فى غفلة عن هذا التدبير الذى لم يطف بخواطرهم بل سبق كل ما احكموا من تدبير !..

ووقف عمر بن الخطاب بين الناس يتحدث اليهم :

« ... انى قد قلت لكم بالأمس مقالة ، ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله . ولا كانت عهدا عهده الى رسول الله . ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ، ويبقى ليكون آخرنا » .

وأجمل بهذه الكلمات اعتذاره عما بدر من دفعته حين تهدد بسيفه من قال ان محمدا قد مات ، ثم مضى قدما الى الغاية التى من اجلها كان جمع الناس ، فقال :

« أيها الناس : ان الله قد جمع امركم على خيركم : صاحب رسول الله ، ثانى اثنين اذ هما فى الغار . فقوموا فبايعوا ... »

فماذا عسى كان عمر مستطيعا قوله فى مثل هذا المقام لو كان أبو عبيدة قد قبل البيعة منه حين مد اليه كفه وهو يريد أن يفسد ما كان من اجتماع كلمة أصحاب السقيفة على صاحبهم ؟.. أفكان ينطق لهم بنفس هذا الكلام أم كان يزوى مقالا غيره للمقام ؟ ان الذى لا يثبت الريب أمامه مطلقا هو أن صاحبه الذى وقع عليه الاختيار لم يستطع أن يزعم لنفسه ما اضفى عليه ابن الخطاب .. بل رقى المنبر فى هدوء وقال :

« أما بعد أيها الناس ... فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم »

فان يكن حقا ما قال ابو بكر فهو اعتراف بالفضل لغيره ممن هو له أهل ! . وكفى ابن الخطاب أن اختار أولا فرده من كان محور هذا الاختيار اذ رآه لم يحسن حين اختار .. وأن قدم فى الثانية وقال فرده من قيل فيه المقال !...

* * *

على أن البيعة ، مع هذا ، تمت على الوجه الذى اراده الثلاثة الرفاق ، وبايع اليوم لابى بكر من لم يكن بايع من عامة الناس . وراح الذين لم يبايعوا أهون شأنا مما كانوا عليه بالأمس وأقل رجاء فى التفاف القوم حول الدعوة التى دبروا لها كل تدبير ، والذين كانوا قد آلوا على نقض البيعة آثروا البقاء فى جانب الرجحان لأن النقض بعد هذا كفيل بأن يصيبه البوار والخسران !..

وهكذا اجتمعت كلمة اكثر الانصار ثم من بعدهم اكثر المهاجرين على اختيار ابى بكر وبقى ولى الرسول : حيثما كان الى جوار الجثمان الطاهر ، تمر به الأحداث ولا يرى أن يتابعها لان رسول الله احق باهتمامه من كل سلطان . وتفرق الناس بعد البيعة الثانية مجمعين على رجل وكانوا قبل السقيفة — وهم متفرقون — قد أوشكوا أن يجمعوا على سواه .. تفرقوا وان ساروا زمرا تؤلف الشكل على الشكل : فيهم من رضى فراح يهتف ويهلل معبرا عن رضاه . وفيهم

من خالف فراح يهمس ويدلل على اصابة رايه ودعواه . وفيهم اناس بين هؤلاء وهؤلاء ... تابعوا الكثرة لانهم لا تدلهم على الحق فراسة ولا استقراء بقدر ما تدلهم وجهة الجمهور . فانطلقوا هكذا مع الكثرة، وفي حسبانهم أنها مقياس الصواب وفصل الخطاب ...

اما الذين قد غابوا عن البيعتين فان آراءهم تفرقت بين هؤلاء الطوائف الثلاث كلما اشرفوا على الحشود التى اخذت تغادر المسجد ويسبقها الهمس والهتاف ، تأسر بعضهم حجة من هنا وتأسر البعض حجة من هناك ، ويقبلون متسائلين ثم يرتدون مؤيدين أو معارضين ، ولكل منهم سند من فضل الرجل أو فضل ذاك المنافس الغائب عن العين الماثل في الخاطر ... وما اظنك ، لو كنت هناك ذلك اليوم ، الا انحزت الى هذا الفريق أو ذاك . ولكنك كنت على أى حال قمينا بأن تسمع نوعا آخر من الآراء ، فريدا فذا لو استطعت ان تقفو أثر هذا الشيخ الكبير ... انك لتراه سائرا هونا على الأرض ، رافع الراس رغم وقر الأعوام ، محدد البصر الى ما أمامه وان نضب من عينيه المعين وغاب لمع النور ، قد أصاب مسمعه لغط الجمهور فسار على هدى الأصوات . وان الناس ليلمحونه من بعيد مقبلا فتخطف فى عيونهم نظرات اكبار ... وانهم لينفرجون له اذ يقبل حتى تضمه الجموع .. فاذا أنصت له كما انصتوا سمعته يقول :

« فيم يا قوم هذا الضجيج ؟ »

فيجيبه بعض الناس :

« قد ولى ابنك الخلافة »

ويروح الشيخ عند هذا يهز راسه وهو يتلو فى هدوء بعض آى القرآن :

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء .. »

ويعاود الالتفات ، بوجهه ، الى محدثه يسأله ثانية :

« فلم ولوه ؟ »

« لسنه » ...

« فانا اسن منه ! »

ويمضى باسما من بين الناس وهو يمسح بكفه على لحيته البيضاء ...

١٠

لو أنصف الناس حق الانصاف لأرجأوا البيعة حتى يتم لهم مواراة جثمان الرسول . كان هذا أدنى الى التزامهم جانب التدبر واحسان التفكير قبل الاقدام على الاختيار . فلقد كان حريا ، حين طارت نفوسهم هلعا اذ سمعوا بوفاة محمد ، الا يملكوا ضبط الميزان . . والنفوس دائما — عند ما تدهم النازلات — لا تستطيع ان تلتزم الجادة ، بل تنحرف الى يمين أو الى يسار .

كان الأدنى الى الصواب ، ان لم يكن هو الصواب ، أن يتريث القوم من المهاجرين والأنصار لا يتنازعون سلطان محمد بينهم ومحمد ما زال مسجى على فراشه لم يغيبه عن عيونهم مثواه . . . فاذا تعجل الأنصار أمر البيعة ، وراحوا يهتبلون من هلع النفوس على نبيها فرصة للفوز بالسلطان ، فلقد وجب على أهل الحكمة من المهاجرين ان يردوهم عن هذه العجلة التى لم تكن تدعو اليها دواعى الحال . . . ان الاسلام كان حقا موشكا أن يجتاز محنة عصيبة أوقعته فيها قبائل المرتدين ، وأنصار الكذبة من المتنبئين وجموع الخالعين فرض الزكاة . ولكن هذا كله لم يقع فى لحظات ، ولا دفعة واحدة ، بل كان كقطع السحاب المتناثرة فى نواحى السماء ، تدفعها الريح من هنا ، وتسيرها من هناك حتى تجتمع فوق مكان ثم تبادره بالوابل الهطال . . . ولقد أخذت نتف الأحداث التى تألفت منها المحنة التى واجهها ابو بكر تجتمع الى بعضها فى ايام وفى أيام ، فلم يتناولها الرجل غب بيعته الأولى ، ولا غب بيعته الثانية بالعلاج لأنها لم تكن — بادىء الأمر — جديرة منه بأدنى التفات . بل بقى مكفوف اليد عنها ، ولو علم لها فى البدء خطرها الذى صار لها فيما بعد لادخر لها جيش أسامة ابن زيد ولم يسيره الى الشام .

كان اولى اذن بالانصار أن يتريثوا يوما وبعض اليوم حتى يوارى جثمان الرسول ، ويستريح فى مثواه . ولكنهم تعجلوا ، وكان المهاجرون — فيما يبدو — اميل الى القصد فى العجلة ، لولا ان نما

الى سمع عمر من أنباء السقيفة ما دفعه وصاحبيه الى بنى ساعدة ، يبادرون العجلة بمثلها ولا يأخذونها بالتريث والارجاء ... ولو استطاع فريقا الاسلام أن يصطنعوا الأناة لسمار الأمر فى اقوم سبيل ، لأنه كان سيلقى نفوسا ذهب عنها الروع ، وقلوبا نفضت الهول ، تقبل على تمحيص الآراء وعجم عود الأشخاص ، ثم تختار فلا يفوتها احسان الاختيار .

ولكنه كان قدرا مقدورا ليس يبدله حدس ولا افتراض ، واختير الرجل الذى لم تسبق اليه مشيئة الناس بقدر ما كان اختياره غرس الصدفة التى حركت باسمه لسان ابن الجراح على مسمع من ابن الخطاب ، وبقدر ما ساهم فى هذا الاختيار اختلاف حزبى الأنصار ، وبقدر ما هيأ الرزء الداهم نفوس القوم للرضا والاقرار ! .

وكذلك سكن الناس ، ولم يثر منهم ثائر ، ولم يجهر بالخلاف من لم تلق بيعة أبى بكر فى نفسه موضع قبول ، بل استوى فى البدء الراضى والمخالف والتزموا الهدوء لأن الأحزان لم تتح لهم فرصة للتفكير فى غير مثار الأحزان — او تركت ثم أبى عليهم الثورة انشغالهم بأمر الرسول . حتى العباس نفسه ، وهو من رأينا مدى حرصه على ابقاء سلطان ابن أخيه فى ذويه ، قر لا يطلع على الناس مناديا بنصرة أو محرضا على خلاف .

ولكن المشاعر المكبوتة تحت غطاء الأحزان لن تلبث أن تنطلق من عقالها بعد دفن محمد ، ويثوب الناس الى الماضى يتناولونه بالتحليل كما تملى ميولهم او تملى عليهم مقاييس الأوضاع والأشخاص . ثم تجمعوا فرقا فرقا ، واخذوا — كما وسعهم — يتحدثون بآرائهم ، خفية آونة وعلانية آونات ، لأن سلطان الخليفة لم يكن قد آن أن يثبت فى قرارة النفوس كل الثبات ...

وكان آل الرسول اثناء البيعة الثانية فى داره كما كانوا حين بيعة السقيفة . لا يأبهون ان مال عنهم القوم خاذلين او مالوا نحوهم ناصرين ، جمعهم جثمانه الكريم وشغلهم عن دنيا الناس بما فيها من غرض ومن سعى الى السطوة والجاه وامتلاك سيف السلطان . وليس من شك فى أن رجالا منهم عز على نفوسهم ان تسير الأمور بغير

مشورة منهم وعلى غير ما يشتهون . ولكنهم – رغم هذا – لم يملكوا الافصاح عما جاشت به صدورهم على ملأ من الناس ، لأن صاحب الأمر وقدوتهم في الميدان لو أرادوا تأليب الجماهير التزم جانب السكون في وقت كان يراه حقيقا منه بالهدوء والسكون .

ولكن ابا بكر لم يعرف القرار والسكون !.. كان صاحب سلطان طرى العود هش البنيان فكان لزاما عليه أن يصطنع له دعامات توطد اركانه . ولم يكن الشيخ قد نسى نبأ فضاء بنى بياضة وما جرى فيه من اجتماع خيرة المهاجرين على نقض بيعته لولا مبادرته بالبيعة الثانية الى افساد ما سبقوا اليه من تدبير . ولم يكن قد نسى أن عليا والعباس ومن لاذ بهما من آل محمد وصحبه الأقربين قد غابوا عن المسجد هذا الصباح حتى جرت الألسن تغض من شأن بيعة المسجد اذ لم تقرها هذه الصفوة المختارة من رجال الاسلام . وكان الشيخ يعلم أنه لا يأمن – ان دعاهم الى البيعة له – أن يعصوه أمام الناس . وكان يعلم انهم حريون بهذا العصيان وان رأوا أعناقهم تحت ذوائب السيوف . ثم كان يعلم ، فوق هذا وذاك ، أن رأيهم جميعا رهين برأى ابن أبى طالب ان شاء عصى وعصوا أو شاء رضى ورضوا وما لرضائه فى هذا المقام سبيل !...

وقلب الرجل الأمر على وجوهه مرات ومرات . انه اذن قمين الا يقر لحكمه قرار لو بقيت هذه الحال ، قمين أن يجتمع هذا الحزب المناوىء ، بعد اليوم ، بألف فضاء وفضاء ... قمين أن تخرج من يده كرها كما دخلتها كرها بيعة الأنصار !...

وجمع اليه صاحبيه يشاورهما ويتحدثون ...

قال له عمر :

« يا خليفة رسول الله الزمهم طاعتك . »

« فان أبوا ؟ »

« فقد شقوا عصا المسلمين فاركبهم بالجزاء » .

وقال أبو عبيدة اللين المداور :

« بل ابعث الى المغيرة فانه صاحب رأى ... »

وجاء المغيرة بن شعبة بالرأى الذى كان منذ القدم وسيلة الحاكمين الى قهر المحكومين ... تفكر الرجل هنيهة ثم قال :

« ما أرى الا تمزيق جماعة هذه الناس . »

« وكيف ؟ » .

« امض الى العباس فألق اليـه أنك جاعل الامرة نصيبـا له ولولده » .

« قد قلت ! »

« ثم لا يضيرك بعدها من على شيء أبدا . »

وعلى هذا الرأى مضى ابو بكر يتبعه عمر الى عم رسول الله . وبدأ الخليفة الحديث فقال :

« يا أبا الفضل .. ان الناس اختارونى عليهم واليا ، وما انفك يبلغنى عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ، يتخذكم لجأ . فاما دخلتم فيما دخل فيه الناس . أو صرفتموهم عما مالوا اليه . »

فقال شيخ بنى هاشم الداهية الأريب يرد على كلام الخليفة :

« يا أبا بكر ... انك طلبت ثم أخذت . فان كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت !... وان كنت بالمؤمنين فنحن منهم !... وان كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين فما وجب اذ كنا كارهين ! ... وما أبعد قولك ان الناس طعنوا عليك من قولك أنهم مالوا اليك !.. »

فتدخل عمر فى الحديث يحتد كالمعهود منه :

« انا لم نأتكم لحاجة اليكم ، ولكن كرهنا أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم فيتفاقم الخطب بكم وبهم . فانظـروا لأنفسكم وعامتهم . »

وخشى أبو بكر أن يغضب هذا الكلام العباس من حيث اراد ان يترضاه ، فأسرع يقول :

« يا أبا الفضل ... انك سيد هذا البيت . وقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك فى امرنا نصيبا ولمن بعدك من عقبك اذ كنت عم رسول الله ـ »

ولكن العباس لم يدعه يتم ، بل انبرى فى التو يخاطبه ، ويرد عرضه :

« انما تريد أن تعطيناه حقك ، أم حق المؤمنين ، أم حقنا ؟. يا أبا بكر ان يكن حقك فامسكه عليك ... وان يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه ... وان يكن حقنا لم نرض ببعضه دون بعض !... ولكنى أراكم خرجتم بسلطان محمد عن أهله ! »

« قد كان رسول الله منا ومنكم يا أبا الفضل »

فابتسم العباس ، واجاب وهو يهز كتفه بلا اكتراث :

« انى ما قلت الذى قلت أروم به صرفك عما دخلت فيه .. لا والله ، ولكن للحجة نصيبها من البيان !... يا أبا بكر ، ان يك رسول الله منا ومنكم فان رسول الله من شجرة ، نحن أغصانها ، وانتم جيرانها ! »

١١

اتم على جهاز الرسول بعد أن اتم غسله . ووضع الجثمان الطاهر على فراشه ، على شفة القبر فى الحجرة النبوية . ثم بدأ هو بالصلاة وخلفه الرجال من آله ، حتى اذا فرغوا ادخل النساء .

وخلى بعد هذا بين الحجرة وبين جموع المسلمين ، يدخلونها أرسالا ليتزودوا من محمد بنظرة الوداع الأخير ، وليسكبوا ما شاؤا من دموعهم حسرات على الرجل الذى اضاء للناس جوانب الحياة كما لم تضىء نجوم ولا شموس ، وغرس النور فى هذه القلوب والأرواح ثم تركه من بعده للأيام ذخرا يفيضون منه على بقية الأنام .

ودخل ابو بكر ، خافض الرأس مضطرب الخطو من أساه ، يترقرق الدمع بعينيه ثم ينطلق لا يغيض . واقترب من الجسد الطاهر الكريم فحياه وكان صوته — من بين غمرات الحزن — لا يكاد أن يبين ، ويكاد حلقه ان يشرق بالبكاء فلا يؤدى الكلمات . ولكنه اصطنع ، كما وسعه الاصطبار ، وتذرع بالجلد والاحتمال ، ثم راح يتكلم بصوته الخفيض الرقيق :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ... »

فردد بعده المسلمون ، وما فتئوا يرددون :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته »

« اللهم انا نشهد أن قد بلغ ما أنزل عليه ، ونصح لأمته ... »

« اللهم أنا نشهد . »

« وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله دينه ... »

« اللهم انا نشهد . »

« وتمت كلماته فآمن به وحده لا شريك له ... »
« اللهم انا نشهد . »
« فاجعلنا يا الهنا ممن اتبع القول الذى انزل معه ... »
« آمين »
« واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا فانه كان بالمؤمنين رءوفا رحيما .. »
« آمين ! ... »
« لا نبتغى بالايمان بدلا ... »
« لا نبتغى بالايمان بدلا ... »
« ولا نشترى به ثمنا أبدا ... يا رب العالمين . »

وانقضى النهار — بعد هذا — وبعض المساء ، يودع الرجال والنساء والأطفال نبيهم الكريم .. كلما خلت الدار من فوج منهم جاءها فوج ، حديثهم سلام ، وتحيتهم صلاة وقيام .

* * *

ولعل اقسى محنة اجتازتها نفس بشرية كانت تلك التى المت بعلى اذ وقف ، جوف ذلك الليل ، على حافة قبر الرسول بعد ان وسد الجثمان الكريم مرقده وخرج من القبر ليهيلوا التراب ... هذه لحظة لا تحسب بمقياس الزمان ، استحالت فيها الوحدة الزمنية الى طاقة شعورية من اللوعة الطاغية والحسرة الماتية ، كان القلب ساعتها الدقاقة ، وكانت خفقاته دقائقها وثوانيها التى تلكات فى المسير وسارت ، فى حساب الشعور ، الأجيال والدهور !... وقف على — وما نستطيع أن نقول انه كان سوى عين دامية تدمع استجابة لاحساس نفس ولهى وقلب تصدع — ثابت البصر على هذه الرقعة الصغيرة من الأرض التى اصبحت لمحمد وطاء وغطاء ... قد برح به الشجن لغياب هذا الثاوى البعيد القريب ، وبرح به ما يعرف من عسر اللقاء غب فراق لم يسبقه فراق ، وبين يلقى منه مثل ما تلقى الأم تشهد على حجرها مصرع وليد وحيد ، أنجبته بعد طول تلهف ثم ثكلته بعد حلول عقم !..

وقف على الى جوار القبر ، شاخص العين ، لا يطرف له هدب ،

ولا يهدأ له قلب ولا يثوب لب ، كالرائى وليس براء .. حتى تعود به الى انتباه أصوات المساحى تنطلق فى جوف الليل وهى تهيل التراب على المثوى ، كأنها تعلن عن دفن محمد ، وتخبر الناس أن شخصه الحبيب أصبح الآن من كيان الماضى ، عصيا على العيون والآذان ، حيا فى الخواطر والأذهان .. طواه القبر وان نشره الذكر ، ومضى جسما ليعيش اسما مع الأحقاب ، مسطورا على كل قلب .

هنا ثابت الى على نفسه هنيهة . ثم اكب على القبر بوجهه يرويه بماء عينيه . وازدخرت فى صدره لواعج حزنه وثكله ، فود لو استطاع أن ينفس عنها بلسان لم يخنه قبل لحظته هذه فى مقام . ولكن بيانه المستفيض نبا عنه فيضه ، ولم يخلف سوى كليمات قصار ندت عن شفتيه كمثل تردد انفاس الذى يعانى الاحتضار :

« ان الصبر لجميل ، الا عنك يا رسول الله . وان الجزع لقبيح ، الا عليك . وان المصاب بك لجليل . وانه قبلك وبعدك لجلل .. »

ثم قوم عوده وسار متمهلا من وقر الهم ، يتبعه آله .

***

الا من ذا يعلم كيف مرت عليه الليلة ؟.. وكيف اختلى فيها بفكره ؟ وكيف أصاب منها واصابت منه !. لو كان قد تمكن أن ينفرد بنفسه لهان وقعها نوعا . ولكنه لحق بداره ليلقى هناك فاطمة الحزينة قد استعادت ما كان ولى من أحزانها القديمة ... على أمها ، وعلى عمها ، وعلى أخواتها واخوتها الذين عانت من اجل فقدانهم ضعف ما كان حريا بغيرها أن يعانى . هذه الرقيقة البنيان الرقيقة القلب كانت تحزن دائما للمصاب حزنين ، مرة لقلبها الجريح وثانية لقلب ابيها اذ يصيبه كلم الحزن . وانها الآن لتحضرها صور شتى من أساها الماضى ، فلا تعرف أبها تزيد حزنا ام اللوعة على هذا الاب الحدوب الرحيم لم تترك بقلبها فراغا لغير الأسى عليه ؟.. الى كم يا ترى يحتمل الجلد وتتسع رقعة الصبر ، ولغير هذا الرزء النازل كان الجلد وكان الصبر ؟.. أفى العين من الدمع بقية ، وفى القلب ناحية لم يخضبها سلاح الهموم ؟.. هى جاثمة من الحجرة بركن ادنى الى قبر أبيها وان حال بينها وبينه جدار . ولكنها كانت أدنى الى هيئة جثمان

صامت منها بمن تسير فيه الحياة .. اوهى قوة واوهن بناء ، ساكنة من ذهول ، قد لون الشحوب وجهها وكساه .

تلك فاطمة كما لم يرها على مطلقا من قبل . كان يعلم انها ترق امام الحادثات كأنها تسيل . ولكنها الآن قد ذهبت بددا ، غادرها العزم وغادرتها القدرة على اصطناع الاحتمال ، حتى ليعلم ان جزعه على النبى بداية وجزعها فى ميقاس الأحزان هو الغاية التى لا تبلغ شأوها غاية ..

* * *

ثم رآها أخيرا تتحرك فى مكانها متمهلة من جهد ، تهم ان تنهض فتنوء ، ثم تنوء كلما همت مرة ومرات . وتستطيع ان تقف فيسرع اليها . ويتبعها صامتا اذ تسير ، وهو يأبى — ترفقا بها — ان يردها أو يعكر الصمت الذى التزمته وفرضه على كيانها هول ما تحسه . وانها لتمشى الى الباب فتنفذ منه ، فيعلم فيم خروجها هذه الساعة.. لم يعد لها بالبقاء بعيدا عن مثوى أبيها طاقة ، وقد فرقت بينها وبين هذا الحبيب الراحل فترة من الزمان جاوزت — فى حسبانها — آمادا . وخرج على خلفها الى القبر ، فاذا النهار قد انتشر ، والشمس يملأ ضوءها الفضاء ..

واقبلت هى على المثوى الطاهر تطوف به حيرى كأنها تلتمس فى جوانبه المنفذ الى محمد . وراحت أنفاسها تتردد كالهمس ، وقلبها يخفق فى صدرها كمثل طائر حبيس . اما عيناها فقد صنعت لهما من الدموع اهدابا .

واكبت بوجهها على القبر تمسح خديها على تربه ، وقبضت بكفيها على حفنتين من ثراه الرطيب فرفعتهما الى شفتيها وعينيها تقبل وتبلل . ولم يستطع زاء شهدها فى تلك الآونة ان يظل يشهد ، بل مال عنها ببصره رفقا بنفسه ان تذهب أسى ، وبقلبه ان يقضى حسرة ، ولكن الأصوات علت بالبكاء ، وملأت الزفرات المكان حتى اختلطت بهمساتها الخافتات التى راحت بها ترثى أباها . وبلغ الموقف الحد الذى يعز فيه الصبر وينوء به الجلد ، فتقدم زوجها نحوها ، مترفقا

بها ما استطاع ، حتى ألقت اليه القياد ، واهنة لا تكاد تقوى على المسير من اعياء .

وتلفتت ناحية القبر تشخص برهة قبل أن تغادر المكان . فما اسرع أن تبينت من قريب رجلا يهم أن يسعى الى المثوى الطاهر ، ناكس الرأس خافض النظرات . ولكنها عرفت فيه ذاك الذى وسد رسول الله مقره الأخير ، فوقفت برهة تتلبث به ، حتى اذا صار منها على مبعدة خطوات قليلات . هتفت به فى صوت راعش النبرات :

« أنس بن مالك ! »

فأسرع الرجل اليها ، مضطرب الخطو ، غامت على عينيه دموعه ، وهمس يجيب :

« لبيك يا بنت رسول الله ! »

فما زادت على أن تمالت له وهى تغادر المكان :

« كيف امكنك يا أنس قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟. »

وخلفت الحجرة غارقة فى الشئون والمدامع ..

١٢

آثر أبو بكر هذه المرة ان يقتحم على الأسد عرينه !.

لم يكد يطلع النهار حتى كان الشيخ قد أجال فى ذهنه احتمالات الأمر . ان العباس ، بلا ريب ، لن يخفى عن ابن أخيه من مساومة الأمس شيئا . وخليق بعلى بعد هذا أن يغضب لحقه ، ويغضب أكثر من هذا لاهمالهم المسير اليه ، ثم لعله بعدها يرتب قواه ويقدم على المناجزة والكفاح .

وكانت المدينة اذ ذاك قد بدأت تثوب الى نفسها ، وبدأ ينجاب عن الناس فيها ذهول الحزن فيقدرون ويصيبون بعد أن كانوا فى غمرة الأسى لا يقدرون ، وان قدروا أن يميلوا الى الاستسلام والاقرار ، وكان لغط الألسن حريا بأن يصل الى اسماع على ، وأسف الناس على ضياع حق الرسول يسرى حديثا هامسا فى المحافل . وليس عجيبا من بعد

أن يقدم من لم يقر بالبيعة على دعوة الآخرين الى نقضها ، والعمل على تنفيذ ما تم فى فضاء بنى بياضة من اتفاق ..

ولم يكن على من جانبه يعير الأمر التفاتا لأن حكم الناس كان ابغض الأمور الى قلبه الا أن يؤدى فيه حق الله . وكانت الخلافة فى ذاتها وسيلة يتوسل بها لغاية يرتجيها . وقد آمن دائما انها حقه ، وانه الأولى بها فى الناس . ولكنه آمن كذلك انها لا تكون الا عن مشيئة الناس ، فاذا هم خرجوا بالحق الى غير أهله فهذا خطأ منهم عليهم وزره ، حسابهم عنه عند الله .

لذلك نراه يرقب الأحداث من كثب ولا يدلى فيها بدلو ، بل يدع القوم الى عقولهم وضمائرهم غير محاول ان يردهم عن بغيهم عليه أو يدعوهم الى الانتصار له . وليست هذه حال طالب السلطان ، الساعى اليه ، بل هى أحرى بالزاهد فيه النائى عنه .

ولكن ابا بكر أتى عليه يوم وفاة النبى وهو من الناس كأحدهم ، لا يساوى فيهم الا مقدار ما يستوعب قلبه من الايمان .. ثم مر عليه اليوم فاذا هو منهم الحاكم صاحب الأمر والسلطان . قلب بصره فعرف موطىء قدميه فكان أولى به أن يحرص على الأرض من تحته أن تنهار !.

* * *

ما كان ابو بكر حقا بالذى استهواه حب التملك او التآمر على الناس . ولكن الأيام نصبته فى مقام فكان لزاما عليه أن يرعى حق هذا المقام . ولقد دفعته لهذا الحرص وحدة الامة ان تنشق ويذهب بريحها تناحر الأحزاب ، وقوة الدين الناشىء أن يميل الناس عن الجهاد فى سبيله الى الجهاد فى سبيل الأشخاص . وكان الرجل عالما تمام العلم انه قد بلغ بالبيعة الحد الذى يحسن بعده الاقدام وتسوء عقبى التردد والنكوص ، وهو حقا ليس بخير الناس — كما قال بلسانه ليكون منهم الأمير المسود . ولكنه كان أدنى الى اصابة جانب الخير فى الحكم لو انهم عملوا على المنهج الذى ارتسمه لنفسه حين خطبهم بالأمس فقال :

« أما بعد ، ايها الناس ، انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فاعينونى ، وان اسات فقومونى ... »

ولكنه اليوم لا يستطيع أن يترسم الخطا التى عاهد الله أن يسير وفق نهجها الواضح المعلوم . وهو ان يستطيع هذا بحال حتى يحرص على الأرض تحت قدميه أن تنهار !..

وهكذا نراه يعاود ما كان أخفق فيه بالأمس عساه يفىء برضاء على ومن بعده آل محمد وصحبه المخلصين ، ثم من بعدهم حشود مخالفيه من المسلمين ..

ذهب فدخل عليه داره وقد حف به صاحباه عمر وابن الجراح : وتوسل ما وسعه باللين ورقة الحديث . ولكن عليا ظل الثابت على حقه ، المستمسك به ، لا يسلم وان كان لم يتذرع بالعنف أو تأليب الناس للفوز بهذا الحق المسلوب .

وقال أبو بكر محاولا أن يصل الى اقناع غريمه باثارة الخوف فى قلبه على وحدة الاسلام :

« ابن عم رسول الله ، وختنه على ابنته ، يريد أن يشق عصا المسلمين ؟ »

فأسرع العباس يقول ، وكان حاضرا :

« ما أحد أولى بمقام رسول الله منه ! »

وقال على ، رابط الجأش ثابت الجنان :

« انا احق بهذا الأمر منكم ، فلا ابايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى .. »

« فهل كانت بيعتى عن غير رضا من الناس ؟ »

« ولكنكم زعمتم للأنصار انكم أولى بها منهم ، اذ كان محمد منكم ، فاعطوكم القادة . ولست احتج عليكم الا بمثل ما سلف لكم من الحجة على الأنصار . »

قال عمر :

« قد كان رسول الله منا ومنكم »

فالتفت على نحوه ، غاضبا . يقول :

« نحن أولى برسول الله حيا وميتا !.. يا عمر ، انا آله ، موضع سره ، ولجأ أمره . وعيبة علمه ، وموئل حكمه ... لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة احد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا !.. »

هنا عاود ابن الخطاب عنفه ، فاندفع يقول :

« انك اذن لست متروكا حتى تبايع »

فصاح به علی :

« أفتلزمنی البیعة یا بن الخطاب ! »

وقال ابو بکر بهدوئه المعروف :

« یا أبا الحسن ، ان الناس قد اختارونی علیهم . وانی احب لك ان تدخل فیما دخل فیه الناس ... »

وعقب عمر :

« یا خلیفة رسول الله ، لقد لزمته طاعتك اذ بایعك الناس ... »

فثار ثائر علی ، وهتف به یزأر ، وفی صوته رنة سخریة وتهکم :

« یا عمر !.. احلب حلبا لك شطره ، وشد له الیوم یرده علیك غدا ! ... »

ثم التفت الی ابی بکر یقول :

« اما والله لقد تقمصتها وانك لتعلم أن محلی منها محل القطب من الرحی ، ینحدر عنی السیل ولا یرقی الی الطیر !... »

وهم عمر أن یتکلم فأسرع ابو بکر یحول دون ذلك خشیة ان یصل الأمر الی ما لا تحمد عقباه . قال له :

« علی رسلك یا عمر ! »

ثم أقبل یتلطف بعلی ویقول ، وهو یسیر الی الباب :

« لا علیك یا أبا الحسن . فان لم تبایع فلا اکرهك . »

وخرج یتبعه صاحبه . وبقی أبو عبیدة لا یبرح عساه ان یبلغ من علی بلین کلامه ما لم یبلغه رفیقاه .

أجل فقد راح ابن الجراح یحاول أن یفوز للخلیفة بالبیعة من آل الرسول ، فیتحدث الیهم عن عروة الاسلام ، وعن وحدته ، وعن الرجل الذی شاءه الناس لهم والیا کیف اجتمعت له صفات تؤهله لما هو فیه من مقام . وکان علی جالسا ینصت وحوله اهله ، لا یتعجل لحظة الجواب علی هـــذا الداعیة الذی کانت له الید الطولی فی تنصیب ابی بکر قبل أن تخطر الخلافة فی بال ابی بکر !...

قال أبو عبیدة اخیرا بلفظ ناعم یحسب أن یستطیع به تالیف علی :

« یا ابن عم ... انك حدیث السن ، وهؤلاء مشیخة قومك لیس لك مثل تجربتهم بالأمور ... »

فرد علی وهو یبدی له الهدوء وقلة الاکتراث :

« اما السن فما ازعم لى بها على الرجل قدم ! »

« فهلا يا ابن عم بايعت ؟ ... انى أرى أبا بكر أقوى على الأمر منك »

فما أسرع ان القى على اليه جواب السؤال فى سؤال :

« أفأنتم خير أم رسول الله خير ؟ »

« بل رسول الله »

« لقد كان رسول الله بعث أسامة بن يزيد على جيش فيه مشيخة قومك هؤلاء ، لم يطعن فيه أنه صبى ! »

فلم يحر ابو عبيدة خطابا . ان شأن أسامة ليس يخاف عليه اذ أمره رسول الله على جيش الشام ، وأسلمه بيده الراية . وكان من بين جنوده ابو بكر وعمر وغيرهما من صحب محمد الأقربين اليه اعلاهم سنا ، فساء قوما منهم أن يتقدمهم فى القيادة غلام لما يبلغ عامه العشرين . ومشوا يجعلون من حداثته نقيصة يطعنون بها فى امرته ، حتى خرج اليهم الرسول قبيل موته يهتف بهم مغضبا ويقول :

« أيها الناس . انفذوا جيش أسامة . ان تطعنوا فى امارته فقد كنتم تطعنون فى أبيه من قبله ... وايم الله انه لمن أحب الناس الى بعده »

كان أبو عبيدة يعلم هذا . ويعلم أن حديث الرسول قد حد من ثورة الناس . ثم هو يعلم الآن انهم قد عادوا بعد وفاة محمد الى ماكانوا عليه لا يريدون الاقرار للغلام بالامرة عليهم ، ويودون لو انه استبدل بأمير شيخ ... لقد أخذ هذا العصيان يملك ناحية من فكر أبى بكر بعد أن آل اليه أمر الناس ومشى اليه الكثيرون يطلبون خلع الأمير الصغير . ولكن الذى يعلمه أبو عبيدة تمام العلم هو أن خليفة الرسول لم يقبل مطلقا أن يغير ما أقره الرسول ، لأن السن ليست مقياس القدرة على الأضطلاع بالأمور ...

كان أبو عبيدة يعلم هذا فعلم كيف عداه التوفيق اذ حاول ، أمام على ، ان يجعل للحداثة وتقدم العمر شأنا فى الخسران أو ترجيح الميزان ... ولكن لسانه كان قد كبا ولا يستطيع بعد هذا ان يملك ما ند عنه . فما له الآن — وقد جاء داعية — لا يحاول منحى آخر من الحديث لا يتكلف فيه سوق الحجة حتى يأمن أن ترتد الحجة عليه !؟ .

قال اخيرا ، وهو يضفى على حديثه رقة ، ويميل به الى التلطف والمداجاة :

« انى ، يا بن عم ، انما عنيت أنك حديث السن ، انك ان تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق ، وبه حقيق ، فى فضلك ، ودينك ، وعلمك وفهمك .. ونسبك .. وصهرك »

ولكن هذا الكلام اللين الرقيق أثار من نفس على ما لم يثرها من قبل ، فصاح به :

« الله الله يا معشر المهاجرين !.. تخرجون سلطان محمد فى العرب من داره الى دوركم وتدفعون أهله عن مقامه فى الناس ؟ ... اما والله لنحن — أهل البيت — أحق منكم بالأمر ، ما دام فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ... »

وتريث هنيهة ثم عاد يقول بلهجة المطمئن الواثق :

« وانه والله لفينا يا أبا عبيدة !. انه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله ، وتزدادوا من الحق بعدا ... »

وقطع بهذا الجواب على الرجل كل خطاب !

۱۳

كان أدنى الى اتساق الأمر لأبى بكر الا يمشى الى العباس .

وكان أدنى الى هذا الاتساق من بعد الا يطلب طاعة على بلسانه هو فضلا عن جفوة الخطاب على لسان ابن الخطاب .

ولكن الرجل شاور وعمل بالمشورة ، فدلت العاقبة على خطأ المشير وخطأ المستشير !.

كان على عازفا عن السلطان ما لم يأته حتى الباب ... وكان العباس آسفا على ذهاب السلطان ، ولكنه لم يملك طلبه لأن الأولى به فى الناس اعتزل الناس وقد ساءه أنهم عدلوا عنه ولم يقدموه .

اما وقد مشى الخليفة ، كمشورة المغيرة ، الى العباس يترضاه فقد مشى الى من لا تعدله الكثرة من الساسة الدهاة ، ولا تنفع فى

سلبه حق ذويه مداراة ولا مداجاة . وبحسبنا ان سمعناه يوجز فيفحم ، ثم لا يثبت أمام حججه القاطعة دليل ولا برهان .

فاذا نحن ضممنا الحجة فى كلامه الى الحجة فى كلام ابن أخيه ، فقد وضح كيف خسر أبو بكر حيث ظن النجاح ، لأنه دخل دار العباس ودار على وفى يقينه أن يعود منهما بالرضا والوفاق ، فما تركهما الا بعد أن أثار فى النفوس مكامن الخلاف والشقاق .

فالعباس الذى كان مستمسكا بالصمت على كره ، اقتداء منه بعلى ، ساءه أن يكون ابن أخيه هدفا للدس والوقيعة يمشى بهما خصومه بينه وبين عمه وذويه ... وعلي الصابر على الحيف ، المنطوى على نفسه ، الساكن الى ركن داره ، ملأه بالأسى والغضب أن يرى سالبيه حقه لا يقرون حتى يركبوه بالعنت والاعتساف ، وقد كان لهم فى سكونه وكفه عنهم مندوحة عما توسلوا به من قطعه آونة بالعنف. وكان هو قبل هذا لا يبتغى عن الصمت سبيلا ، ولا يروم — بعد بيعة أبى بكر — أن يتوسل الى استرداد حقه المغصوب بالقوة ، او بعنف الأسلوب . ولم يكن هذا لينا منه مال الى الضعف أو رفقا جنح الى التخاذل ، ولكنه كان منطق الرجل الذى يرى الأمور من خلال الواقع الملموس ، ولا يراها بعينى حالم نزاع الى الخيال .

جاءه أبو سفيان بن حرب ، ثانية ، بعد مجيئه يوم وفاة الرسول يعاود ما كان منه قبل ، ويعرض أن يبايعه بالخلافة . ولكن عليا يأبى ، ولا يقبل ، بل يقول :

« يا أبا حنظلة .. انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » .

وهو يعنى بهذا ما سوف تقود اليه خلافة رجلين فى آن من ثورة تتهدد كيان الاسلام .

ويهتف أبو سفيان ، مقاطعا محرضا :

« مهلا يا أبا الحسن !.. فأنت والله — » .

ولكنه لا يدعه وما يقول ، ويرده ردا حتى يذهب الشيخ شاكيا الى العباس . ويظن أبو سفيان أن تراث الرسول ، بعد رفض على ، قد صار لشيخ بنى هاشم ، او هو أولى بأن يصير اليه فيمد نحوه كفه ويقول :

« فامدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » .

« تبايعنى ؟ » .

« نعم ، وانك والله لها لأهل ، واحق بميراث ابن اخيك » .
فلا يخفى العباس بسمة تنطق بمرارة قلبه ، ويجيب :
« يا أبا سفيان ؛ أيدفعها علي ويطلبها العباس !.. »

* * *

ويجتمع الناس مرة الى هذا ومرة الى ذاك من قطبي آل هاشم ، يحرضونهما على استرداد هذا الحق المسلوب فلا يجدون لديهما سمعا. وتمتلىء المدينة بالحديث ، وما من رجل فيها غير زار عليهما ان تركا تراث النبي يخرج من بيته الى غير اهله ممن لم يبلغ شأوهما نسبا أو علو منزل ، ولكن عليا كان لا يأبه لهذا لأنه كان يعلم أن هذا النسب الحري برفعه على رقاب الناس هو الذي اتخذته قريش ذريعة الى خذلانه . لقد كرهت من بني هاشم أحقابا أن استطالوا عليها ، فقامت تنافسهم حتى ردها عنهم القصور . ثم كرهت فيهم أن تكون بينهم — من دونها — نبوة ، فحسدت صاحب الدعوة السماوية وقد أحنقها عليه أن جاءها بما لاتستطيع أن تباريه في ميدانه لو أرادت المباراة .. وهذه كلمات الحكم بن هشام — أبي جهل — ما زالت تفصح عما ملأ قلوب قريش من حقد لآل علي ولآل الرسول ، وانها لكلمات تتخذ شعارا للحسد عند أكثر الحساد حقدا !..

قال الرجل اذ سمع أن محمدا قام يدعو قومه لدين جديد :

« واللات هذا لن يكون !.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا .. حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء !. فمتى ندرك مثل هذه ؟.. واللات لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه !. » .

كان علي يعلم هذا من قريش ، ويعلم أن علو آله عليها هو سبب خذلانها اياه كما سعت من قبل الى خذلان محمد لولا ان قهرها على الالتفاف حوله . اما وقد اصبحت اليوم تستطيع ان تنصر وتستطيع أن تخذل ، فقد سارعت تمد اكفها الى شيخ بني تيم مؤيدة وتلوى رقابها عن الأولى منه ببسط الاكف واجتماع الآراء .

كرهت قريش اذن ان يذهب بشرف السلطان عليها رجل من الالى باءوا في العصور بمر حقدها عليهم . وابت أن تجمع لدار هاشم شرفين:

شرف النبوة وشرف الخلافة . ولو كانت استطاعت أن تخلع عن رقابها هذا الشرف الأول لما توانت كما سارعت الى الثانى تنفضه عنها .. بل هى حقا حاولت أن تتحرر منه .

وكأنها كانت تتلبث بالزمن الذى قهرها على أن تدين للاسلام كرها حتى جاءها النبأ بوفاة رسول الاسلام .. وما كان أعجب هذه النفوس التى بدت من قبل كأن قد ملأها الايمان ثم تكشفت اليوم عن أضغان هتكت ستر هذا الايمان ! لقد قامت تهم أن تخذل محمدا فى مماته بعد اذ أعياها أن تخذله ابان حياته . ونهضت تجيش شراذمها بمكة . داعية لخلع رداء الاسلام . وانتشرت الفتنة هناك . وقويت شوكتها حتى خشيها عتاب بن أسيد ، عامل رسول الله على البلدة الحرام ففر منها يتلمس النجاة . ولكن الله أبى الا ان يعز دينه ويعلى كلمته على القوم الضالين فضربهم ثانية على الاسلام كما ضربهم في حياة محمد ، عليه . فاذا سهيل بن عمرو — رجلهم يوم الحديبية — يقف بينهم ، بعد فرار عتاب ، محذرا متوعدا يقول :

« يا اهل مكة !.. كنتم آخر من أسلم فى الناس فلا تكونوا أول من ارتد من الناس . يا اهل مكة .. والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله . ومن رابنا ضربنا عنقه !.. »

فخشيت الرقاب ، وعاودت العقول الصواب !.

* * *

عرف على هذا كله فى قريش ، ونظره راى الواقع لا بعين الخيال فآثر ان ينطوى على نفسه ويقر في داره ، لا يدعو الى خلاف ولا تأييد . ولئن كنا شهدنا قوما من أصحابه يجتمعون فيدبرون ليستعيدوا حقه من يدى من ابتزوه ، فلقد ساقهم الى هذا صدق ولائهم لايمانهم بمقامه في الناس بعد مقام الرسول . ولقد سمع على ، وهو قائم على جهاز محمد ، بما تم من بيعة أبى بكر فى السقيفة فلم يترك ما هو فيه ، ولا أسرع يؤلب الأنصار أو يعتب عليهم .. ثم جاءته أنباء البيعة الثانية ثانى صباح فوقف منها موقفه الأول ، يكتب فى نفسه مرارة ما لقى من خذلان الناس ولا يرى الا أن يعتزل الناس .

ولكن أبا بكر - فيما يبدو - خشي منه هذا السكون والاعتزال فقام يسعى سعيه الى العباس عساه ان يقطع بين العم وبين ابن أخيه. ثم قام من بعدها يتوسل بلينه مرة ، وبعنف ابن الخطاب ثانية ، وبرقة أبي عبيدة أخرى لينتزع الرضا من علي عن بيعة يرى هذا فيها عدوانا على حقه أي عدوان ، فهل من رأى رجلا ينظر بعينيه الى حقه يضيع فيقر لسانه هذا التضييع ؟ كان لسان علي دائما ترجمان قلبه ، يجري أحاسيسه مجرى الكلام فليس بعجيب الا يخرج عن عهده في هذا المقام . وما أحسب نفسا بشرية لها قيمتها ، ولها قدرها على صاحبها ، تقبل - اذ تغضى عن الضيم - أن يردف منافسوها الضيم بالضيم ولا تنهض الى استنكاره ، ثم الى دفعه ، ثم الى استعداء من تستطيع على موقعيه ما وسعها دفع العادين واستعداء المناصرين ..

وكذلك غضب علي لحقه الهضيم ، وقد أغضبه التواء الأسلوب الذي تذرع به خصومه للنيل منه - وكفى بالوقيعة التي مشوا بها بينه وبين العباس أسلوبا ملتويا وسلاحا غادرا لم تدع الى سلهم اياه دواعي الحال . وكذلك خرج عما كان قد التزم نفسه من سكون وعزلة يلتمس النصرة في قوم غير قريش الشانئة له الحاقدة عليه فيمم ناحية الأنصار . وراح مع الليل يدور بهم والى جواره زوج أبت ان تدعه يستقبل الأمر وحده اذ كان امرها مرتين .. ان الزهراء لا تبرح دارها ولا تغادر مجثمها ذاك بجوار رسول الله لغير هدف يطفو بنفسها الولهى فوق لجة الأحزان وكان تراث أبيها ذلك الهدف ثم من بعده حق علي فيه .

لعبت فاطمة دورها وهي شديدة الايمان بأنه لزام عليها ان تفعل ، وأن تدعو ، وأن تكافح غير وانية . ووقفت الى جوار زوجها المظلوم تنضح عنه باللسان وليس لها عدة سواه .. فكأنها بفعلها قد ارتدت « خديجة أخرى » ، لا يقعدها خذلان القوم زوجها عن الكفاح ، بل راحت ترسم نفسها بلون الماضي لتبدو صورة بارزة الظلال والأضواء ، واضحة المعالم ، نابضة بالحياة ، عاشت فيها الأم في الفتاة .

ولكن الذين بايعوا أباها على الموت وناصروه لم يستطيعوا لها نصرا . صحا فيهم خلق العربي واستمساكه بكلمته وشدة وفائه بعهده .. ولم يخفوا عنها هذا ، بل كانوا يقولون ، خافضي الرءوس كاسفين :

« يا بنت رسول الله .. قد مضت بيعتنا للرجل »

وتجيبهم هى مستنكرة :

« أفتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره ؟ » .

فلا يجدون لهذا الاستنكار ردا سوى الأسف على ما سلف منهم ، والاعتذار عنه :

« يا بنت رسول الله .. لو أن زوجك سبق الينا قبل أبى بكر لما عدلنا به .. »

فيقول على :

« أفكنت أدع رسول الله فى بيته لم أدفنه ، ثم أخرج انازع الناس سلطانه ؟.. »

ولكنها حجة لا تغنى فى حساب السياسة النهازة العادية وان أغنت فى حساب الأخلاق القويمة الصافية .. وان فاطمة لتعبر عن هذا فى أوجز بيان فتجيب القوم وهى تنهض عنهم ، نافضة يدها من تأييدهم المأمول .

« ما صنع والله أبو الحسن الا ما كان ينبغى له .. وقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه ! »

١٤

أنف على بعد هذا أن يعاود الكلام فى شأن البيعة التى سبقه اليها شيخ بنى تيم أو يختلف فى أمرها الى الناس . وانطوى ثانية على نفسه في داره ، رفيقه فيها كتاب الله يعمل ما وسعه فى جمع شتاته أن يغيب عنه . وقد وجد فى القرآن خير مسلاة له عما هو فيه ، فأقبل عليه بكل ذهنه يجمعه ويضم آياته الكريمة واحدتها الىالأخرى .

ولكن بيته لم يزل الكعبة التى يؤمها الذين آثروا الانحياز اليه وأبوا أن تميل قلوبهم عنه الى أبى بكر ، فلم يخل يوما من الزبير أو أبىذر أو المقداد ومن تابعهم من صحابهم على الراى ، يجتمعون ثم ينفضون فلا يدفعه اجتماعهم الى الأمام خطوة ولا يرده انفضاضهم خطوة ، بل ظل مقيما على ما أخذ به نفسه من اعتزال الناس واعتزال الأمر كله

بعد ما أصبح لأبى بكر وبعد ما شاهد من حيرة النفوس بين حقه وبين ما سلف منها الى غريمه من الادلاء بالسلطان . ولقد كانت الأنباء تاتيه تترى من الخارج عما اخذ يفور بصدور الأنصار من الندم لانهم لم ينصروه فكان لا يحرك لها ساكنا ولا يلقى اليها بالا ، ولا يعنى بأن يتقصاها أو يعمل على اذكاء الندم لينقلب فتنة أو ينقلب ثورة يفيد من ورائها ما فاته . ولقد مشى اليه أناس يحاولون حمله على المطالبة بحقه المسلوب ويعرضون أن يؤازروه فى الدعوة اليه او فى نصره فما كانوا يصيبون منه تلبية النداء وان اصابوا حسن الاصغاء .. قدم خالد بن سعيد ، أمير رسول الله على اليمن ، الى المدينة فلقى عثمان ابن عفان ، وراح يعيره أن قعد وآله على الهضم ، . ثم انفلت عنه بعد قليل فدخل دار على وهو فيها جالس بين ذويه ، وراح يوجه اليهم جميعا الخطاب وان عنى بحديثه هذا الساكن المظلوم :

« يا بنى عبد مناف !.. طبتم نفسا عن أمركم يليه غيركم ؟ »

فما فعلت كلماته المثيرة فى نفس الشاب فعلها المنشود ، بل جاءه الرد من لدنه فى هدوء :

« يا خالد .. هذا أمرنا ابت قريش أن تؤتيناه »

« يا ويح قريش !.. وهل فى الناس احد اولى بمقام محمد منك؟ »

لا أحد والله !.. ولكنه الحسد والغل والضغن القديم !.. ولئن أبت قريش هذا على خير رجالها اليوم ، فلقد أبت مثله من قبل على سيد البشر وخير الناس أجمعين . ولكنها كانت موكولة برى الأحقاد والغليل من ذلك الغريم المظلوم ، الذى وترها آله من قديم بنباهة الذكر ورفعة المقام ، ووترها هو في الاسلام بحد الحسام !.. وما أصدق قولا فى هذا المعنى من الفضل ابن العباس ، حين طلع على القوم ذات يوم يقول على الملأ منهم ، مترجما بحروف بيانه عما خامر نياتهم واختلط منهم بدماء القلوب :

« يا معشر قريش .. يابنى تيم !.. انما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دونكم : ولو طلبنا هذا الأمر الذى نحن اهله لكانت كراهية الناس لنا أعظم من كراهيتهم لغيرنا ، حسدا منهم لنا وحقدا علينا !. »

***

تلك كانت مشاعر قريش قبل على وقبل آله فى ذلك الحين ، فلم يروا في خذلانه أو فى قعودهم عن نصرته ، وهم يستطيعون النصرة ، الا امرا وافق منهم هوى النفوس مع ما كانوا يعلمون من حقه ، وانه أولى بأن يتقــدم على كل ولى وكل أمير ، ولـكنهم حقدوا وغالوا ، وحسـدوا فاغتالوا .

وأمام هذه المشاعر المعادية كان الأنصار فى عسكر آخر .. اقبلوا على بعضهم وقد راحت غمرة الحزن على وفاة الرسول ثم راحت من بعدها غمرة النخوة التى تركتهم يستمسكون بما سلف من كلمتهم ببيعة ابى بكر ــ اقبلوا يتلاومون ، ولا يلقى الرجل منهم أخاه الا معاتبا ففيم كان اذن عدوانهم على صاحبهم سعد بن عبادة يوم السقيفة يسلبونه السلطان الذى كادت أن تتقبض أصابعه عليه ؟ ــ فيم كان وقد نقلوا به الامرة من قريب الى غريب ؟.. وفيم كان وقد اخرجوا به الحق من أهله ووضعوه فى غير أهله ؟. وفيم كان وقد أضاعوا الولاية من قرشى هو اولى الناس بتراث محمد ثم هو ادنى الناس قرابة من الأنصار ، اذ كان حفيد عبد المطلب صهر بنى النجار !..

ندم الأنصار اذن على ما سلف منهم حتى سال الأسف بنفوسهم كل مسيل . واخذ الندم يتجمع فى القلوب حتى امتلأت به ففاض يتلمس متنفسا له على الألسنة ومن بين الشفاه . وكانت قريش صاحبة الأحقاد فوقفت لعواطف القوم بالمرصاد ، لاتنى تحصى عليهم الحروف قبل الألفاظ ، وتعده خروجا عن طاعة السلطان أن يتحدث الناس بسجايا سواه . وبدا الحديث مديحا يقابله مديح وثناء أمام ثناء . ثم سار جدلا حال الى ملاحاة حتى ترددت كلمات السيف والقتال والقتل بين فريق الحاسدين البغاة . وكانت الأنباء لا تفتأ تأتى عليا بما يدور بين الحزبين فيزيد انطواء على نفسه . وكان الأنصار يودون لو انه طلع عليهم فاصابوا بظهوره بينهم قوة تؤلب حوله الرجال وتدفع بقضيته الى الأمام . ولكنه ظل ، كما اعتزم ، مؤثرا أن يبقى بعيدا عن المعترك خشية ان يفتتن به الناس وما يجىء فى أعقاب هذا الافتتان من انقسام الأمة فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الاسلام . ولم يغير من مسلكه أن جاءت جموعهم اليه ذات يوم تحيط بداره ، وتهتف باسمه داعية اليه ، منادية اياه أن يبرز لها تبايعه وتعيد له ما ضاع من حقه المسلوب .

فى هذه الآونة كانت الثمرة ناضجة أيما نضوج ، دانية القطاف لمن أراد ، حتى حسب الأكثرون ان امر ابى بكر لن يلبث ان يولى مع النهار ، وتهيأ الناس لما أوشك أن يصير . وامتلأت قلوب آمالا وقلوب أحقادا وموجدة حسبما كان كل فريق يميل . ومن عجب أن تكون قريش هى أكثر النافخين فى نار هذه الفتنة لانها — وقد نصبت نفسها قوامة على ألسنة الأنصار — أثارت فى نفوسهم طبيعة العناد والاصرار ...

واستبق ابو سفيان الى دار على وهو يحسب أن قد جاءت اخيرا اللحظة التى ارتجاها واوشك أن يتحقق حلمه فى أن يفوز احد آله الأقربين بالسلطان . وراح يكرر العرض الذى القاه امام ابن أبى طالب مرتين من قبل ، ويماود التحريض ...

قال شيخ بنى أمية وقد فرغ من الثناء وبقى عليه أن يقضى بما جاء فيه :

« أما والله لئن شئت لأملأنها على ابى فضيل خيلا ورجلا ، ولأسدنها عليه من أقطارها !... »

فابتسم له على وقال :

« يا أبا سفيان ... هذا ماء آجن ، ولقمة يغص بها آكلها » .

« ماء آجن !!. أتراث ابن عمك يا أبا الحسن تدعه نهبا ؟ »

« مجتنى الثمرة لغير وقت ايناعها كالزارع بغير ارضه » .

فراح الشيخ يوالى التحريض :

« يا عجبا ! . رضيتم يا بنى عبد مناف أن يغلبكم عليها اذل بيت فى قريش ؟ »

قال على بهدوء ما بنفسه :

« ما رضيت ، بل صبرت وفى العين قذى ، وفى الحلق شجا .. »

« اذن يتحدث الناس .. »

وفهم الشاب مارمى اليه شيخ بنى أمية من وراء كلماته هذه ، فتلهب وجهه غضبا وقال :

« ويح الناس !... ان اقل يقولوا حرص على الملك ، وان اسكت يقولوا جزع من الموت ؟ ... اما والله لابن ابى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه ! »

وصمت برهة حتى هدأت سورة غضبه ، ثم عاد يتم بصوت هادىء ، فى نبراته حزم وتوكيد :

« يا أبا حنظلة . انى سدلت دونها ثوبا ، وطويت عنها كشحا ، ورأيت أن الصبر على هذا احجى .. »

١٥

ما أشد ما نال عليا من عسف قريش !. انها لترى فيه « هاشما » وترى « عبد المطلب » وترى « محمدا » قبل أن يقهرها على اعتناق دين الله ، فتضم الى حسدها لابن ابى طالب حسدها لأولئك الأعلام أجمعين . حسدته علما مرفوعا على هام الناس ، اذا ذكر العلم ، وذكر الفضل ، وذكرت شجاعة القلب واللسان ، فأرادت له غير ما هيأته له مواهبه الفذة ونسبه العلى وشرفه العريض . وقامت تناوئه محاربة فيه البيت الهاشمى الكريم ، وتحتشد حول منافسه صفوفا حتى تم له الانتصار وباء بصفقة المغبون من كان أولى الناس بهذا الانتصار . ثم حسدته مخذولا بعد اعتزاله الأمر ، لانها ابت عليه أن تزأر العاصفة فيتجنبها لتمر بسلام وهى لا ترضى له بالسلام ... وانها لتأتلف الآن وتصطف جموعا محاولة ان تثير عليه النفوس حتى يظل ما عاش بعيدا عن عطف الناس .

وقف سهيل بن عمرو عقب مجيئه الى المدينة بعد فتنة مكة ، وقد هاله ما بدا من حب الانصار وندمهم على خروج تراث النبى من كف ابن عمه الى سواه . وقف يحف به اعيان قريش يخطب القوم ويقول :

« يا معشر قريش ... ان هؤلاء الناس قد دعوا الى انفسهم والى على بن ابى طالب ، وعلى فى بيته لو شاء لردهم ، الا فادعوهم الى صاحبكم والى تجديد بيعته ، فان اجابوكم ، والا فاقتلوهم !.. فوالله انى لارجو الله ان ينصركم عليهم كما نصرتم بهم »

افرأى هذا الشانىء القرشى خير أم كان الذى التزمه على هو الخير ؟.

ما احسب سهيلا كان جادا أو موفيا على الصواب وهو يعلم أن ظهور على أمام الناس كان كفيلا بأن يثير فيهم من الحماس لقضيته ما لا تحمد معه مغبة انتقاضهم وثورتهم على الخليفة ، مهما جاهد ابن ابى طالب فى تسكينهم وجاهد معه لهذا الفرض آلاف سواه ... ولكنها كانت « حكمة » قرشية قمينة بأن تغيب عن خاطر على وان سارعت الى خاطر سهيل وغيره من طغمة الحاسدين البغاة !..

ثم تلاه من بعد الحرث بن هشـــام ، احد بنى مخزوم آل ابى جهل يقول :

« أيها الناس ... ان يكن الأنصار قد تبوأوا الدار والايمان من قبل ، ونقلوا رسول الله الى دورهم من دورنا فآووا ونصروا ، فانهم قد لهجوا بأمر — ان ثبتوا علية فانهم قد خرجوا مما وسموا به . وليس بيننا وبينهم معاتبة الا السيف !... »

وقال عكرمة بن أبى جهل :

« لولا قول رسول الله ، الأئمة من قريش ، ما انكرنا امــرة الأنصار ... اعذروا القوم فان ابوا فاقتلوهم ! »

فهلا ذكر عكرمة انه قد فات أوان الحديث فى امرة الأنصار ، وانهم ما دعوا من بعد الا الى امرة قرشى هو من قريش امامها وامام بقية المسلمين ؟.. ولكن ابن ابى جهل — فيما يبدو — اراد ان يقابل « حكمة » سهيل « بشجاعة » لسان لا يستطيع ان يلهج باسم ابن أبى طالب فى مجال حساب أو عتاب !...

أولئــك كانوا دعاة التخذيل عن على ، والمناوأة عليه ، وهم من عرف الناس لهم دائما السبق الى حرب الحق وعداء محمد ؛ ومن عرف لآبائهم قبلهم امتلاء قلوبهم على بيت هاشم بالحقد والبغضاء . ولقد غضبت الأنصار وحميت نفوسهم حتى قام فيهم ثابت بن قيس يهدىء من سورتهم ويقول :

« يا معشر الأنصار . انما كان يكبر عليكم هــذا القول لو قاله أهل الدين من قريش ... »

وكفى بها كلمة أبلغ أثرا واصدق قولا من الف بيان وبيان !...

***

ولكن الجسد ، وان كان بلا نهاية ، فان طاقة الحلم تنفد عند غاية ... امعنت قريش في غيها ما شاءت ، وركنت الأنصار بالعنت وسلاطة اللسان ما وسعها أن تفعل ، ثم ظلت دائبة على هذه السياسة حتى لم يعد في طوق رجال المدينة ان يملكوا السنتهم منها . وانقلب الناس بهذه المعركة الكلامية الى عسكرين متناجزين ، كلاهما يدعو لرجله ويخذل عن الآخر ما استطاع التخذيل .

وكانت الأخبار لا تزال ترد بنماء شوكة المتنبئين ، والتفاف أجلاف الأعراب حواليهم هنا وهناك ، في أطراف الجزيرة ، ثم لايزال يزيد هذا الالتفاف حتى يتسع نطاق الرقاع التي تمسك بزمامها جحافل المرتدين . أما عاصمة الاسلام فقد غدت عورة مكشوفة لأعدائها هؤلاء ، ولسواهم من جموع مانعي الزكاة لو شاءوا لاقتحموها وهي عزلاء خاوية الوفاض من الرجال والسلاح بعد أن خرج أسامة بجند المسلمين قاصدا الى الشام .

في هذه الفترة العصيبة كانت وحدة الأمة الاسلامية هي غاية كل مسلم سليم البصيرة يحسن النظر في عواقب الأمور . كانت حلم أبي بكر الذي لا يفتأ يراوده في اليقظة وفي المنام ، ثم لا يبرح لحظة واحدة ذهنه المشغول بالتبعات الجسام .. وكانت رجاء عمر الذي أقامت منه الظروف مشيرا للخليفة ووزير صدق يحمل عن كاهله من العبء ما استطاع ... وكانت الأمنية التي لا يبخل على في سبيل تحقيقها بكل ثمن من أمانيه أو تراثه أو نظائر ما بذله من قبل من أجل الاسلام .

كانت الوحدة اذن شاغل عمر بن الخطاب فيما صدر عنه من سلوك ، عنف سلوكه أو وافق ما ترضاه النفوس من رقة ولين . وقد نظر الى الأحداث السياسية التي تلاحقت في هذا الوقت العصيب من هذه الزاوية ونسي أمام شاغله بقية الاعتبارات . وكان الرجل محقا في نظرته حتى الغاية ؛ مخلصا لهدفه تمام الاخلاص .

وكانت نظرة علي — هو الآخر — الى الامور لا تخالف نظرة ابن الخطاب ولا تتجه الى مرمى سوى مرماه ، فلم يتوان المرة بعد المرة عن اباء أخذ البيعة لنفسه من الناس اذ علم انها حرية بأن تشق صفوف المسلمين وتتركهم حزبين يتلاحيان ويختصمان فيخرجون

جميعا عن الاعتصام لرفع شأن الاسلام ، الى الخلاف والكفاح من اجل هذا او ذاك .

ولكن أول الرجلين راى وغضب فحاد به غضبه العنيف عن التزام الطريق المثلى للوصول الى ما اراده من صواب . وغضب الثانى فكبح جماح نفسه ، وطوى حقه الشخصى وهدفه السياسى من اجل الهدف الأعلى وهو اقرار الخير العام .

رأى عمر — فى البدء — كيف ظهر الخلاف بين المسلمين اول ظهوره فى سقيفة بنى ساعدة بحى الأنصار والقوم هناك يدعون الى ابن عبادة دون صحب الرسول ... ثم يدعون — وقد ابى هو عليهم مطلبهم وأبى صاحباه — بأمير منهم وامير من المهاجرين . فلما شاءت الظروف ان يختلف الأنصار فيما بينهم ، وتم لأبى بكر الأمر بهذا الخلاف ، لم تزايل عمر الخشية على وحدة الاسلام ، فكان ان قام يهم بقتل الرجل الذى أجمع عليه من قليل راى الأنصار ، لأنه رأى فى حياته عودا للفتنة وعودا بعدها الى الانقسام .

ثم رأى من بعده ، أن اولئك الذين ناصروا سعدا ، ثم عادوا فخذلوه ، قاموا ثانية الى رجل خذلوه يحاولون ان ينصروه ... واجتمعت جموعهم — آونة فى الخفاء واخرى على ملأ — يدعون الى ابن أبى طالب لأنهم رأوه أولى الناس بأن يلى امور الناس ، ثم تألبوا حول داره يهتفون باسمه ويدعونه أن يخرج اليهم ليردوا عليه تراثه المسلوب ... فاذا بالمسلمين أمام هذا الحدث مخالف او نصير . واذا بالمدينة حزبان ، واذا بالوحدة المرجوة شقان اوشكا على انفصال ، ثم لا يعرف غير الله ما سوف تؤول اليه بعد هذه الحال .. فهلا كان على — كابن عبادة — حريا فى نظر ابن الخطاب بالقتل حتى لا تكون فتنة ولا يكون انقسام ؟.

كان هذا أولى بعنف عمر الى جانب غيرته على وحدة الاسلام . وبه تحدث الناس ولهجت الألسن كاشفة عن خلجات خواطر جرت فيها الظنون مجرى اليقين ، فما كان لرجل ان يجزم او يعلم سريرة ابن الخطاب ، ولكنهم جميعا ساروا وراء الخيال ، ولهم سند مما عرف عن الرجل دائما من عنف ومن دفعات . ولعل فيهم من سبق بذهنه الحوادث على متن الاستقراء فراى بعين الخيال ، قبل راى العيون ، ثبات على أمام وعيد عمر لو تقدم هذا منه يطلب رضاءه

واقراره لابى بكر بحقه فى الخلافة ، ولعله تمادى قليلا فى تصور نتائج هذا الموقف وتخيل عقباه فماد بنتيجة لازمة لا معدى عنها ، هى خروج عمر عن الجادة ، وأخذه هذا « المخالف » العنيد بالعنف والشدة !.

وكذلك سبقت الشائعات خطوات ابن الخطاب ذلك النهار ، وهو يسير فى جمع من صحبه ومعاونيه الى دار فاطمة ، وفى باله ان يحمل ابن عم رسول الله — ان طوعا وان كرها — على اقرار ما أباه حتى الآن . وتحدث اناس بأن السيف سيكون وحده متن الطاعة !.. وتحدث آخرون بأن السيف سوف يلقى السيف !.. ثم تحدث غير هؤلاء وهؤلاء بأن « النار » هى الوسيلة المثلى الى حفظ الوحدة والى « الرضا » والاقرار !.. وهل على ألسنة الناس عقال يمنعها ان تروى قصة حطب أمر به ابن الخطاب فأحاط بدار فاطمة ، وفيها على وصحبه ، ليكون عدة الاقناع أو عدة الايقاع ؟...

على ان هذه الأحاديث جميعها ومعها الخطط المدبرة او المرتجلة كانت كمثل الزبد ، أسرع الى ذهاب ومعها دفعة ابن الخطاب !.. أقبل الرجل ، محنقا مندلع الثورة ، على دار على وقد ظاهره معاونوه ومن جاء بهم فاقتحموها أو أوشكوا على اقتحام . فاذا وجه كوجه رسول الله يبدو بالباب — حائلا من حزن ، على قسماته خطوط آلام وفى عينيه لمعات دمع ، وفوق جبينه عبسة غضب فائر وحنق ثائر ...

وتوقف عمر من خشية وراحت دفعته شعاعا . وتوقف خلفه — أمام الباب — صحبه الذين جاء بهم ، اذ رأوا حيالهم صورة الرسول تطالعهم من خلال وجه حبيبته الزهراء . وغضوا الأبصار ، من خزى أو من استحياء : ثم ولت عنهم عزمات القلوب وهم يشهدون فاطمة تتحرك كالخيال ، وئيدا وئيدا ، بخطوات المحزونة الثكلى ، فتقترب من ناحية قبر أبيها .. وشخصت منهم الأنظار وأرهفت الأسماع اليها ، وهى ترفع صوتها الرقيق الحزين النبرات تهتف بمحمد الثاوى بقربها تناديه باكية مرير البكاء :

« يا أبت رسول الله .. يا أبت رسول الله !.. »

فكأنما زلزلت الارض تحت هذا الجمع الباغى ، من رهبة النداء .

وراحت الزهراء ، وهى تستقبل المثوى الطاهر ، تستنجد بهذا الغائب الحاضر :

« يا أبت رسول الله .. ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب ، وابن أبى قحافة !؟ » .

فما تركت كلماتها الا قلوبا صدعها الحزن ، وعيونا جرت دمعا ، ورجالا ودوا لو استطاعوا أن يشقوا مواطىء اقدامهم ، ليذهبوا فى طوايا الثرى مغيبين .

١٦

بكى أبو بكر حين أتته قصة شكوى الزهراء . وبكى عمر وقت الحادث ثم عاد ثانية الى البكاء وهو يرى ما كان . وكانت في الرجل رقة خافية وراء غلظته البادية . فثاب الى الدمع عساه يفيء على نفسه بعض الراحة بعد اذ صعدت الشكوى منه الى اسماع الرسول .

واقبل على صاحبه يتوسل ويقول :

« يا خليفة رسول الله .. انطلق بنا الى حبيبة رسول الله نترضاها ، فانا قد اغضبناها .. »

فأجابه أبو بكر لتوه :

« انى منطلق .. »

لقد لقيت هذه الدعوة مكانها من قلب الخليفة اذ كان يحن الى لقاء فاطمة ، والى رؤيتها ، والى رضاء هذه السيدة التى لم يحب رسول الله مثلها انسانا ولم يحبه مثلها انسان . وهو الى هذه الرغبة التى ما فتئت تراوده على هذا اللقاء كان يدفعه ــ غير استرضائها عما سلف من صاحبه ــ أمله فى أن يمحو ما لعله علق بنفسها يوم أبى عليها ان يكون لها نصيب في أرض فدك ، التى مات عنها الرسول ، وكان يدفعه أيضا حبه ان يلقى عليا ، بعد هذه القطيعة ــ التى فرضتها ظروف الحال ــ ولم تفرضها موجدة أو ضغن قديم .

أجل ، قد كان ابو بكر حنانا الى لقاء الرجل الذى خالفه في الراى ونازعه مقاليد السلطان ، وان لم يتوسل مطلقا فى نزاعه بغرية او وقيعة

او سقطة لسان ، بل ظل ابدا عفا لا يلج فى الخصومة ، نبيلا لا يتذرع بكيد ، صافي القلب يتحرج ان تند منه الكلمة نابية تخدش شعور خصمه . بل عسى أن يكون على هو الأول والآخير بين الناس الذى أبى على انصاره ان يتحدثوا عن غريمهم بما يسيء اليه ويجرح كرامته ويحط من قدره ، حتى لقد انكر على ابنه — قبل كل الناس — أن يجبه ابا بكر على الملأ بكلمة حق افلتتها شفتاه ، ثم لم يكفه أن يبدى الاستنكار بل قفاه بالاعتذار — لم يقعده عنه أن الحسن كان اذ ذاك صبيا لا يجيد الخصام وان اجاد الكلام !.

حدث هذا ذات يوم قريب ، وقد قف ابو بكر على منبر المسجد يخطب الناس ، فبينما الجميع قد القوا اليه الأسماع ، وسكنت حركة المكان حتى ليسمع فيه تردد الأنفاس ، اذا صوت رفيع حاد يأتى من طرف المسجد صائحا بالخطيب :

« انزل .. انزل عن منبر أبى !.. »

فوقفت الكلمات بحلق ابى بكر ، وبهت الناس ، وتطلعت أبصارهم الى ناحية الصوت مشدوهين .

ولكن ابا بكر لم يلبث حتى استرد خاطره ، وسكن جأشه ، ولعبت بسمة هادئة على شفتيه وهو يلتفت الى هذا الصائح الصغير : الحسن سبط الرسول ، ويقول له فى حنو ورفق :

« ابن بنت رسول الله ؟. صدقت والله . وانه لمنبر ابيك لا منبر أبى »

ووصل الخبر الى على فاسف وانكره على ابنه اشد الانكار ، ثم لم يهدأ باله وتطب نفسه حتى بعث رسولا من لدنه الى ابى بكر يقول :

« اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث .. ولم نأمره »

فكان جواب الخليفة :

« انى أعلم ، وما اتهمت أبا الحسن »

* * *

كان ابو بكر حنانا الى لقاء على ، والى لقاء فاطمة حنينه الى رضائها ، فما أبدى عمر له رغبته حتى صادفت لديه القبول .

وانطلقا . واستأذنا على فاطمة فابت ، ثم استأذنا فابت . فما كان اعجب من سيرهما الى على فى الاستئذان لهما عليها الا رضاه أن

يمنحهما من لدنه الاذن ، فيدخل بهما ويقبل على زوجه يرجوها ان تحدثهما كأنه كان وليا لهما ولم يكن الخصم الغريم .

ودخلا . وقرآها السلام فلم تجب . وتقدما فقعدا امامها فولت وجهها عنهما الى الحائط . وراحا يلحفان في الرجاء أن تسمع لهما أو يظلا لا يبرحان ما أبت عليهما الانصات او الاذن بالكلام .

وقال لها ابو بكر ، أخيرا ، وقد اذنت له :

« يا حبيبة رسول الله .. والله ان قرابة رسول الله احب الى من قرابتى ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده .. أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟. الا انى سمعت رسول الله يقول :

« لا نورث ما تركناه فهو صدقة » .

ما احسب ان ميراث فدك كان كفيلا بأن يشير الى هذا الحد غضبها على أبى بكر ، بل هى أولى أن تعلم هذا الحديث عن ابيها . واولى أن تنهج نهجه وقد عاشت معه مطبوعة بطباعه ، ناسجة على منواله في العزوف عن عرض الدنيا ونشب الحياة . ولكنها كانت سارت الى الخليفة فى أمر فدك لان رسول الله — كما اعلمتها أم سلمة — قد اوصى لها بهذه الأرض نحلة . فلما رأت أبا بكر لا يعلم بهذه الوصية ، ثم يأبى أن يترك لها فدك وان شهدت أم سلمة ، ما دامت الشهادة فى الاسلام لا تصح الا اذا اداها رجلان او رجل وامرأتان .. لما راته يأبى عليها هذا الميراث ، ويبدو كالمتشكك فى شهادة سيدة قمين بأبى بكر أن يسمو بها عن التشكك ، نفضت فاطمة يدها من الأمر ولم تراجع الخليفة فيه . ولئن ظنها هو واجدة عليه من أجل هذا العرض الضئيل ، فقد جاء ردها عليه لا يشير الى الميراث من قريب ولا من بعيد ، لان حب المال — كما احسب — لم يكن أدنى الى طبعها ، والى خلقها ، سيما وهى تعلم عن أبيها انها لن تمكث فى هذه الحياة الدنيا بعده الا اقل القليل .

قالت تخاطبه وهى تشرك عمر فى الخطاب :

« أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله ، تعرفانه وتعملان به؟»

أجابها وصاحبه :

« نعم .. »

« نشدتكما الله .. الم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من

رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد احبنى ، ومن ارضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن اسخط فاطمة فقد اسخطنى ؟ »

« قد سمعناه من رسول الله » .

فرفعت وجهها وكفيها الى السماء ، وراحت تقول فى حرارة :

« فانى أشهد الله وملائكته انكما اسخطتمانى وما أرضيتمانى .. ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه !.. »

فما كان أشدها كلمات أخف من وقعها ضربات السيف !.. مادت الأرض تحتهما ، ودارت كالرحى حتى سارا من هول ما لقيا يترنحان. وغادرا الدار وقد خيا املهما فى رضا زهراء الرسول ، وعلما مدى الغضب الذى أثاراه عليهما فى قلبها ومدى السخط الذى باءا به .. أما عمر فقد عاوده ثانية ندمه على ما فرط منه في حقها فثاب الى الدمع يلوذ به عساه ان يلهمه الراحة .. واما أبو بكر فقد احس كأنما الدنيا ضاقت عليه حتى لا يرى له فيها مقاما ، وكره ، بعد ذلك الموقف ، أن يصيب من الحياة أو تصيب منه . وبحسبه أن يستطيع الانطواء على نفسه في داره يعالج همه بعد اذ أبت عليه فاطمة رضاءها الذى كان نفحة عاطرة من رضاء محمد رسول الله . ولكن أمانة الحكم فى عنقه ، ولن يخلص بنفسه الى ما يريده من عزلة حتى يسلم الناس أماناتهم ويرد عليهم بيعتهم التى أدلوا بها اليه .. كان هذا أمله ، فأسرع الى الناس مهموما يطلب اليهم أن يقيلوه ويرجوهم اشد رجاء .

* * *

غير أن الأحداث عادت ثانية تلعب دورها كما لعبته من قبل .. أن جيوش مانعى الزكاة قد أصبحت اليوم على قيد البصر تحاصر المدينة ، وتتربص بها ، وعاصمة الاسلام قد غدت عورة مكشوفة أمام الأعداء ليس يحميها منهم عتاد ولا رجال الا القليل الذى ليس فيه غناء فى ذلك الوقت الذى كانت فيه جنود المسلمين بامرة اسامة ما زالت غائبة على حدود الشام .

وتدبر المسلمون الأمر ، وتفكروا فيما يطلبه منهم الخليفة فى هذه اللحظة العصيبة فما رأوا أمامهم من الوقت فسحة تتسع لاقالة تتبعها

يبعة مع ما يتصل بهذه وتلك من خلاف قد تسوء معه العقبى ويتحين فيه العدو سانحته التى تلبث ينتظرها منذ حين ..

لذلك ابى المسلمون ، او ابى اكابر من بايعوه ، ان يجيبوا الخليفة الى ما يطلب ، وأبوا ان يقيلوه ، وزاد المسلمون فى هذه الآونة الحرجة حول أبى بكر التفافا رغبة منهم فى حفظ كيان الاسلام ، ولقد كان على أسرع الناس الى نصرة الرجل فى هذه المحنة ، لأنه راى فى الانتظار له ابقاء على دين الله وابقاء على الأمة المحمدية الناشئة التى كانت قد بدأت أولى خطواتها الى المجد ، وتقدم عاريا من الخصومة ، خاليا من الخلاف يعرض على الشيخ نفسه وسيفه يستعملهما فى كشف الغمة الوشيكة الوقوع كيف يشاء .

تلك شيمة ليس يتصف بها الكثير من الرجال ، ولكنها شيمة نفس نقية من الشوائب وقلب ناصع ، شيمة مثلى لرجل امثل ، اذ كان ابن أبى طالب خلال فترات حياته جميعا معنيا دائما بالتماس الكمال ، وأخذ نفسه باحتذائه ، وان قام بناء هذا الكمال على انقاض غاياته الشخصية وأهدافه السياسية . ولئن خالف من قبل ابا بكر ، وقام ينازعه السلطان فلغير صولة الحكم كان الخلاف ، ولكن لأنه كان مؤمنا أشد الايمان أنه أقوى من خصمه هذا ومن غيره من الناس على اعزاز شأن الاسلام .

١٧

« يا ابن العاص ، انك لسان قريش ورجلها في الجاهلية وفى الاسلام .. »

« فما تريدون ؟ »

« ارأيت الى الانصار كيف تفضلوا علينا ؟ »

« قد فعلوا . »

« فقم اليهم فلا تدعهم وما قالوا .. »

كان عجبا ان يدور مثل هذا الحديث بين بعض قريش بعد سكون الفتنة ونوم نوازى الشر .. ولكن دعاة قريش كانوا اناسا فيهم عصبية،

وفيهم حمية الجاهلية ، وليس يرضيهم ان يفاخرهم غيرهم ولو بالحق !.

ولذلك انطلق عمرو الى مسجد المدينة يتناول بلسانه ما كان من الأنصار اذ ارادوا ان ينصروا عليا بعد خذلان ، فيفيض في نقدهم ويمعن .

قال وهو قائم يخطب الناس :

« والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عظيمة ولما دفع عنهم أعظم .. كادوا أن يحلوا حبل الاسلام كما قاتلوا عليه ، ويخرجوا منه كما ادخلوا فيه » ..

ثم لا يلبث أن يتطرق به الحديث الى ما كان منهم يوم السقيفة ، وان عفى الزمن على آثار ما كان !.. ولكنه الحديث الذى يستطيع من خلاله أن يضع فخر الأنصار ويرفع هام قومه مفاخرا ما استطاع ..

« لئن كانوا سمعوا قول رسول الله : « الأئمة من قريش » ثم ادعوها فقد هلكوا وأهلكوا . وان كانوا لم يسمعوا فما هم كالمهاجرين، ولا سعد كأبى بكر ، ولا المدينة كمكة ... »

ويزدهيه الفخر ، بعد هذا ، فيرفع الصوت معتزا ويقول :

« الا انهم قاتلونا أمس فغلبونا على البدء ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة !.. »

فماذا كان يريد الا أن يستعلى بحديثه هذا على الناس ؟ وماذا وراء هذا الاستعلاء — بعد أن سكن ثائر الأنصار — الا اثارة حفيظة القوم وبعث الفتنة من مرقدها فى وقت أولى بالجميع فيه أن يغلقوا الأفواه ويصطفوا على وفاق ؟..

ولكن عمرو بن العاص قبل كل اعتبار من قريش التى غلبها الأنصار — في البدء كما قال — وقهروها على اعتناق دين الله . ولعل الرجل ، اذ قال ما قال ، قد عنى أن يقتص لقومه كيفما كانت ذريعته الى القصاص ؟ ومع ذلك فان لسانه لاقى فى هذا الميدان لسانا أقول ، كما لاقى ذهنه ذهنا انقى وأشد بديهة . فلم تكد كلماته تشيع بين الناس حتى انفرجت صفوفهم عن رجل قصير احمر ، لا يكاد أن يملأ العين منظره ، وان لم يغب خطره عن الرائين .. انفرجت الصفوف عن شاعر الأنصار النعمان بن العجلان يتقدم الى « لسان » قريش فى هدوء ويقول :

« يا بن العاص .. دع العاقبة ودع البدء ، فما كان الله ليخرجكم من الاسلام بمن أدخلكم فيه !.. »

وكان الفضل بن العباس قد ألم بالمكان وسمع ، فسارع مغضبا يقول لعمرو :

« يا عمرو !.. انه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك ، وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة الا ان يأمرنا .. »

وذهب بالخبر الى ابن عمه عساه أن يحسم ما كان من نزاع بعد أن كادت النفوس أن تسكن عن النزاع .. اما ابن العاص فقد خشى اللقاء فأسرع يختفى من بين الناس . وأما على فما القىاليه بنبأ ما كان حتى غضب وقال :

« ويح ابن العاص !.. آذى الله وآذى رسوله .. »

ثم انطلق من توه الى المسجد فدعا اليه الناس حتى اجتمعوا ، وقام فيهم يقول :

« يا معشر قريش . ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق . ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق .. ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق ! ولقد قضوا ما عليهم وبقى ما عليكم » .

وأصغى اليه القوم . وهو يهيب بهم ويسترسل :

« يا معشر قريش .. انالله رغب لنبيكم عن مكة فنقله الىالمدينة. وكره له قريشا فنقله الى الأنصار .. يا معشر قريش ، انا قدمنا على الأنصار دارهم فقاسمونا الأموال ، وكفونا العمل ، حاربنا الناس بهم ، وانتصرنا ببذل غنيهم وايثار فقيرهم .. يا معشر قريش . اذكروا أن الله تعالى انزل آية من القرآن جمع فيها للأنصار خمس نعم اذ قال: « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » .

وتريث قليلا يجول ببصره فى الناس عساه أن يقع على من كاد أن يعيد الفتنة ثانية الى الحياة ، ثم راح يقول :

« الا أيها الناس أن عمرو بن العاص قام مقاما آذى فيه الميت والحى ، ساء به الواتر وسر الموتور ، فاستحق من الحاضر الجواب ، ومن الغائب المقت ، فمن أحب الله ورسوله أحب الأنصار .. وليكفف عنا ابن العاص نفسه .. »

فكان لهذا الخطاب من بعد أبلغ الأثر فى قلوب الجميع ، اذ أرضى الأنصار وافاء على أرواحهم السكينة وحفز قريشا على تجنب اغضاب أبى الحسن ، فمشت الى عمرو بن العاص تقول :

« أما وقد غضب على فحسبك واكفف ! »

وكانت هذه خاتمة النزاع بين فريقى الاسلام ونهاية التراشق بالألفاظ الذى كاد يؤدى الى تحكيم الحسام . وفرغ المسلمون الى تسطير مجد الدولة الناشئة فى سجل التاريخ . وراحوا يبداون بخضد شجرة المرتدين ويقصفونها شوكة بعد شوكة ، وبقى على - بعد أن ذاد عن المدينة جموع مانعى الزكاة هو ومن عينهم ابو بكر لهذا الأمر - منطويا على نفسه ، لأن الخليفة ضن به على الحروب كما ضن به قبله رسول الله ، فعاد يشغل نفسه بجمع القرآن .

* * *

وكأنما أبت الأيام أن تسالم الرجل الذى طالت اساءتها اليه أو تهادنه . فما لبث فى عزلته تلك الا قليلا حتى فدحته بأعتى مصاب بعد رزئه في الرسول . وانه لتحضره اليوم ، وهو قائم على فراش زوجه التى برحت بها آلام المرض ، ما كان من نبوءة محمد لها فلا يملك الا ان يتملكه الأسى وينشب الحزن بقلبه اذ يرى الفجيعة المخوفة باتت على مبعدة ساعات . لقد حان أخيرا موعد اللقاء بين الأب الحبيب وزهرائه في دار سوى الدار وهذه فاطمة ، وهى لا تقوى على تقليب جنبيها من وهن واعياء ، تجاهد حتى تستطيع أن ترسم بسمة خافتة اللون على شفتيها الذابلتين . فاذا سارع اليها زوجها ، مدت كفها الناحلة فلمست بها منكبه . وهمست له :

« صدق رسول الله ! »

فلا ينطق ، لأنه لا يأمن ان تند من فمه انة حزن مع الكلام . ولكنه يفهم ما تعنى . وتحضره الصورة القديمة - كما ذكرتها هى له - يوم عادت رسول الله فى بيت عائشة ذات يوم فحدثها بما أبكاها ثم حدثها بما أضحكها فكأن هذا كان بالأمس لا من شهور .

ويطلق على بصرا غائما الى الفراش . ثم الى جانبيه حيث وقف الحسن ووقف الحسين ، صامتين أمام رهبة ما يريان ، قد جمدت

فى مآقيهما الأدمع رفقا بأمهما أن يؤذيها البكاء . وتنتقل النظرة الى زينب الصغيرة .. الطفلة التى لم تنهل تماما من حنان الأم ، لأن الأيام لم توسع لها ولم تترفق بحداثتها . وان قلبها الصغير ليشعر بفداحة المصير فتجثو على الفراش الى جوار فاطمة تتاملها برهة فيعييها أن تحتفظ بالسكون ، وتنطلق عبراتها فترتمى كعادتها على صدر والدتها كما تفعل كلما حزبها امر من امور عالمها المحدود ، وتدفن وجهها فى الصدر الحنون ثم تذهب فى نشيج مكتوم ..

وتلوح على وجه فاطمة سحابة رقيقة من الرثاء للطفلة وللغلامين ولكنها تحاول أن تبدو متجلدة ، وان رأت الحسين يسعى الى جانبها ويسعى اخوه الى الآخر يتناولان كفيها بالتقبيل واللثم فى خشوع ... فاذا استطاعت بعد هذا أن تثوب الى نفسها وقد ترفق الأب بالأطفال حتى خلفوا المكان ، عاودت تتم حديثها فى خفوت :

« هل صنعت ما اردت ؟ »

فيجاهد وسعه ليجيب :

« نعم »

« فهل أنت صانع ما آمرك به ؟ »

« نعم »

« فانى أنشدك الله الا يصليا على جنازتى ... ولا يقوما على قبرى .. »

فيميل بوجهه عنها ناحية حتى لا ترى فى عينيه الدمع .. انه ليبكى الآن أسى كما يبكى رحمة . وان أساه لعلى هذه الزوج التى كان يتنسم من اردانها طيب رسول الله وكانت عزاء له بعده ... وانه لعلى شبابها الغض الاهاب الذى عاش فى الدنيا كعمر الزهور .. وانه لعلى حدبها عليه وحرصها على حقه حرصا فاق حرصه هو على هذا الحق مرات ومرات ، حتى لقد ظلت ابدا غاضبة لا يتفتح قلبها عن الرضا على من سلبوه اياه . وكانت الرحمة التى شاركت الأسى فى دمع عينيه من اجل ذينك الرجلين اللذين اغلقت قلبها دونهما مع ما بذلاه من استرضائها ما وسعهما البذل ..

اجل ، بكى على رحمة من اجل ابى بكر ومن اجل عمر لفرط ما بكى الشيخان تأثرا وندما .. ولقد شيعهما من قليل الى الباب وهو لا يدرى كيف يسوق اليهما كلمة ترفيه . جاءا يعودان فاطمة

فأبت عليهما والحا ، فكان ردها دائما هو الاباء ؛ وتقدم زوجها اليها بالرجاء تلو الرجاء ان تكف عن ابائها ، حتى اذا رضخت كان اذنها باللقاء أمعن فى قلبيهما وخزا من الرد والاباء .. دخلا فأعرضت وسلما فأشاحت بوجهها عنهما ناحية وحدثاها فلم تعن بالجواب كأن غيرها المعنى بالخطاب !.. ثم ها هى الآن ، وقد خرجا تأخذ على زوجها الميثاق ان يضن عليهما بالصلاة عليها وهى جثمان فارقته الحياة !.

ولكن هذه الضاوية التى اشفت على نهاية ، أتت عليها لحظة بدت فيها كأن قد فارقتها الأوصاب وتشبثت بها الحياة وان كانت هى — بقلبها — تغالب تشبث الحياة ... وكان على قد أمن من القدر فجاءاته ذلك اليوم الموسوم بنزول الخطب ، فغادر الدار وفى نفسه بعض الطمأنينة ، ووكل شأن فاطمة الى سلمى زوج أبى رافع مولى رسول الله ، تقوم عليه ...

وكانت المراة جالسة فى هدوء وقد سربلتها الفرحة ان وجدت بنت رسول الله على خير ما ترجو لها اذ ذاك من حال حين أتاها صوت فاطمة هادئا يقول :

« يا أمه ... »

« لبيك يا حبيبة رسول الله » .

« اسكبى لى غسلا يا أمه » .

فقامت فأتت لها بما طلبته من ماء ، حتى اذا اغتسلت كما كانت تفعل ابان العافية ، هتفت ثانية :

« ايتينى بثيابى الجدد » .

ففعلت سلمى .

وعادت فاطمة مرة اخرى تقول :

« اجعلى فراشى وسط البيت »

فكأنما قدت سكين من قلب المراة شطرا ... نهضت المراة عجلى اليها تحوطها بذراعيها وتذرف عندها الدمع .

« بأبى انت وامى يا حبيبة رسول الله ؟.. »

فابتسمت فاطمة ، ولم تزد على أن تعيد فى هدوء حديثها المغرى بكل نقيض للهدوء والابتسام :

« اجعلى فراشى وسط البيت »

فأذعنت سلمى ودماء قلبهـــا تنزف من عينيها . وقامت فاطمة الى الفراش فاضطجعت عليه . واستقبلت القبلة ، ثم التفتت الى المرأة تقول :

« يا امه ... انى مقبوضة الساعة ، وقد اغتسلت ، فلا يكشفن أحد لى كتفا ... »

اما سلمى فلم تدر كيف مضى بها الوقت الا أن كانت عينا ممدودة ويدا مقبوضة ، كلاهما لا تستطيع دفعا ، لا اولاهما تدفع البكاء ، ولا اخراهما تدفع أنكى الأرزاء ... وقضت فاطمة فكانت يومها ذاك بآخر ضجعة على آخر فراش لها فى الدنيا التى دفعتها الى ظهرها زهرة ، ثم اخذتها زهرة ما زالت على ما كان لها من النضرة وحسن الرواء .

* * *

هكذا فارقت حبيبة رسول الله هذه الأرض لتلحق بأبيها الكريم فى السماء ... وخرجت من الدنيا آخر عهدها بها مع الليل ، يشيعها الى مثواها الأخير حفنة من الرجال ، ومضت الى ربها ، بقلبها المرور ، فانقطع بمضيها آخر من كان على قيد الحياة من نسل رسول الله .

وعلى القبر الكريم تحت النجوم ، بناحية من البقيع ، وقف زوجها الثاكل المحزون يناجى رسول الله وهو يرنو الى زهـرائه الطاهر البتول ، ويصوغ من الحسرات كلمات :

« السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك ... قل يا رسول الله عن مصيبتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ... الا ان لى فى التاسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز ، ولقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرك نفسك ... انا لله وانا اليه راجعون ، لقد استرجعت

الوديعة واخذت الرهينة . اما حزنى فسرمد ، واما ليلى فمسهد ، الى ان يختار الله لى دارك التى انت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها ، فاحفها السؤال واستخبرها الحال — هذا ولم يطل بك العهد ولم يخل منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فان انصرف فلا عن ملالة ، وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين ... »

أشواك

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ ، نَزِدْ لَهُ
فى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا
نُؤْتِهِ مِنْها وَمَا لَهُ فى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيب »

١

آده الصمت والوحشة وبعد الرفيق . لم يعد عمره الآن يقاس بمالوف ما اعتاده الناس من سنين وأعوام ، لا ولا بشهور عام تتعاقب فى زرقائه الأهلة .. انما خواطره مقاييس جريان الفلك واختلاف علائم الزمان ، وانه ليشعر أن قد طفر الى الكهولة من شبابه الريان فى دفعة . وأن اكداسا من الأجيال حطت على كاهليه . وأن الصورة البادية للعيون من جسمه وملامح محياه لم تعد تعكس بأمانة ما يملأ قلبه .

ولكنه بقى فى محنته القوى الصابر . لا يسلم قياده لحزنه .. ولا يدع اليأس يوصد دونه باب الحياة .. كان أعلم بالدنيا من راغب فيها ، أبصر بخباياها من راغب عنها ، فلم يغره منها المظهر ، ولم يغب عنه الجوهر ، وبقيت له مكشوفة بناحيتيها ، وبقى لها كما كان ابدا ، سيدها الممسك بزمامها ، يرخيه بحساب ويجذبه بحساب . قد يتمهل بها آونة ، او ينحرف اخرى الى شمال او يميل ثالثة الى يمين ، ولكنه كان حريصا على أن يسدد على الدوام خطاها الى هدف واحد لم يبرح مطلقا مرمى بصره .

وحتى فى هذه الأيام التى طالعته فيها الآلام ، وقفزت به خواطره الدكن بعيدا عن نطاق عمره ، لم ينس أن له فى دنياه رسالة ، وأن حياته فى الأرض مركب الأداء ، وأن الحزن الفياض لا يغرق عزما ، وان أهواء النفوس الحرة ومطامح القلوب الكبيرة أحرى بها أن تكون وسيلة واجمل الا تكون غاية . وذوو المثل فى الدنيا شعل تضىء للناس ، ولا يضيرها أن تفنى ما دامت قد أفاءت على الجموع الضياء .

***

مضت به الأيام وئيدة حتى تكاملت فى حساب الزمان الوافى شهورا ، وفى حساب الفكر العانى قرونا ودهورا ، وهو فى غرفته من الناس كمن فى حصن غلقت أبوابه ، يرى من الكوى ولا يشارك .

وكان هذا على نفسه الوثابة عبئا ، ولكنه كان أيضا الضريبة الفادحة التى اقتضاها الحزن . ومن لاتى فى دهره كمثل همه لا يلأم جرحه تجلد وصبر ، ولا يجد نجاء من أساه بغير قبر . اما هو فقد قدم فى باله الألم والصراع قبل أن يقدم الراحة والمتاع ، فلم تأت له دنياه بجديد ممرور لا يستطيع ذوقه ، بل جاءت بما كان منها اشكل بطبيعتها ، وادعى ان يعلم به قبل أن يجرع صابه ..

كل أولئك الذين عرفوه جحدوه ، وكل أولئك الذين سبقهم حسدوه فلم يغير هذا شيئا من بياض قلبه . ولكن غاية الألم ذاقها من تحالف الناس والزمان .. لكأنما البوا دهرهم حربا عليه ، او لكأنما صفهم زمنهم عليه جندا ... وكأى من حال لبسوها جميعا ، فلم يعرف قلبه طعم الحقد . تحلب حقا مر الهزيمة وشرق به حلقه . ولكنها هزيمة أصابت العرض ، ووقفت امام الجوهر مكتوفة الأيدى. وهل عسى يضيره أن تعدوه الخلافة الى سواه من اصحاب الرسول بقدر ما يضير هؤلاء الصحاب أن تعدوه ؟.. وماذا كان مأربه من وراء حكم الناس الا أن يحملهم على الخير او يحمل اليهم الخير ؟.. وياترى لم تعد له من الأيام بقية يدخرها الأجل لتحقيق الأمل ؟.. الا فليكن عند قول أبى عبيدة بن الجراح ، وليطوين فى نفسه الطموح حتى يشب أو يشيب لأنه بعد صغير والأمر له ان طال به بقاء !..

وانفرجت ثناياه فتبسم عن كره ، ذلك الصباح الندى الوضاء .. ان رسوله قطع الطريق الى المسجد وهم ان يحيى الشيخ . وانه ليكاد يراه الآن من وراء المسافات يسر الى أبى بكر ما ارسله فيه ، ثم يقرأ على صفحة الوجه المشرق الجليل سطور دهشة مازجها رضاء ، ثم يتوسم فيمن حضر نظرات تشوق وفضول أو خشية واشفاق . ولقد يفضى الشيخ لمن حوله بفحوى الحديث . ولقد يثنيه عن استجابة الدعوة قليلون أو يحفزه على تلبيتها كثيرون . ولقد يهم وزيره ان يسير فى أعقابه اكبارا لشأنه أو تخوفا عليه . ولكن الشيخ كان قمينا بأن يلبى ، وبأن يلتزم فى التلبية نص الدعوة حرفا بحرف . وبأن يقطع الدروب وحده الى دار على يهرول مشوقا ليلقى ، بعد قطيعة شهور ، ذلك الشاب الفريد فى الرجال .

***

الصراع الذى فات بين خصمه وبينه لم يغير مطلقا من بياض قلبه ، وانما ثمالة الألم ذاقها من تحالف الناس والزمان : ولقد كان قويا على ذنب الناس فعفا ووسعهم غفرانه . ولكن كلم الزمان فى قلبه كان غائرا يدمى . وبحسبه بعد وفاة رسول الله أن ينكب بوفاة فاطمة فتغيب عن حياته أسطع الشموس ، وأن تنضم غرفته على وجوه ، لا يفتأ كلما وقع عليها بصره ، أن يرى فيها أطيافا من الراحلين الكريمين . وأن يذكر — اذ يرى — هول النكبة التى أصابته بهذا الرحيل . وأن يرود خاطره بعد لحظات نهاره وثوانى ليله ، حدب الأم الذى فقده الصغار ، وعطف الجد الرفيق البار . فبأى من تلك العواطف الغائبة السخية يستطيع قلبه الآن أن يجود ؟.. وهل تثبت عينه فلا تسخو وهى لا تنى تقرأ على قسمات الأطفال أساهم نديا ؟.. وكيف يقسر وجهه على اصطناع السكون أمامهم وكان دائما لقلبه مرآة ؟..

ان تلك الشهور قادرة وحدها على التحدث لو نحلت اللسان واوتيت البيان . وقوى على ذهنه أن يغلب ذكراها ، عصى على قلبه أن ينساها ، فكلما نطقت زينب وخطرت ام كلثوم ، سمع فاطمة ورآها ، وكلما مشى الحسين وبدا الحسن تبين فى مشية أولهما خطوات رسول الله ، وفى ملامح الثانى قسمات محياه . ومن وراء هذا كله صور تتداعى أمام عينيه متواترة تختلف فى تتابع لكلا حبيبيه ... اما هو فقد كمن فى جوفه قلبان ، ينزع به قلب أن يغمض بصره ويسد أذنيه حتى لا يقع على مثار حزنه ، ثم يهتف به قلب ان يرهف اداتى الرؤية والاصغاء فلا يغيب عنه صوت الحبيبة او صورة الحبيب .

وكذلك عاش على مع قلبه فى صراع . لا شيء يلهيه عما هو فيه الا أن يصطنع شاغلا عن عواطفه فى أويقات . وفى عالمه الذى يحده من كل جانب جدار — فى تلك الغرفة التى انطوت على أطفاله وعليه ، لم يكن شاغله سوى أمر أولئك . خلال مسافات من سنى عمره بدا هذا الأرمل الصغير فى عيون مريديه كمن قد صيغ من روح ، وفى عيون شانئيه كأنه فولاذ !. ولكنه حقا جمع الرأيين فكان الرخاء والمضاء . ولكليهما سار فى الحياة وأفاء على أطفاله ما أفاء ، فاذا الصغار تتشكل نفوسهم ، مع الزمن ، بشاكله كلما نهلوا من دينه

وعلمه او قبسوا من شجاعته وعزمه . وقد يسر لهم أن يجيدوا عن أبيهم الأخذ بكل ما ورثوا عن اسلافهم وجرى في عروقهم من كريم الخلال .

وكانت هذه ناحية من رسالة علي في هذا الوجود ، بل قد كانت منها — اذ ذاك — أبرز النواحي . فلقد ظل دائما معنيا بالتماس الكمال في المعرفة حتى بدا فيها الرجل الزاهد العزوف عن الطعام والمال ، منهوما غاية النهم لا يشبع من حكمة وعلم ، لا يني يجيع بطنه ويشبع ذهنه ، وكان بثروته هــذه كالكريم المضيــاف يمد أطايب موائده امام قاصديه ليصيبوا من ذخر عرفانه كما يشاءون . ولقد بلغ من هــذا الأمر المدى الذي لم يبلغه سواه حتى أصبح المرجع في مستعصيات المسائل ، وتسنم مقعد المعلم الأول في ذلك الحين مع ما كان من حداثة سنه ، يأخذ عنه الملتفون به من صحب الرسول ، ويستهدون بآرائه يذيعونها في المجالس لنفع الناس ، وحرى بمن نهل الحكمة من نبع النبوة أن يكون كما كان .

ولكن الزمن أبى أن يدع له طويلا هذه المتعة الروحية ينعم بها في ابان محنة حزنه ، فلقد أخــذت حلقات الصــحاب تضمر وتقل جموعهم عنده وتتفرق شراذمهم الملتفة به كلما دعاهم داعي الجهاد بمكان . ولم يلبثوا ، بعد ان استعرت الفتنة في جانب من الجزيرة ، أن يتركه الواحد بعد الآخر حتى أمسى وليس له من تلاميذه الا بعض أهله واولئك الأربعة الصغار .

والى جانب هذه المتعة الروحية التي انتقصتها الحرب ، ظلت الناحية الأخرى من نشــاط علي معطلة مذ اعتزل الناس . ولــكنها — مع ذلك — بقيت كالسـيف المجلو بتارا قاطعا وان احتواه قراب . ولطــالما رمى بناظريه خارج داره فرأى جموعا تذهب وجموعا تجيء دارعة تدج في الســلاح ، فكان يطوى قلبه على هم جديد فوق ما طوى من هموم ، ثم يرد طرفه اليه في حسرة . كان مشوقا الى ما هم فيه، حنانا الى عالمهم الصخاب بصليل السيوف ، وقعقعة الرماح وازير القسي عند انطلاق النبال . فلمثل هذه الحياة الحافلة بالدماء عاش . ولمثل يومهم هذا هياه طبعه . وللغاية التي من أجلها يخوضون اليوم غمار القتال كان يرنو ببصره وهو بعد طفل صغير يقف الى جوار ابن عمه العظيم ويقول غير آبه بمن حضره من كبار اهله في ذلك الحين :

« لا يحزننك والله اعنات القوم فعليهم ضلالتهم ، وانى انا يا رسول الله عونك ! انا حرب على من حاربت !.. »

اجل قد كان هذا شعاره فى الحياة وكان هدفه الذى لم تمل عنه عيناه . نصرة محمد كانت هدفه ، فمن ورائها انتصار دين الله . وعند ما طوى اللحد ذلك الآتى الى العالمين بالنور ، قام على من بعده يتهيأ لقيادة الناس على النهج الواضح المرسوم . وكان قد وجد فى قلبه القدرة على الاضطلاع بالأمر ومجالدة الاحداث - التى اخذت تجتمع فى الآفاق محاولة ان تحجب هذا النور - فنذر نفسه شابا ، كما نذرها من قبل صبيا ، ووهبها لغايتها المثلى .. فأما وقد افلت من بين يديه حكم الناس ، فان اداته لنصرة دين الله واعلاء شأنه ما زالت بعد تحت يده : مجلوة بتارة وان احتواها قراب !..

والقى ببصره الى جانب من الغرفة فعلق فيه بسيفه الذى أهداه محمد اياه . وامتلأ قلبه زهوا وهو يرمقه اذ كان كبضعة منه . واكتسى وجهه بلون من الرضا المشوب بالعزم ، وهمت يده ان تمتد فتسله وتداعب نصله لولا ان نما الى سمعه صوت قال :

« أبو بكر !.. »

فتلفت ناحية الباب ليرى الشيخ الجليل مقبلا عليه ، فى ناظريه ابتسام ، وعلى محياه هدوء وسلام ، وقد سار نحوه مشوقا يهتف به فى صوت رقيق النبرات :

« السلام عليك يا ابا الحسن .. »

ولكن عواطف القلوب كانت ابلغ من كل تحية وكلام . فما ان تقابل اللحظان حتى اعتنق الصاحبان القديمان ، وراحت قطرات من الدمع تترقرق فى مآقى الشيخ ثم تنثال فى رفق بين شعيرات لحيته البيض . وبدا الصمت لهما هنيهة خيرا من الف حديث .. وتقبل على بالرضا وراحة الفؤاد هذا البياض الذى تكشف عنه قلب ابى بكر فى دقائق اللقاء ، فقد ظل كعهده نقاوة وصفاء ولم تغيره قطيعة ولا خلاف . لكان قلبيهما كانا شطرى قلب .. أما الشيخ فلعل الاريحية التى بدت له فى هذه اللحظة من صاحبه والتسامح الذى بلغ الى حد نكران الذات ، كان بعض ما حرك قلبه وأرسل الدمع صيبا من عينيه ..

وأما الشاب فلغير مثل هذه العوامل الشخصية وجه دعوته يستقدم خليفة الاسلام ، وان كان قد اتخذ التسامح والأريحية مطايا لبلوغ ما اراد .. وما كان له من مأرب الا ان يراب صدعا . او يهيىء رشدا ، او يهز سيفا في سبيل مجد الاسلام .

٢

حتى في هذا الموقف الذي تهيمن فيه المجاملة ، ولا تدع سبيلا لسواها من خلجات الشعور الى النفس الانسانية ، لم ينس على صراحته ، ولم تخنه شجاعة الراى الطليق الحر .. كان مخلصا غاية الاخلاص أمينا غاية الأمانة لنفسه ولصاحبه على السواء ، فلم يغمط الأولى حقا آمن انه لها ، ولم يخف عن الثاني هذه الخاطرة التى لو شاء لتركها من قلبه فى قرار سحيق . ولكنه أبى ان يدع بهذا القلب جانبا غير مكشوف لعين الشيخ ، او ان يظهر له الناحية الملساء ويطوى الأخرى عنه ، بل آثر أن يبدو امامه بناحيته كلتيهما بلا مواربة ولا اخفاء ..

قال وقد انتهى حديث العاطفة بينهما على خير انتهاء :

« يا أبا بكر .. انه لم يمنعنا من أن نبايعك انكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك لخير ساقه الله اليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا به .. »

وبهذه الكلمات القصار لخص الشاب قضيته التى ابت لها الأيام الا الخسران . ونفض يده من خلاف لم يكن هو اول مثيريه وان كان اول مناجزيه .

وكأنما مس كلامه وترا فى القلب الكبير الرفيق ، فانبرى ابو بكر يجيب :

« والذى نفسى بيده يا ابا الحسن .. لقرابة رسول الله احب الى ان اصل من قرابتي ، واما الذى شجر بينكم فى هذه الأموال فانى لم آل فيها عن الخير ، ولم اترك امرا صنعه رسول الله الا صنعته .. »

وصدق الرجل فيما اجاب وان لم يتناول كل اطراف القضية بهذا

الجواب !. ولكنه أعاد فقط ما كان من امر فدك الى الأذهان وشأنها كله لا يكاد ان يخسر او يزيد فى الميزان ، غير ان عليا لم يكن اليوم فى مجال حساب فاكتفى بالعتاب ، واسدل بالصمت على الماضى سترا ثم سارت به أريحيته إلى المسجد ليعلن فى الملأ الحاشد بكلمات جلية رسمت حقه ورسمت فضل منافسه ، انه اصبح على راى الناس فلا قطيعة ولا خلاف . حتى اذا انتهى غادر المنبر يشق الجموع الى حيث افضى الى ابى بكر فبايعه ويدعو على الأثر آله ومن تخلف من انصاره عن البيعة أن يتابعوه .

ودخل بهذا فى الحياة العامة . واخذت المدينة تشهده ثانى اثنين يلازمان خليفة المسلمين . ولكنه مع ذلك لم يحظ بأمنيته فى الجهاد ، بل بقى جليس المسجد بعد أن كان حبيس الدار تطوف به الأحداث حديثا .

على انه استطاع أن يجد متنفسا لطاقته العلمية فى مجتمع اقل ما يقال عن افراده انهم كانوا من العلم امام طراز جديد . وعن له ان يدلى بآرائه الصائبة كلما اشكل امر من الأمور على أصحاب الرأى المبرزين .. وفى تلك الأيام الأولى من صدر الاسلام والدين جديد على قلوب معتنقيه ، ومشكلات نواميسه واحكامه عصية على اذهان القوم بعد وفاة المهذب الأول للكون . في تلك الأيام التى غاب عن آفاقها حامل شعلة الهدى ، وجد الناس لدى سليل هاشم الصغير اقباسا من النور تضيء لهم احناء حياتهم الروحية والمدنية كلما تشعبت الآراء او اصابها حسر . ولم يكن على يفتى فيما يعرض له من المسائل والقضايا الا عن راى صائب مسنده القرآن او سنة رسول الله او ما جرى من العرف المأثور . وله بعد هذا الاجتهاد بالقياس او الترجيح ان أعوزه الوقوع على النص الصريح .

فى هذه الآونة وما بعدها من عهود خلفاء محمد كان على ميزان القضاء والافتاء ، ذخيرته حكمة قبسها من نبع النبوة واتساع أفق وعلم فياض ، لا يباريه فى ميدانه صاحب ولا رفيق حتى أصبح فى المستعصيات ذا الرأى الحاسم الأخير . وكتب باحكامه الفذة اصول التشريع الاسلامى في كل نواحيه . والقى اضواء لامعة من ذخيرة معرفته على مشكلات الحياة ومسائل القضاء حتى كان ابن الخطاب — وهو صاحب القضاء على عهد ابى بكر — يقول فيه :

« لا بقيت معضلة ليس لها ابو الحسن !.. »

وقنع على من دنياه بنصيبه هذ من تفقيه الناس . وترك سيفه مغمدا الى حين ، لان خليفة الرسول التزم ما كان قد التزمه رسول الله فى اخريات ايامه من الضن بابن ابى طالب على الحروب . ولكنه كان دائما لأبى بكر الناصح الأمين كلما حزب الأمر ودعا ان يتقدم بمشورة. واتصلت بين الرجلين الفة غذاها ما كان يملأ قلبه من الوفاء دائما لصحبه وان سبقوا اليه بحيف او بعدوان . وان الذى يساير الأحداث هونا ، ليرى هذا الوفاء لامع الصفحة حين يلمح هذا الشاب متقدما على استحياء الى اسماء بنت عميس يطلبها لنفسه زوجا ، بعد ان مات عنها أبو بكر ، ويضم محمدا ابنها الى داره كأحد بنيه .. ثم يرى هذا الوفاء باديا على خير وجوهه ، اذ يلمحه منطلقا ، واله النفس ، مصدوع القلب ، الى دار الخليفة : يبكى ويقول :

« رحمك الله يا أبا بكر !.. كنت والله اول القوم اسلاما ، واخلصهم ايمانا ، واشدهم يقينا .. صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخل الناس ، وقمت معه حين قعد الناس .. كنت والله للاسلام حصنا وللكافرين ناكبا . لم تفلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف .. كنت والله كما قال الرسول فيك : ضعيفا فى بدنك ، قويا فى دينك ، متواضعا في نفسك ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا اضلنا بعدك » .

وكفى بهذا الشاب نقاوة قلب وصفاء نفس ، أن ينسى فى هذه الملمة ما سلف من الشيخ اليه ، وان ينبذ وراء ظهره ما كان من خلاف بينهما وحيف عليه ، كفيل بأن يوغر صدر سواه ، فلا يذكر لهذا الراقد الا فضله وحسناه . وأن يسمو على انسانيته سموا ينزع به عن بنى البشر فلا ينطق الا بلسان البررة الأطهار من سكان السماء ، فى آونة اضاف قبيلها ابو بكر حيفا جديدا الى حيفه القديم على حق هذا الغريم المظلوم. ان طاقة النفس البشرية لا تتسع فى عصر من العصور، كما اتسعت نفس على ، لمثل هذا التسامح وهذه الأريحية وهذا السخاء فى انكار الذات ، وذكر اجمل النعوت والصفات لواتر لا يعز على خصمه أن يذكر له الأخطاء والهنات . فلقد نسى على الماضى ورماه دبر ظهره ، ثم نسى الحاضر وهو ما زال يسير على مثل شوك القتاد أو قطع الحجر من هذا الحاضر . وليس أمسه عليه ببعيد ، لا ولا يومه الذى لم تكد

تغرب شمسه الا منذ قليل ، وكلاهما شهد لأبى بكر موقفا كان كفيلا بأن ينطق عليا بغير منطقه هذا لو أنه ساير ما جبلت عليه نفس الانسان ولكنه سما على انسانيته بنحو فريد . وشهد واغمض عينيه عما شهد ، وسمع ثم سد اذنيه دون ما سمع .. شهد هذا اليوم ابا بكر موعوكا الح عليه داؤه واشتد به برحاؤه ، تكاد امراته اسماء ان تحمله لفرط وهنه وهو يشرف على الناس من داره ليقول :

« ايها الناس .. اترضون بمن استخلف عليكم ؟ انى والله ما الوت من جهد فى الراى . ولا وليت ذا قرابة ، وانى قد استخلفت عمر ابن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا ... »

وكان هذا حريا بأن يفعم بالغضب قلب على لأنه اصرار على الحيف بعد الحيف . ولكنه كظم وصبر ، ولم يضره ان ياخذ مقعده فى ذيل الناس ما دام صحاب رسول الله قد بيتوا الأمر على نزع سلطان محمد من آله والخروج به ثانية من عقر بيته . ولم يكن هذا بمستغرب من قريش ، ولكنه كان عجيبا غاية العجب من الشيخ الجليل بعد ان استوت بينه وبين على الامور ، فلم تعد خافية على ابى بكر مكانة الشاب واثره فى حياة الجماعة الاسلامية من تضحيات وبذل عند ولادة الدين ، ومن حكمة وفضل ودولة الاسلام تشق طريقها الى الاكتمال .. وكان عجيبا غاية العجب منه ، وهو الملتزم دائما السير على منهاج الرسول ، ان يخرج على هذا المنهاج فيوصى لصاحبه بعده وكان أولى به لو ترك للناس أمرهم شورى — كما فعل محمد — يختارون الذى يشاءون . ولئن بدا أبو بكر يوم السقيفة مدفوعا تسوقه الأحداث امامها ولا تدع له الا احد سبيلين : هما الخلافة لنفسه ولقريش فى شخصه ، او فوز الأنصار بها دون المهاجرين ، فانه اليوم لم تدفعه الأحداث ولم يبدر من المسلمين تنافس او خلاف يسوقانه مكرها الى الاستخلاف .

.. وبلا معارضة او اباء ، قابل على الحيف الجديد على حقه بصدر رحب ، وارتضى ان يرتد ثانية عن الصدارة الى ذيل الناس . ولكن صمت لسانه لم يعف جنانه من ان يلوك خاطرا مر بباله ، فذكر بلسان الحال ما نطقه بعد اعوام بلسان المقال :

« أرى تراثى نهبا ، فياعجبا !.. بينا هو يستقبلها فى حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته .. لشد ما تشطرا ضرعيها !.. »

٣

لا ريب ان ابا بكر راى لعمر عليه حقا حين استخلفه ، كما راى للمؤمنين صلاح حالهم بهذا الاستخلاف . ولكن الأسلوب الذى انتهجه عند الاختيار كان أسلوبا يستطاع وسمه بالهنات والاخطاء . فان الشيخ لم يتناول الأمر بالصراحة الواجبة ، بل بدا كأنه اضمر التبييت وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول . ووقع بهذا فى الخطأ الذى وقع فيه عمر من قبل عند وفاة النبى اذ خرج بصاحبه الى سقيفة بنى ساعدة ولم يدع واحدا من آل هاشم الى الخروج .

وكذلك اسقط ابو بكر من حسابه عليا الذى كان اولى بالرعاية وبالحساب من سواه . وشاور غيره من صحبه قبل ان يقدم على اختيار من يخلفه وان لم تكن المشورة — فيما يبدو — بقادرة على أن تجعله يحجم عن هذا الاختيار ، ولكن الذى كان أحرى بخلقه الكريم لم يفعله ، كأنه خشى — لو أدخل عليا فى الراى — أن يلويه عنه أو يخالفه . ومع ذلك فماذا كان على بمستطيعه بالمعارضة وقد عزم الشيخ أمره وانتهى الى قراره قبل أن يشاور ويستطلع الآراء ؟.. وأى الناس فى العرب كان يفضل ابن عم رسـول الله أو يقوم مقامه حتى يغضى أبو بكر عن دعوته ليشاوره فى الأمر ؟.. وكم من راى لصحب محمد يعلو رأى هذا الشاب فى شأن من الشئون ؟.. ان العجب كل العجب أن يلتمس الخليفة الصواب عند على كلما اختلفت الآراء فى مصير فرد واحد من رعاياه ثم لا يشاوره اذا أراد البت فى مصير دولة جمعت رعاياه !..

كان هذا عجبا حقا من رجل خلف دنياه وهو على غير يقين أكان هو صاحب الأمر من بعد رسول الله أم كان الأولى به سواه حتى لقد قال قبيل وفاته وعنده ابن عوف :

« لوددت انى كنت سألت رسول الله عن هذا الأمر فلا ينازعه أحد » ولكنه ، مع ذلك ، شاور صحبه قبل أن يدلى بهذا الأمر لعمر ولم يشاور أولاهم بالمشورة وبسط الرأى . ودعا اليه عبد الرحمن ابن عوف يسأله :

« أخبرنى عن عمر .. »

قال عبد الرحمن :

« يا خليفة رسول الله . هو والله أفضل من رايك فيه من رجل ولكن فيه غلظة .. »

« ذلك لأنه يرانى رفيقا ، ولو افضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو عليه . يا أبا محمد ، انى قد رمقته فرايتنى اذا غضبت على الرجل فى شيء أرانى الرضا عنه ، واذا لنت له أرانى الشدة عليه .. »

وهم ان يقوم ابن عوف فقال له الخليفة محذرا :

« يا أبا محمد .. لا تذكر مما قلت لك شيئا .. »

ثم دعا اليه عثمان بن عفان يسأله :

« يا أبا عبد الله . أخبرنى عن عمر .. »

« انت اخبر به يا خليفة رسول الله » .

« فأخبرنى .. »

فقال عثمان :

« اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأن ليس فينا مثله»

فتفرجت أسارير الشيخ وهو يقول :

« رحمك الله يا أبا عبد الله !.. ولو تركت عمر لما عدوتك »

ثم أوصاه أن يكتم ما دار بينهما من الحديث .

واشتد فيما بعد بالشيخ وصبه . وخشى ان يموت قبل ان يوصى ويسجل وصاته هذه فى كتاب ، فبعث الى عثمان يستكتبه العهد ، فلما جاء راح يملى عليه :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .. »

واخذ صاحبه يكتب .

« ... هذا ما عهد عبد الله بن عثمان الى المسلمين ، آخر عهده بالدنيا ، واول عهده بالآخرة ، فى الساعة التى يبر فيها الفاجر ويسلم فيها الكافر » .

ثم وهن منه الصوت قبل ان يتم املاءه ، واغمى عليه :

ورفع ابن عفان عن الصحيفة عينا يتطلع بها قلقا نحو صاحبه ، فاذا الرجفة تأخذه اذ يراه مهيضا . وكانما خشى أن يكون الخليفة قد فارقته الحياة قبل أن يتم عهده ، وخاف من الناس أن يختلفوا على الأمير بعده ، فسارع يكتب متمما الوصية :

« .. أما بعد ، فانى قد استخلفت عليكم ابن الخطاب .. »

وافاق الشيخ بعد قليل من غشيته فاطمأن عثمان ، وقرا عليه ما كتب قال له أبو بكر :

« انى لك هذا !.. »

« ما كنت لتعدوه .. »

« أراك خفت ان يختلف الناس ان افتلتت نفسى فى غشيتى »

« نعم يا خليفة رسول الله »

« الله أكبر !. أصبت ، فجزاك الله خيرا عن الاسلام . اتمم كتابك »

وعاود الاملاء .

وابرم بعد قليل العهد الذى اراده أبو بكر فتم لعمر الأمر .

ودخل طلحة بن عبيد الله على الخليفة وهو بين بعض صحبه حين نما اليه خبر الوصية .. وقال معارضا :

« ما انت قائل لربك غدا وقد وليت علينا فظا غليظا تفرق منه النفوس وتنفض عنه القلوب ؟.. »

فبدا الغضب فى عينى الشيخ ، وصاح بابن عمه :

« أبالله تخوفنى يا طلحة ؟. اذا قال لى غدا ذلك قلت له : وليت عليهم خير اهلك »

« أعمر خير الناس يا خليفة رسول الله ؟ »

فاشتدت ثورة حنقه وأجاب :

« اى والله !. هو خيرهم وانت شرهم !.. اما والله لو وليتك لجعلت انفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها ، قم عنى !.. »

والتفت الى ابن عوف يقول له ، ولما يزايله غضبه :

« استخلفت عليكم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم لذلك انفه يريد أن يكون الامر له دونه لما رايتم الدنيا قد جاءت !.. اما والله لتتخذن ستور الحرير ونضائد الديباج ، ولتألمن الاضطجاع على الصوف الأذرى كما يألم أحدكم أن ينام على حسك .. ووالله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من ان يخوض فى غمرة الدنيا .. »

فكأنما جلت سكرات الموت للشيخ بصيرته فنفذت الى المستقبل حتى لاح أمامه مبسوطا وتكشف عن صحبه الباقين قد اكتنفهم الترف ومالوا الى رفاهة العيش بعدما كان من نزوعهم عن الدنيا ونأى عن أوطارها وعن مآرب الحياة .. ولعل هذه النبوءة قد طافت من قبل بخيال ابى بكر ، وملأت قلبه بالخوف من المستقبل الذى رسمته ، لأنا نجده ، حين احس دنو اجله ، يسارع الى رجل عرفت فيه الزهادة فيختاره اميرا للناس حتى يجنبهم المصير الذى يخشاه ... ولقد أصاب باختياره -بد التوفيق فاستطاع ان يمد فى أجل الخلافة الروحية بضعة أعوام ، ولكنا نراه ، حتى فى هذا الصواب قد افتات ثانية حق على الموسوم بالتقشف والزهد سمة قد تسبق به عمر بن الخطاب لو سار كلاهما فى هذا الطريق . وافتات ثالثة حق على بمنطق اللسان حين سمعناه من قليل يقدم عليه ابن عفان اذ يقول :

« لو تركت عمر لما عدوتك يا أبا عبد الله »

فمن فى الزاهدين كان عثمان ؟ .. واية ميزة تفرد بها دون ابن ابى طالب واستحق معها التقديم ؟.. وبأى لسان نطق أبو بكر هذا البيان ؟.. أكان حديثه يا ترى بلسان المجامل الرفيق ، أم بلسان محقق التزم فى حكمه قواعد الحساب الدقيق ؟.. هذه خواطر لعلها لم تغب عن ذهن الشيخ اذ ذاك وان جاء جوابها من لدنه على غير ما كان يجدر أن يجىء عليه الجواب .. وللأحداث من بعد الحكم وفصل الخطاب ؟...

٤

المبدأ الذى التزمته قريش فى اختيار خلفاء رسول الله كان خروجها دائما على أهل رسول الله ، ونزعها حقهم من أيديهم ... هذه حقيقة أيدتها دائما وقائع الحال ، كانت فى البدء يحجبها — حديثا — فى حلوق أصحابها ستار وان بدت فى الافعال ، ثم اخذت على الأيام تخرج من نطاق الاسرار الى المجاهرة والكلام ...

ذلك بدا جليا غاية الجلاء ، ولو لم تتحرج قريش عند وفاة محمد واتساق الأمر بعده لأبى بكر ، لوسعها ان تقول لبنى هاشم فى أصرح بيان وبأعلى صوت :

« كرهنا أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت ... »

ولقد امرت عليها — انفاذا لمبدئها المرسوم — شيخا من تيم لا ريب كان له مثل رأيها ذاك ولكنه كان فطنا ، فيه كياسة وحذق فلم يجاهر بالذى كانوا يسيرون ، وجرى احيانا بينهم مجرى الهمس بعد جريانه كالعقيدة فى الأخلاد والظنون . وبقى طاويا فى نفسه شعور قومه تجاه آل الرسول وان لغطت الألسن رويدا رويدا بأنهم أصابوا الجادة حين اختاروا خليفتهم من غير بيت النبى ، رغبة فى البعد بخلاف الاسلام عن التشيع للعصبية التى نهى عنها الاسلام . الا انه منطق يعوزه السداد وان بدا كالسداد ، فما كانت العصبية جرما الا ان تمنع صاحب حق حقا يستقيم له بغيرها ، أما الاعتذار بها فهو الجرم كله ان منع حقا يستقيم لصاحبه بها كما يستقيم له بدونها على سواء .

ولكنه الاعتذار الوحيد الذى انتحلته قريش لتدرأ الشبهات عن حيفها وركوبها آل محمد بالعدوان . وما كان لها ان تلجأ الى سواه وهو ذريعتها لتبدى — فى صورة غير واضحة الظلال والألوان — ما طوت عليه جوانحها للبيت الهاشمى من حسد مكتوم وحقد مكظوم .

والباحث وراء هذه الاحقاد يستطيع أن يردها الى أصولها القديمة فى أحداث التاريخ ، كما يستطيع أن يحس عواطفها المنبعثة

عنها فى قلوب القوم كلما آنت لحظة يقفون بها فى موقف الحكم امام هذا البيت الكريم ، ثم لا يستعصى عليه بعد هذا ان يعلل احكامهم التعليل الصحيح . كذلك تألبت قريش على محمد وهى على ضلالتها ، وهو يحمل اليها ناموس الهدى والنور . وكذلك فعلت من بعده حين تجيشت بقضها على ابن عمه ولم تنصفه وجاء النصف من جانب قوم من غير قبيله هم الأنصار . وكذلك مدت فى طغيانها عليه يوم الاستخلاف ، وان صدر عن شيخ بنى تيم لأنه لم يكن سوى المعبر عما يحس به قومه ويبتغونه كثرة أو يبتغونه وهم على اجماع .. وفيما أتى بعد هذا من فرص النصف ظلت كدأبها من على فى المعسكر المنحرف عنه المتحيف عليه ؛ وليس من سبب واحد اقصاه عن مقعد الحكم الذى هو به جدير سوى هذه العاطفة ، وان لاح تعدد الذرائع والأسباب . ومن احس الريب وخالجته الشكوك فى اثر هذا المانع الوحيد الأصيل ، فبحسبه أن يسمعه عن لسان ابن الخطاب .. فلقد وسعه أن يعتذر مرة عن حيف قريش بسبب مطروق سلف اليه قبله رأى أبى عبيدة ابن الجراح .. وثانية بسبب واه كان ظنا خالصا لم يؤيده فيما بعد منطق الأحداث ... لكنه فى الثالثة تكلم بوحى قلبه فأجاد التأويل وأصاب التعليل ..

... أما الاولى فكان يحادث فيها إبن العباس فقال فيما قال :

« ما ارى ، يا بن عباس ، صاحبك الا مظلوما .. »

« فاردد اليه ظلامته يا أمير المؤمنين »

فوقف الشيخ هنيهة يهمهم كأنما يحدث نفسه ، ثم عاد يقول :

« ما اظن القوم منعهم منه الا أن استصغروه ... »

... وأما الثانية فمر فيها بعلى ، وهو بفناء داره ومعه ابن عمه ، ذات ليلة فألقى عليهما السلام ، ولما هم ان يسير الخليفة لشأنه هتف به ابن أبى طالب :

« أين تريد ؟ »

« البقيع »

« افلا نصل جناحك ونقوم معك ؟ »

فوافق ، واشار على لابن عمه أن يصحب عنه امير المؤمنين . ومضى الرجلان فى جوف الليل ، الأمير صامت كأنما قد شغله التفكير ، ورفيقه لا يحب ان يقطع عليه فكره بالحديث . حتى اذا

جاوزا البقيع بقليل التفت عمر الى صاحبه وقال :

« يا بن عباس ... اما والله ان صاحبك لأولى الناس بالامر بعد رسول الله ، الا أننا خفناه على اثنتين ... »

« فما هما يا أمير المؤمنين ؟ »

قال عمر :

« خفناه على حداثة سنه ، وحبه بنى عبد المطلب »

... وأما الثالثة ففى بعض مجالس أمير المؤمنين وقد جلس اليه نفر يتذاكرون الشعر والشعراء . ومر بهم اذ ذاك عبد الله ابن عباس ، فقال عمر للذين حوله وهو يدعوه :

« قد جاءكم الخبير ... »

ثم التفت اليه يسأله :

« من اشعر الناس يا عبد الله ؟ »

« زهير بن أبى سلمى يا امير المؤمنين »

« فأنشدنى بعض ما تستجيده له ... »

قال ابن عباس :

« مدح قوما من غطفان يقال لهم بنو سنان فقال :

لو كان فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم او مجدهم قعدوا
قوم سنان ابوهم حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
انس اذا أمنوا ، جن اذا فزعوا ... مرزءون بهاليل اذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ماله حسدوا »

فقال عمر :

« والله لقد احسن . وما ارى هذا المدح يصلح الا لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله ... »

« وفقك الله يا امير المؤمنين فلم تزل موفقا »

وكأن عمر اراد ان يوائم بين رأيه هذا وبين ما سلف من قريش فى حق هذا البيت الكريم فراح يقول :

« اتدرى يا بن عباس ما منع الناس منكم ؟ »

« لا ... يا امير المؤمنين »

« لكننى ادرى »

« فما هو ؟ »

« كرهت قريش ان تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفا ، فنظرت لأنفسها فاختارت ، ووفقت فأصابت »

ويبدو ان ابن عباس لم يكن متهيئا هذه الآونة للسكوت فبادر الى الجراب الذى ظل اعواما يكتمه في ذات نفسه ولا يفصح عنه ..

قال لابن الخطاب :

« أيميط امير المؤمنين عنى غضبه ؟ »

فأمنه عمر قائلا :

« قل ما تشاء »

« أما قولك أن قريشا كرهت ، فان الله تعالى قال لقوم : « ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فاحبط أعمالهم ... » واما قولك انا كنا نجحف ، فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة ، ولكنا قوم أخلاقنا من خلق رسول الله الذى قال ربه فيه : « وانك لعلى خلق عظيم ... وقال له : واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ... واما قولك ان قريشا اختارت ، فان الله تعالى يقول : وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ... وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه من اختار ، فلو نظرت قريش حيث نظر الله لوفقت واصابت ! ... »

فتفكر عمر هنيهة ، ثم قال وقد آذاه من ابن عباس هذا الحديث الصريح :

« على رسلك يابن عباس !... ابت قلوبكم يا بنى هاشم الا غشا فى أمر قريش لا يزول ، وحقدا عليها لا يحول »

« مهلا يا أمير المؤمنين !... لا تنسب قلوب بنى هاشم الى الغش فهى من قلب رسول الله الذى طهره وزكاه . وانهم لأهل البيت الذى قال لهم الله (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ... واما الحقد فكيف لا يحقد من غصب شيئه ويراه فى يد غيره ؟ .. »

فغضب عمر ، وصاح وقد حضره فى هذه الآونة امر كان يكتمه :

« ما انت يا بن عباس ؟... انى قد بلغنى عنك كلام اكره ان اخبرك به فتزول منزلتك عندى ... »

« وما هو يا أمير المؤمنين ؟... اخبرنى به ، فان يك باطلا فمثلى

اماط الباطل عن نفســـه ، وان يك حقا فان منزلتى عنـــدك لا تزول به ... »

« بلغنى انك لا تزال تقول : اخذ هذا الأمر منا حسدا وظلما »

فلم ينكص ابن عباس . ولم يتزحزح عن مواطىء قدميه ، بل قال :

« نعم حسدا ! وقد حسد ابليس آدم فأخرجه من الجنة . ونعم ظلما !... وانك لتعلم يا أمير المؤمنين صاحب الحق من هو ... يا أمير المؤمنين ، الم تحتج العرب على العجم بحق رسول الله ، واحتجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ؟ فنحن احق برسول الله من سائر قريش »

وبدرت اذ ذاك من الشيخ بادرة ليس فيها معنى الرضا عن سلوك هذا الفتى الذى لا يعييه ان يمتلك نواصي الحديث بالحجة وقوة الجدال؛ فلم ير عبد الله بدا من ترك المجلس . فلما رآه عمر قائما يريد ان يبرح ، خشى أن يكون قد اساء اليه فأسرع يقول متلطفا به :

« أيها المنصرف ! انى — على ماكان منك — لراع حقك »

فالتفت الفتى اليه يقول ولم يزايله جده :

« ان لى عليك يا أمير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقا برسول الله . فمن حفظه فحق نفسه حفظ ، ومن أضاعه فحق نفسه أضاع !.. »

ومضى عنه وفي أعقابه كلمات تقدير وانصاف قالها الأمير للجالسين:

« واها لابن عباس !.. واها له .. فما رايته لاحى احدا قط الا خصمه » .

٥

جرت السياسة العمرية على ان يظل صحاب رسول الله الاقربين حبيسي جدران الحجاز .. لم يبن الخليفة الثاني سورا ، ولم يغلق عليهم الأبواب ولكن شكيمته كانت اقوى من الف سور وباب ، فوقف الصحابة حيث اراد لهم ، لا يبرحون الا باذن ولأجل موقوت ، ولا يتفرقون فيما فتح الله به على الأمة الاسلامية من بلدان كلها خصوبة وخير ــ الذاهب اليها متعلق بها حتما ، مربوط بما تغله من ثروة ، تنادي كل ذي مطمع ان يتزود من دنياه بأوفى نصيب .. وأولئك الذين بعث بهم عمر فى الآفاق لم تغمض مطلقا عنهم عينه ، ولم ينأوا عن باعه ، بل كانوا قيد بصره اليقظ النفاذ ، وكفه القوية الباطشة . وهم بعد هذا احد رجلين : زاهد فى المتاع ، له من نفسه وازع يعصمه من الزلل ، لانه لا يستطيب الدنيا فلا يستطيب الاشتهاء . وطامح يتذرع بالحذر ولا يخطو الا بحساب لأنه لا يأمن العقاب وعنف الجزاء . وكانت هذه السياسة خطة أبى بكر ايضا ، ووصاته لخليفته من بعده يترسمها وهى فى ذاتها حكمة ايدتها الاحداث التى اصابت بناء الدولة الفتية فى عهد لاحق بصدوع نشأت عن التهاون فى الاخذ بها حينا ، ثم باهمالها جملة ، وهى فى نفس عمر لاقت صدى من شعوره الصادق وبصيرته التى طالما نفذت الى بعيد ، ولاقت هوى كذلك لأنها اتفقت والمعروف عنه من الشدة وكبح الجماح فيه وفى الآخرين . وقد ظل طوال عهده تتردد فى اذنيه كلمات سلفه :

« احذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله ، الذين انتفخت اوداجهم وطمحت ابصارهم » .

وهو في تأثره خطى صاحبه كان يخشى ، ان تفرقت رءوس قريش فى الامصار ، ان تشتد سواعدهم ثم تسول لهم النفوس ان يستقلوا بدويلات تنتقض على أمها الحجاز . او يركنوا الى ترف ينسيهم خشونة الصحراء ، تنبرى به الأجساد وتهن العزائم . ولقد طالما اخذ عمر الواحد منهم بالشبهة فخلعه من ولاية كان ولاه اياه ، او اخذه بالهنة فحرم عليه ما يملك من مال ومتاع ورده الى بيت المال ، فأما الذين

لم يستعملهم على البلاد فأولئك الذين كانوا أدنى من الآخرين الى رسول الله وارسخهم مكانة وطيب سمعة فى قلوب الناس . ذلك لأنهم كانوا أقرب الى السلطان لو ارادوه ونامت عنهم عين عمر .. ولكنه كان دائم اليقظة موصون الحذر حتى ليأتيه الرجل منهم يستأذنه فى الخروج للجهاد فيمنعه ويقول :

« اقعد !.. قد كان لك فى غزوك مع رسول الله ما يبلغك . وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك !.. »

ثم اشتد عمر غاية الشدة فى تطبيق هذا المبدأ ، فراحت حلقة الحصار يوما بعد يوم تضيق على هذه الفئة حتى حبسهم فى نطاق مدينة الرسول .. قد كان حقا اعلم بنفوسهم وابصر بما تنطوى عليه .. لو امتد به الأجل لتكشفوا لعينيه على الشاكلة التى بدوا بها فى عهد عثمان ، ولو اطاعهم لقربوا عهد الفتن والخلاف . ولكنه عصاهم غاية العصيان ، واطاع فيهم حق الدولة فى النماء على حسابهم وعلى انقاض اهوائهم ، فباء منهم بالثورة التى تكتمها خشيتهم منه ، وبالسخط عليه يضمرونه وان اظهروا الرضاء عنه ، ولعله علم منهم هذا ، ولمحه فيما بدت به سحنهم امامه فقام فيهم مرة وقال :

« ان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عبادة . الا فاما وابن الخطاب حى فلا !.. »

وقطع عليهم بهذه الصراحة الحاسمة كل سبيل . ثم التفت الى الوجوه المشرئبة والعيون الشاخصة ، يبصر أصحابها بحكمة رايه ، ومدى ما فيه من الخير المؤجل لهم فى حياتهم الآجلة ، دون ما تهوى انفسهم من الكسب المعجل فى هذه الآجلة . كم بدا الرجل ماردا جبارا فى تلك اللحظة !.. شامخا كالجبل الأشم يخز السحب ويصد الريح ، اذ يقول :

« انى قائم دون شعب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا فى النار !.. »

***

وكذلك ــ فى هذه الحقبة من الزمان ــ عاش على المشرع الحكيم العالم دون بقية نواحيه ومزاياه . لم يتح للشاب أن يفيض على أمة الاسلام بكل ما عنده ، فأطلق من لدنه هذه الطاقة التى لا يحدها قد

من السياسة التى التزمها الخليفة الثانى .. اما على الحاكم وعلى الجندى ، فقد ظلا كالنصل لا يسل عن قراب . ولم يكن قيامه بالتشريع عن تكليف ، ولكنه تقدم به طواعية لا يمنعه عن الادلاء برايه ان فاز عمر دونه بالخلافة ، ولا يوغر صدره انه يرى حقه مسلوبا منه مباحا لغيره . فقد تعلم ان يساير لاحداث بسجية المسالم الذى ينأى عن الفتنة ، الصابر ما كان الحيف مصيبا من ذات نفسه هو دون اصابة المجموع ، لان خير الأمة وحده كان ديدنه وان جاء على يد سواه ..

ساهم على اذن فى الحياة العامة ، كما وسعه ، وكما لم تشل من طاقته حدود ولا قيود . وافاء عدله وعلمه وحكمته ، كدوره فى عهد ابى بكر وعلى مدى اوسع . بل كان نصيبه من المساهمة ابان حكم عمر تتمة لما كان منه فى العهد السابق .. ثم هو ، قبل هذا ، نصيب تطلبته منه الظروف نفسها ومقتضيات الأحوال . والمتغلغل فى ادراك الخليفتين الاولين وفى دنيا علمهما ، يعلم ان ابن الخطاب كان افقر من سلفه الى علم ابن ابى طالب واشد حاجة ..

ان العدل العمرى موسوم بأنه قمة العدل ، وان الشدة العمرية كانت دائما ضمان اقامته بين الناس . ولكن الذى لا يرقى اليه الخلاف ، هو ان الفقه العمرى — بمحصول عمر وحده — لم يكن قاعدة مكينة غاية المكانة تقوى على احتمال هذا العدل الأمثل . وليس يطعن على المرء بأنه لم تكتمل له كل نواحيه . وليس يضير عمر فى شىء أن يكون به ضعف هنا او ضعف هناك ، اما القوة كل القوة ان يعرف الرجل نفسه — وقد عرفها ابن الخطاب حقا — ثم يكمل نقصها بما اتيح للآخرين ..

ولعل آفة عمر كانت دفعته ، تلك التى اوقفته دائما مواقف انكرها من نفسه كلما فاتت آونتها ، واتسع امامه مجال التفكير .. ومن كان على شاكلته تلك ، جدير به أن يلتمس له من اصحابه ومعاصريه العون الذى يحول بينه وبين عثار الاندفاع . وكان الرجل يعرف هذا الضعف فى نفسه . وقد طالما أفتى بالحكم ثم عاد فنقضه اذ يتروى ، وقد طالما دفعته الرغبة فى الاصلاح الى سن الشرعة التى يظنها كفيلة بما يريد ، فاذا بها لا تلبث أن تتقوض امام شرعة اعلى جرت على لسان غيره .. اراد أن يقف بمهور النساء عند حد معلوم لا تتعداه فقال :

« لا يبلغنى أن امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبى الا ارتجعت ذلك منها .. »

فاذا امرأة تنبرى له تقاطعه :

« ما جعل الله ذلك يا عمر !.. انه تعالى قال : وان آتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ؟.. »
فعجب لنفسه كيف غابت عنه هذه الآية الكريمة كما غابت من قبلها اخت لها يوم وفاة رسول الله . ولم يستطع بعد هذا الا ان يسحب شرعته ، ويجيب صاحبة الحجة بما هو ابلغ من الاعتذار :

« كل الناس افقه من عمر حتى ربات الحجال !.. الا تعجبون من امام اخطأ وامراه أصابت ، فاضلت امامكم ففضلته ؟.. »

ولكننا ، مع هذا ، لا يجدر بنا ان نعجب ، لأن الخطأ والصواب متلازمان فى أعمال الانسان . ولسنا أيضا نعيبه عليه ، لأن طاقته الشخصية الآدمية اضيق من أن تتسع للكمال . ولو انه آثر ان يستبد برأيه لكان هذا منه جديرا بكل مَذمة وعيب ، وان أتى رأيه بالمعجز الذى لا ينفذ اليه ريب . ولكنه كان رجلا حرا لا يأبى الحرية لغيره ، هضم عقله الشورى — ذلك المبدأ الاسلامى اس الحكم ، واقر بحكمته وفضله . وانطلق يتزود منه ويسد به نقصه ليكون حاكما امثل . وعجم الأعواد جميعا فتخير من بين صحب رسول الله أصلبها ليتوكأ عليه ، اذ يسير طوال اعوام خلافته ..

اجل ، لم يكن له معدى عن ابن ابى طالب فى هذه الناحية وهو من عرفه علما وفقها ، وحصافة راى . فلم ينس له ان قال رسول الله ذات يوم فيه :

« أقضاكم على » .

ولم ينس له ان محمدا بعثه على قضاء اليمن فى أواخر ايامه ، وانطلق لسانه المبارك بالدعوة المباركة له :

« اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » .

لقد كانت هذه الدعوة خير ضامن لعلى بعدل قضائه وما يند عن شفتيه من آراء واحكام — والا فأى الدعوات أولى بأن يستجيب لها الله من دعوات نبى الله ؟.. وحتى على نفسه زودته هذه الكلمات الطاهرة بثقة فى الوقوع على الصواب حتى لطالما كان يقول فى معرض الحديث عنها :

« ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين .. »

وكذلك شاء الله لهذا الشاب أن يسد نقصا في ناحية من خصمه السياسي الثاني لم يكن يستطيع ان يسده سواه .. ولندع لابن الخطاب بيان خطر المهمة التي اضطلع بها عنه خصمه بان نسمعه يقول كلماته البعيدة المعنى القليلة الالفاظ :

« لولا على لهلك عمر » ..

٦

« لولا على لهلك عمر » ..

هذا جماع رأى رجل بدين بمستقبله الروحي كله لآخر ، او هكذا نطقت الفاظه . وهو مع هذا بين الرجال ذو رأى ليس بنقصه النضج ، يلم احيانا بأطراف الالهام .

لم يكن عمر بالذي يلقى القول لانه يجامل ، ولو جامل لابعد عن نطاق لين الفاظه مثل ابن ابى طالب ، فان كلا خلق الخليفة وماضيه بهذا ينطقان .

ولكنه في خلال زمان قصير من صدر خلافته علم من على ما لم يكن قد علمه او اقر له به بعد كتمان ، فعرف له بعد تجربة اى نوع فذ فى الرجال كان .. واتسع مكان الصدارة من مجلسه لذلك الذى كاد فى ذات يوم أن يشعل عليه داره ويجعله وآله للحطب طعاما !..

اجل قد كان يعني القول ويعلمه حق علمه ، فقد جنبه هذا الشاب الذى افتات مع قريش على حقه ، كثيرا من مواطن الزلل فى امور دينه فضلا عن تسديده خطاه في كثير من امور دنياه .. واستطاع على فى فترة قصيرة أن يكون الرائد الأول لابن الخطاب الى الحق الابلج كلما اشتبهت عليه الأمور وتعددت مسالك الآراء . وجلس منه بحكمته المستقاة من نبى الله فى صدارة المشيرين عليه .. بل هو قد غلب عليهم اجمعين ، وسلبهم الالسن اذا نطق وان لم يسلبهم السمع وحسن الاصغاء واصبحوا امامه طلاب العلم الراغبين في التزود من نبعه ، لا ينطقون لانهم ينقصهم ان يوفوا مثله على الاحسان ، او لانهم

يحرصون أمامه على التزام الصمت والانصات ، اذ هما طريق الصواب كما تبينوا من قول ابن الخطاب :

« لا يفتين احد فى المسجد وعلى حاضر » .

ذلك ان الخليفة كان يتحرز لدينه ويتوقى أشد التوقى ان تأتيه الفتيا من عويلم ، ثم لا تلبث أن تجره بخطمه الى مورد هلكة ، أو تزل به دفعته كما فعلت به من قبل فلا يستطيع أن يتجنب المهوى . انه لم ينس بعد كم كان قاب قوسين من التردى فى خطأ لم يكن يأمن معه ان يسخط الله حتى اذا اوشك ان تنزلق به القدم بادر على فتلقاه .

كان ذلك ذات يوم جلس فيه عمر الى الناس بمجلس القضاء . وتقدمت له امراة إبىْ القوم الا ان يلحقوا بها الخزى .. سألهم فأجابوه :

« يا امير المؤمنين .. انها ولدت لستة اشهر » .

فاحرقها بنظرته الغضبى ، وارتفع بصره الملتهب منها الى الوليد الموسوم بميسم السفاح ، وارتعدت الأرض تحت قدمى الأم المتهمة حتى ودت لو انشقت عنها ، ثم اطبقت شقيها فاستراحت من عناء ما تلقى من هيبة الرجل ، وفى موقف كهذا أصاب امراة حاملا من خوف عمر ماجعلها تلقى ما في بطنها وتجهض جنينا ميتا ..

واغضى الخليفة عابسا برهة ينكت فيها الأرض بدرته ، فلما رفع ثانية راسه ، كانت الكلمة الرهيبة التى ندت عن شفتيه :

« ارجموها !.. »

على انه لم يكد يلفظ آخر حروف هذا القصاص الرهيب حتى احس يدا على منكبه تمسك به ، فتلفت صوب صاحبها يهمس :

« ما وراءك يا ابا الحسن ؟ »

قال له على فى صوت ثبت رصين :

« يا أمير المؤمنين ، لا تفعل !.. فلو خاصمتك المرأة بكتاب الله لخصمتك .. »

فارتاع ، وارتد وجهه حالكا .

وراح على يتم حديثه :

« ان الله تعالى يقول : وحمله وفصاله ثلاثون شهرا . ويقول جل قائلا : والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة .. فاذا تممت المرأة الرضاعة ، وكان حمله وفصاله ثلاثين شهرا ، كان الحمل ستة أشهر يا أمير المؤمنين » .

فخلى الخليفة سبيل المراة فى التو ، وصار هذا الحكم تشريعا باقيا على الزمان . وبمثل هذه البديهة اللماحة والذهن اليقظ كان على يهب عونه لعمر ويبصره فى اكثر الأحايين بمواطن خطئه ، لا يقصر الارشاد على النواحى الفقهية التى لم يستوعبها مثله أحد من صحب رسول الله فى اعلام الاسلام ، بل جرى شوطه فى كل الميادين ، وادلى بآراء عقمت العقول عنها لولاه .

بعث عبد الله بن عبد الله بن غسان الى المدينة رءوس النصارى من عرب اهل الجزيرة وقد اظهره الله عليهم وارتضوا الصلح ، فلما وقفوا بين يدى عمر قال لهم :

« أدوا الجزية وانطلقوا » .

فأبوها ترفعا أن يضاموا وهم عرب مثله ، وقالوا :

« بل ابلغنا مأمننا ، فوالله لئن وضعت علينا الجزية لندخلن أرض الروم . اتقضمنا من بين العرب ؟.. »

فأحنقه عليهم هذا الترفع بلا مزية ، وهذا التهديد بالفرار الى عدو يلتمسون عنده الملاذ ، فصاح بهم مغضبا :

« والله لتؤدن الجزية وانتم صغرة قمئة !.. ولئن هربتم الى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسبينكم » .

فاذا ابن ابى طالب تسارع بديهته بما يضع حدا للجدل والنقاش.. قال وهو يوجه الخطاب للخليفة :

« يا أمير المؤمنين الم يضعف سعد بن مالك عليهم الصدقة ؟.. »

« بلى ، قد فعل » .

واعجبته هذه اللفتة وحسن الراى فرضى بما كان من هؤلاء الأعراب .

ولئن الم علم على بكل نواحى التفكير ، وفاض بآرائه السديدة فى كثير من الأمور فان أبقى تلك الآراء على الدهور كان رايه حين دعت الحاجة الى وضع التاريخ .

جاء رجل الى عمر يخاصم آخر بدين له عليه وكان معه صك مكتوب يحل به الأداء فى شعبان ، فلما القى الخليفة بصره عليه ، بادر يسأل الدائن :

« أى شعبان ؟. امن هذه السنة ، أم التى قبلها ، ام التى بعدها ؟.. »

فاجابه صاحب الصك ، ولكنه كان ينقصه البرهان ، فمن ذا يدرى مدى الصدق فى قوله ما دامت الكتابة لم تنص صراحة على حقيقة تاريخ الأداء . .

وفى الحق لم يكن اهمال النص عن العام الذى يحدد الشهر يمكن القاء تبعته على صاحب الدين وحده ، لأنه كان خطأ شائعا بين الناس اجمعين ما داموا لم يستنبطوا الوسيلة لتحديد الأعوام على وجه ثابت معلوم ، ولعل عمر وضح لعينيه اذ ذاك هذا النقص فالتفت الى صحبه يقول :

« ضعوا للناس شيئا يعرفون فيه حلول دينهم » .

قال احدهم :

«نفعل كما تفعل الفرس : فانهم يؤرخون بملوكهم ، كلما هلك ملك ارخوا بولاية من هو بعده » .

وقال آخر :

« نؤرخ بتاريخ الروم من زمان اسكندر » .

وقال ثالث :

« أرخوا من مولد رسول الله » .

« بل من مبعثه » .

وتضاربت هكذا الآراء ، ولم يستقر نقاشهم عند حد لولا ان جاء على بن أبى طالب من لدنه بالمعهود من الراى السديد . .

قال :

« يا امير المؤمنين . . نؤرخ من يوم هاجر رسول الله الى المدينة من أرض الشرك ، فانه اظهر من المولد والمبعث » .

فهتف عمر مصوبا معجبا :

« لا زلت موفقا يا أبا الحسن » .

وبدأت الاعوام من تلك اللحظة بأبرز أحداث هذه الدنيا وأبلغها أثرا فى حياة البشر ، بهجرة محمد بن عبد الله سيد البشر . .

٧

بدأ الميل الى صحبة على بينا تتضح سماته كلما توالت على عمر الايام . واخذت الجفوة فى خلق ابن الخطاب تتقلص رويدا لتحل مكانها الرقة له والاقبال عليه ، وكان الزمن قد علم الرجل خطأ ما كان من سوء ظنه بابن عم الرسول . وكلما مر الوقت تكشفت له ناحية جديدة من خلق الشاب تهيىء صاحبها لخير منزلة عنده ، ولأعلى مكانة بين صحبه اذا رأى الخليفة ان يتلقاهم جميعا بالمفاضلة ، ويعجم أعوادهم عودا عودا . ولم يكن فضل على خفيا من قبل على كثيرين ، ولكن الحالة النفسية التى اعتورت عمر بعد البيعة لابى بكر كانت حرية بأن تتركه نادر الرضا على اى منافس غريم !..

على أن يد الزمان الآسية ابرأته من الماضي !.. كذلك تغيرت نفسه ، وطاب قلبا لبنى هاشم ، وان طالعه من قومه الحقد عليهم . فلم تكن عينه لتخفى عليها خافية الانفس التى تمت اليها نفسه ، وكانت كاحداها ، تشعر بشعورها ، وتنطوى مثلها على ما انطوت فى الغابر عليه ، ولكنه نفض عنه ماضيه ، ولم يعد ببصره الى الوراء بعد ان تفتحت امامه آفاق وآفاق من نفس فتى بنى هاشم السيد المحسود !

... وظهر منه الوثوق فى على والركون اليه يتبعه الاقبال على أهل بيته حتى لم ير فى جمع الا تصدره ابن أبى طالب ، ولا فى خلوة الا كان ثانيه فيها ابن عباس . ولعله لقى عند هذا الفتى الصغير صفاء لم يشبه ما سبق هو اليه من حيف على حق ابن عمه ولم يؤثر المرير فيه فاتخذه نجيا ، والقى دائما اليه بما يخفى صدره ، وكان ينأى به عن أسماع غيره ... حتى ملابسات هذا الحدث التاريخى الذى أوقع بين الخليفة الثانى وبين الأسرة الهاشمية حاجزا من النفور لم تعد سرا يكتمه عمر عن عبد الله ...

في خلوة جمعت الأمير والنجى اقبل عمر على صاحبه الصغير يقول :

« يا عبد الله ... ما تقول في منع قومكم منكم ؟ ... »

قال ابن عباس ، وان علم خلاصة الاسباب قبل ان يسمع الجواب :

« لا اعلم يا امير المؤمنين » .

فأطرق عمر هنيهة يفكر ثم قال :

« اللهم اغفر ! .. ان قومكم كرهوا ان تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبون فى السماء بذخا وشمخا ... »

وتريث عن الكلام . ولم يكن هذا على اذنى عبد الله بجديد ، ولكن الجديد حقا ، والسر الذى لم يكشف عمر عنه الغطاء قبل يومه ، هو ما ذكره وهو يتم الحديث ويقول :

« لعلكم تقولون ان ابا بكر اراد الامرة عليكم وهضمكم — كلا ،.. ولكنه حضره أمر لم يكن عنده أحزم له مما فعل ، ولولا راى ابى بكر فى عند موته لأعاد أمركم اليكم . ولو فعل ما هنأكم مع قومكم .. »

ثم هز الرجل راسه كالآسف واردف :

« انهم لينظرون اليكم نظر الثور الى جازره يا عبد الله !.. »

وقد أصاب التشبيه حق اصابة واصاب به حقيقة القوم ! اما الذى جرى على لسانه مما هم أن يفعله الشيخ سالفه ، فانه ذهب مع قلب ابى بكر سرا طواه لحده .. ولكن البين مما طالعتنا به صحائف الحقبة التى تلت وفاة رسول الله هو ان خليفته استقال الناس بيعتهم وكاد أن يخلعها عن عنقه . ولو انه فعل اذ ذاك لارتد الى صاحبه الحق ، ولجرت الخلافة مجراها الطبيعى فى دوحة الرسول . ولكن الأحداث المتلاحقة وفتنة المرتدين ومانعى الزكاة وقفت حائلا دون رغبته ، فلما أن انجابت هذه الغمة التى امتحنت الاسلام فى مستهل حياته باقسى محنة ، ولم يعد الشيخ — على الأرجح — قادرا على أن يحمل قريشا الشانئة على النزول عن رايه الحبيس فى نفسه .. او هو خشى — كالمفهوم من كلمات عمر — ان هو طالعها بهذا الرأى أن تجأر بالخلاف له تتبعه الفتنة والثورة عليه ما دامت تراه يهم ان يسلم اعناقها الى سكين الجازر !..

هذه ناحية ظلت خافية فى نفس عمر ، لم يكشف عنها الا حين تبين له الخافى من قلب على ، فاذا غضبه القديم يتوارى ، واذا شدته تنقشع ، واذا تأويله الخاطىء للأسباب التى دعت ابن ابى طالب الى السعى لمنافسة أبى بكر تبدو على حقيقتها النقية فيعلم منها عمر كم اخطأ من قبل فى حق الشاب .. وأصبح كلما انطوت من الزمن ايام يجد نفسه مندفعا الى هذا المشير الامين مقبلا عليه وعلى اهله

المظلومين واياه ، حتى لقد صار لهم العطوف الودود وصاروا له خير اعوان . وفى كلا نقاوة قلب على ورجاحة عقله ، وجد ثانى الخلفاء فيئا يظلل حبه له ، ويستمد منه بعض ما نقصه من نواحى القوة فى العلم والتشريع . وربطت بين الرجلين رابطة وثيقة العرى اساسها التقدير ، ودافعها اخلاص كليهما للواجب الموكول اليه ، وشدة حرصه على الخير العام . ولكن عمر ظل ابدا يطوى فى قلبه املا عز على ماضيه ان يهبه التوفيق فى اجتناء ثمرته .. انه حقا بلغ في قومه الذروة سلطانا وسطوة ، وخلف عليهم فى مكان تبواه منهم - الى قليل - رسول الله وخير خلقه ، وبلغت هيبته من نفوس الناس ان خفض اكابرهم الصوت فى مجالسه ، هو ابن الخطاب الذى قال عمرو بن العاص ذات يوم فيه :

« لعن الله زمانا صرت فيه عاملا لعمر !.. والله لقد رايته واباه ، على كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تجاوز مابض ركبته ، وعلى عنقه حزمة حطب !.. ورايت العاص بن وائل فى مزررات الديباج .. »

بلغ السلطان والسطوة والهيبة ودانت له رقاع ممدودة من الامصار لا يبعد اقصاها عن طرف درته لو انه شاء !.. ولكنه ، مع ذلك كان مجدا دون المجد المأمول . فهو ان زهدت نفسه في الكثير والقليل من نشب الحياة لم يكن بمستطيع ان يقهرها على الزهادة فى مجد جدير بان يجهد فى نواله وان يركب اليه الف سبيل وسبيل !..

في حياته كلها لم يخفق قلبه كخفقه لمحمد . لو استطاع ان يموت دونه لما احجم ، بل لعل اقسى ما مر به من لحظات الحياة تلك التى تبين فيها ان محمدا فارقه الى جوار ربه ، فعز لقاؤه الا فى غير هذه الدار .. وفى حياته كلها لم ينعم بأمل احلى من ان يرتبط الى محمد باقوى رباط . وقد اسعده ان يزف حفصة اليه ، ولكن سعادته كانت احرى بأن تكون اضعافا لو وفقه الله فجعل له عقبا من احدى بنات رسول الله .. اما وقد حال بينه وبين فاطمة ان ادخرها محمد لصفيه وابن عمه : على ، فان الامل العذب بقى مع الزمن فى قلبه لا يبلى ..

ولعله اليوم راى ان اجتناء الثمرة جد قريب وهو يسير الى على ، فلم يعد ينصل بينهما خلاف ، ولم تبق ثمة وسيلة يقترب بها منه ويتحبب اليه الا عالجها ، ثم هو قد راى فى الشاب خير خدين

وخير ناصح امين ، فاذا استطاع ان يصاهره ، فقد قضى على البقية الباقية من غضب آل هاشم بسبب موقفه القديم منهم ، وأصاب المجد الذى تهفو اليه مطامح النفوس ، وتهفو زهادتها على سواء ..

وكذلك اقبل على صاحبه يقول :

« ذكرت اليك أم كلثوم يا أبا الحسن » .

فتلفت على نحوه برهة ولم يجبه لتوه . قد كان فى خاطر الاب امر جعله لا يبادره بالجواب .

ولكن عمر لم يقعده الصمت عن طلب الرضا عما جاء فيه . فأعاد عليه الحديث ، فقال له على فى تردد وحياء :

« يا أمير المؤمنين .. انها صبية » .

فلم يقنعه هذا بل سارع يقول :

« انك والله ما بك ذلك .. ولكن قد علمنا ما بك » .

فابتسم على ولم ير بدا من مجاهرته بما كان يخفيه :

« انما حبست بناتى على بنى جعفر .. » .

ذلك انه كان يحب بنى أخيه حبه ولده ، ويؤثرهم بكل خير فلما راى عمر ما كاد ان يعزم على عليه امره ، خشى ان يفوته اليوم ما فاته يوم تقدم لرسول الله فراح يتألفه ويحاول أن يفوز برضاه .

قال وهو يصور له حاجته اليها وقد جرى العرف قبل هذه الخطبة ان يصور الرجل حاجة المراة اليه :

« أنكحنيها يا على ، فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما ارصد ؟ » .

فأطرق على وغلب فى هذه الآونة عليه طبعه الحيى وسجيته المجبولة على الا ترد حاجة او طلبا .. وبانت فى عينيه الموافقة التى جهد لها عمر ، فامتلأ بالفرحة قلبه . وانطلق من لدنه الى مجلس صحبه بالمسجد يسبقه بشره ثم لا يكاد أن يستقر به المقام بينهم حتى يهتف :

« رفئونى .. رفئونى !.. »

قالوا له يسألون :

« بمن يا أمير المؤمنين ؟.. »

« بابنة على بن أبى طالب » .

فاقبلوا عليه جميعا يهنئونه وراح هو فى غمرة فرحه بتحقيق مبتغاه يقول :

« ان النبى قال : كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة الا نسبى وسببى .. وكنت قد صحبته فاحببت ان يكون لى هذا ايضا » .

وكان له ما اراد من اللحاق بنسب رسول الله . فلم يكد يعود الى منزله حتى كان على قد امر ببرد فطواه وقال للصبية :

« انطلقى بهذا الى أمير المؤمنين فقولى : ارسلنى ابى يقرئك السلام ويقول ان رضيت البرد فأمسكه ، وان سخطته فرده .. »

وسارت ام كلثوم كما امرها ابوها وهى لا تدرى المعنى الخفى فى رسالته .

واستاذنت فاذن لها ، فادخلت الى الخليفة والقت امامه بالكلمات التى لقنتها :

وقال لها عمر :

« بارك الله فيك وفى ابيك .. قد رضينا » .

فعادت من حيث اتت حتى اذا سالها ابوها سارعت تجيبه وقد غلبتها الدهشة :

« ما نشر البرد يا ابت ، ولا نظر الا الى !.. »

فتبسم لها ضاحكا ، وراح يعد لها ما يهيئها لحياتها الجديدة .

٨

حق لقريش بهذا الزواج أن تتهيب موقفها .. فى خواطرها تجسم خطر بنى هاشم ثانية وفى أخلادها جرت ظنونها بعودة ما حسبته غاب عن حياتها فى قرار سحيق . وقد كان أولى بالاتساق مع تفكيرها ان ترى ان نجم على آخذ في الاستعلاء بأفق السياسة من جديد ، وان السحائب التى ظللته طوال الأعوام السالفة ليس تبديدها بعصى على اصابع ام كلثوم . ولئن برز أبوها فى المجامع بعلمه ، وسبق اكابر رجالها بأشواط ، فحرى بالنسب الجديد ان يوطد قدمه ، ويدفع بغيره من الطامعين فى الخلافة بعد عمر الى ما وراء الصفوف .

ولكنها في الحق ظنون استحدثها الوهم ، وخواطر اوحت بها غاية الغايات التي استهدفها القوم .. وقديما قر في نفوس قريش على بني هاشم شيء ما زالت تحرص جاهدة على ان يثبت في اخلادها ثبوت الاطواد ، وان تظاهر غايتها منه بكل سلاح وان كان سلاح الخيالات والظنون .

هذه مخاوف لا يحسبن امرؤ ان قد برئت منها نفوس الاكثرين من أولئك الرهط في ذلك الحين ، وهم عند الاعذار ليسوا على اى حال بملومين . فكلهم رجل اعماه الحقد حتى ليتسمع دبيب النملة في الغاب المليء بالعجيج والزئير ، او يتصيد الحبة ثم يبرزها قبة ليشبع رغبته من التحوط والاحتراز .. او رجل آخر غرير ليس بالنافذ العين في اغوار الناس قد استغلقت عليه نفس بنت ابي طالب ونفس زوجها ابن الخطاب ... وكلا هذين الصنفين من الرجال سيطر على اذهانهم نبأ قديم سرى بعيد وفاة رسول الله على الألسن ليسوا اليوم يخشونه لذاته ، فقد جاءت وقائعه لهم بالخير ، وانما يخشون ان يعود آخر مثله الى الظهور بعد حين ، مؤذنا بزوال غايتهم المرتجاة .. فنتائج الاحداث تعرف بقياسها على السوابق من الأشباه .

قد كانت قريش جد آمنة على غايتها التي لا تعود دون الابتعاد بسلطانها عن اليد الهاشمية لولا ان بدا ذلك النبأ القديم يحلق ثانية فوق الرءوس ، ويمد خطمه من الماضي صارخا بما تستطيع امراة ان تفعله في تشكيل مصير امة وفي اقرار اداة حاكمة عليها دون اداة . ولم يكن خافيا اذ ذاك مدى سلطان عائشة في بيت محمد ولا قربها من قلبه حتى ليزعم البعض — أو يحمدون لها — انها في فترة مرضه الاخيرة بذلت وسعها ليمرض في بيتها دون بيت ابنته ، ثم بذلت وسعها لتسير الاحداث من بعد على النسق المأمول . فلقد كاد أن يغيب عن المدينة ابو بكر في طريقه مع جيش اسامة الى الشام لولا أن لحقهم رسول بالجرف يحمل نبأ اشتداد وطأة المرض على محمد ، ولم تكن عائشة وحدها صاحبة الامر بانفاذ ذلك الرسول ليستعيد شيخ بني تيم وصاحبه عمر ، وانما جرى الخبر بأن الرجل كان رسولا من لدن نساء النبي بغير تحديد ، وهن على اى الحالات صورة مكررة للمراة !.

وبلغت الوعكة برسول الله بعد هذا غايتها ، فتلفت فيمن حضره وقال :

« ابعثوا الى على فادعوه .. »

قالت عائشة :

« يا رسول الله ، لو بعثت الى ابى بكر .. »

وسمعت حفصة فسارعت هى الأخرى تقول :

« .. لو بعثت الى عمر .. »

ووقف الرجال الثلاثة بين يديه بعد قليل فأجال فيهم بصره ، ولم يلق اليهم بما عساه كان يريد الادلاء به الى واحد منهم دون صاحبيه وانما اشار لهم وقال :

« انصرفوا .. فان تك لى حاجة ابعث اليكم » .

وانتهى الأجل ..

ذلك كان النبأ الذى حلق فوق رءوس قريش بعد أن بنى عمر ابن الخطاب بأم كلثوم ، وانه لنبأ يحمل فى طياته ما تستوعبه عين عابرة وان انطوى على كثير من الخطر لدى الذين يشاءون التأويل . فلقد حالت كلمة امراة دون غاية لعلها اوشكت ان تكون وانجبت غاية كانت بعيدة حتى ذلك اليوم عن الاخلاد والظنون . ولمن ابى أن يقر هذا المنحى من التفكير ان يرسم فى خياله صفحات التاريخ على نسقها المنتظر لولا رسول نساء النبى ثم لولا الحيلولة فى اللحظات الاخيرة بين محمد وبين على .

جرى هذا فى خاطر قريش حين دخلت ام كلثوم بيت عمر ، وتهيبوا أن تقع مثله عند ما يأزف الوقت ، ويدعو داعى الموت امير المؤمنين للاستخلاف . ولئن لم تستطع عائشة من قبل أن تعمل بطريقة فعالة على ان يخلف زوجها أبوها ، ووقف بها دورها عند حد معلوم ، ففتاة بنى هاشم اذن طريقها معبد الى الهدف الذى ظنوها ترجوه ، ليس يحده حد ما دمنا نعلم البون الشاسع بين شخصيتى الزوجين كليهما امام امراته ، ونعلم لأولهما طبيعة بشرى يحوطها عن النزوات سياج من عند الله ، والثانى نفسا تميل مع الهوى ما وقعت فى يد امراة تحكم التدبير وتجيد التأثير .

ومع ذلك فان أولئك الذين تهيبوا الموقف كانوا حقا يسيرون فى ركاب الخيال . فلم تكن ام كلثوم سوى طفلة غير ذات دهاء ولم يكن عمر سوى امرىء خشن لا تغلبه مراوغات النساء ، وفى حياته كلها كان أقرب الى البغيض اليهن منه الى العنيف المرهوب ، حتى

ليعد عليه انه فارق من تزوج بهن فى الجاهلية وطلق الكثيرات بعد الاسلام .. وكانت النسوة المسلمات — على الاطلاق — ان لم يكرهنه — يرهبنه ، والاثر بهذا بين ؛ حين دخل ذات يوم على رسول الله وعنده نسوة يلغطن بالحديث ، ففررن لدى دخوله وتركن نه المكان .. وساءه منهن هذا الفرار فصاح :

« يا عدوات انفسهن .. اتهبنني ولا تهبن رسول الله ؟ »

فلم يفت النسوة ان يثارن منه فجاءه على السنتهن الطويلة الجواب خشنا بلا مواربة ولا اخفاء :

« نعم .. أنت اغلظ وافظ !.. »

واللائى عرفنه من النساء وطمع هو في أن يسكن اليهن بالزواج ، ابين عليه لم يشفع له لديهن سلطانه ولا ائتمار اعتى الرجال واقواهم جاها وسطوة بأمره . وحسبك ان تطوف بمجلس عمر لتعرف كيف كانت هيبة الرجل حتى فى قلوب من كانوا من قبل يبزونه نفوذا ، وما زالوا يعلونه بالحسب العريض .. ولعلك ملاق هناك أبا سفيان ابن حرب كبير قريش جالسا خافض الراس لا ينبس وابنه اللصيق به زياد قد تحدث وهو بعد غلام ، فأحسن الكلام ، حتى ابدى على اعجابه فقال :

« لله هذا الغلام !.. لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه » .

ويتلفت أبو سفيان بحذر ، حتى اذا امن عين عمر قال هامسا :

« أما والله يا أبا الحسن لو عرفت اباه لعرفت انه من خير اهلك »

وكان نسب زياد مجهولا فى ذلك الحين فقال على :

« ومن أبوه ؟ »

« أنا .. وضعته والله فى رحم امه ! »

« فما يمنعك من استلحاقه ؟ »

فنظر الشيخ صوب عمر ، وقال بصوت لا تكاد تلتقطه اذن جاره :

« أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على اهابى !.. »

.. فاعجب اذن لهذا السلطان المستطيل كيف لا يستهوى المراة .. وكيف — وقد حاد عن هواها او حادت بهواها عنه — تعصيه ولا تخشاه ، لأن لها على نفسها السلطان الذى لا يصل اليه سلطانه ،

ولاتها وزنته — بطبيعة المسلمة — حاكما فاكبرته ، فلما وزنته — بطبيعة المراة — زوجا ، ابته وانكرته ..

ارسل ذات يوم من لدنه رسولا الى ام ابان بنت عتبة بن ربيعة يخطبها له ، فكرهت لنفسها المقام عنده زوجة وردت رسوله وهى تقول :

« كلا ! انه ليغلق بابه ، ويمنـــع خيره ، ويدخل عابســـا ويخرج عابســا .. »

وكذلك فعلت ام كلثوم بنت ابى بكر حين خطبها وقالت :

« لا حاجة لى فيه .. »

قالت لها عائشة وهى تعجب :

« ترغبين عن امير المؤمنين ؟ »

« نعم . انه خشن العيش ، شديد على النساء » .

وان رجلا هذا نحوه لعصى على امراة ان تقوده او تسدد خطوه الى هدف شاءته ، لان طبعه كفيل بأن يضع كثيرا من الحوائل بينه كرجل وبين امراته كزوجة .. ناهيك عن عراقيل السياسة ذات الدروب الملتوية التى تضل فيها النسوة الدهاة فضلا عن الفتاة .. ثم دعنا نسال — وان بلغ رضاء عمر على بنى هاشم وملاينته لهم الشاو والذروة خلال عهده — ان كان قد استطاع أن يخلع عنه قرشيته فلا يكون على سجية قريش ، ولنا بعد هذا ان نقرا الجواب فى وصية ابن الخطاب .

٩

عندما اقبل كعب الاحبار يلقى الى عمر بمكنون علمه ، لم يبد على اليهودى القديم الا كمسحة الغموض على اسارير منبىء بالغيب ولم يبد على امير المؤمنين الا الريب ..

قال له كعب الاحبار :

« يا امير المؤمنين اعهد .. »

فبانت البغتة فى عينى عمر وبان الانكار وهو يهتف بالرجل :

« اعهد .. »

« نعم فانك ميت بعد ثلاث » .

« وما يدريك ؟ »

« اجده فى كتاب الله : التوراة » .

فضحك عمر ضحكة كشفت عن سخره وريبه فى نبوءة صاحبه وفى علمه وقال بلا اكتراث :

« انك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ! »

« اللهم لا . ولكنى اجد صفتك وحليتك » .

ولم يلق الأمير بعد هذا بالا الى الحديث . ولم يعن فى الحين بأن يتثبت من صدق هذا اليهودى القديم ، وتأوله على السفر القديم او زعمه النطق بما جاء فيه . ومضى لشأنه من الفراغ لشئون الدولة وشئون المسلمين ، قويا موفور الصحة كعهده ، لا يكاد أن يتوقع له احد قرب حينه .

ومع ذلك فقد كانت فى الأفق سحابة لم تخف عن عين عمر ، وكان جديرا به غب هذا الحديث أن يخشاها .. ولكنه كان رجلا قويم الايمان ، شديد الوثوق فى الله ، راسخ اليقين فى ان المجهول الذى سوف يصيبه لا بد سيصيبه ، فاذا بدا له من وراء هذه السحابة الدكناء التى تظل راسه وجه ابى لؤلؤة فيروز ، فقد امن اذن الشر ، ما دام عدله المشهور وسع كل الناس وأرضاهم وان اسخط بالأمس — فى لحظة غضب وتذمر — هذا الغلام المجوسى المتبرم بما وضع عليه من خراج .

على أن هناك امرا كان أولى بالتطير وخوف المصير الفاجع لو انه سمع بنبوءة كعب الأحبار . ذلك كان عبد الرحمن بن ابى بكر وقد مر ليلة اليوم الذى طعن فيه عمر بالهرمزان وفيروز وجفينة غلام سعد ابن ابى وقاص حتى اذا قاربهم ، رأى خنجرا له راسان نصابه فى وسطه ، يسقط منهم . ولم يكن الأمر اذ ذاك مما يثير ظنة الا ان كان فى اجتماع ثلاثة نفر من الاعجام بمنحى ما يبعث الشكوك . ولكن الليلة لم يطلع لها صباح حتى كان امير المؤمنين موسدا بفراشه ، بعد ان اصابته جراح قاتلة من خنجر نصابه فى وسطه وله راسان ..

لم يكن عبد الرحمن قد سمع بنبوءة كعب الاحبار حتى يتحوط للحدث قبل وقوعه ، فلما دهم الرزء سار بشكه الى عبيد الله بن عمر ، وقد كان حريا بعبيد الله أن يغضب لأبيه ، وأن يبلغ الشك عنده

يقينا ، وان ينقلب موجدة على اولئك النفر الذين حومت حولهم الشبهة . وزاد من لصوقها بهم — في وهمه — انهم امير فارسي سابق اعتنق الاسلام وراسه تحت حد السيف ، ومملوك مجوسي نقم من عمر ابقاء خراجه باهظا ولم يرفعه ، وغلام آخر اجنبي يدين بالمسيحية جيء به اسيرا من الحيرة ، وكل الثلاثة لعل قلوبهم لم تخل من حقد على الرجل الذى داست جيوشه بلادهم واوطأتها العبودية .

ثم هلا كان اولى بأن يكون الأمر كله اقرب الى المكيدة المدبرة لو نظرنا بعين التشكك — كما نظر عمر — الى حديث كعب الأحبار المزعوم عن ورود نبأ المصرع الوشيك في التوراة ؟.. هذه ريب تمينة ان تلصق بالرجال الاربعة جميعا ثم قد تدع رابعهم عارفا بالحادث قبل وقوعه ، فمحاولا ان يلبس به ثوب العليم بالغيب النافذ البصيرة الى اطواء المجهول ، عسى ان يستطيع نفوذا الى بعض النفوذ ، ويكون له من ورائه عليها سلطان !..

ولقد غالب عبيد الله بن عمر ما في نفسه اياما ، فلما قضى ابوه ، مضى مشهور السيف يجذ الرقاب .. قتل ابنة فيروز بعد ان سبقه غيره الى صرع القاتل ، وقتل جفينة والهرمزان فكان هكذا موتورا ركب غاية الشطط في الاخذ بثأره . لأن الظنة وحدها تدرأ الحد ولا تدعو اليه ، ولأن البينات على جرم اولئك النفر كانت معدومة .

اما كعب الأحبار فقد بقي معافي لم يمسسه شر ، بل لقد بلغ مكان الصدارة في مجلس الخليفة التالي او كاد ، لا ينساه في مشورة .. واما ابن عمر فقد امسك ليرى فيه امير المؤمنين الجديد امره ، ثم لم يعد قضاؤه فيه أن اطلقه ولم يأخذه بدم احد ضحاياه تلوما من قتله ظالما بعد مصرع ابيه مظلوما .. والذين يلتمسون المعاذير لصاحب هذا الحكم ، قد يأتون منها بالآحاد او بالعشرات ثم يعوزهم بعد هذا أن يروه قضى بشرعة الانصاف !

وهكذا بدأ عثمان بن عفان عهده بالتحيز لان طيبة قلبه غلبت على الاعتصام بالعدل المفروض في الامام .. هذه الطيبة التى كانت دائما آفته وما زالت تستشرى كلما تقدمت به السن فتميل به رويدا عن جادة الحق حتى أوردته حتفه .

* * *

وحمل ابن الخطاب وهو ينزف من المسجد ولما يبدأ صلاته بالناس. وكان واهن القوة لكثرة ما سال من جراحه الستة من دماء . ووسدوه فرشه وهو ينوء وقد تجمعوا لديه ذاهلين . أما هو فقد استطاع أن يجيل بصره فيهم آونة حتى يقع على خير بنيه فيقول له :

« يا عبد الله بن عمر .. اخرج فانظر من قتلنى » .

وكان الناس فى المسجد قد أسروا القاتل بعد أن أصاب منهم قتلى واثخن الجراح ، وحملتهم ثورة غضبهم لخليفتهم وحرمة بيت الله أن يقضوا سراعا على العبد الزنيم .

وعاد عبد الله يقول لأبيه :

« يا أمير المؤمنين .. قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة » .

فرفع ابن الخطاب عينيه الى السماء وقال وقد لاحت على وجهه علائم الرضا والاطمئنان :

« الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة » .

ذلك انه كان يخشى أن يوسم باتيان ما قد يقتله به مسلم هداه الاسلام فعرف حده وعرف حقه وحق ربه على اميره ، اما وقد علم أن المصرع جاءه على يد آبق كافر فهنا الرضا عن نفسه ، والتسليم بعده للموت قرير العين مرتاح الضمير ..

ولم يبق له غب هذا الا ان يختار الجوار الذى لا بد لائذ به بعد قليل ، وأن يطمئن على مثوى جسده بعد أن طابت نفسه بمصير روحه الموكول برحمة الله : وكما كانت غايته ابان الحياة ان يلوذ بنسب من الرسول الكريم يشرف قدره ، فكذلك كانت غايته وهو يهم أن يستدبر الدنيا ويستقبل نصيبه من التراب ، فليس اشهى اليه فى كليهما ، ولا احب الى قلبه من جوار رسول الله بالصهر وفى القبر ..

ونادى عمر ابنه ثانية :

« يا عبد الله .. »

« لبيك ! »

« اذهب الى عائشة فسلها أن أدفن مع رسول الله .. »

١٠

« لولا راى ابى بكر فى عند موته لاعاد امركم اليكم .. »

يا ترى قد ذكرها عمر اليوم وهو يحس الموت يزحف اليه من خلال جراحه ؟..

ما كان حريا بالرجل ان ينساها لحظة واحدة ، وخاصة وقد وقف الآن الموقف الذى يجب عليه فيه الاستخلاف . وما كان له أن ينساها وقد سمعه من صاحبه قبله ، ثم اسمعها في ذات يوم ابن عباس . وما كان له فوق هـذا وذاك ان يغيب عن ذهنه قدر على وصفته ، وقد بدا له — من بين صحبه المتجمعين حول فراش موته — وجهه وسمته .. ذاك ان لم يجد فى قرابة ابن عم رسول الله موجبا للتقديم بغير ما يوجب التقديم .

ولكنه سمع واسمع ، ثم رأى مع هذا ان يأتى بخلاف ما اقر به من قبل ، وان يدع الظلم — الذى وسم به قريشا اذ نحت ابن ابى‌طالب عن خلافة رسول الله — فى مكانه حيث كان ، لم يمحه ، ولم يبدل منه لانه ظل حتى الموت قرشيا من غلاة القرشيين بغير كثير تبديل . ولمن اعتـذر للرجل بانه خشى — ان هو أوصى بعلى — أن تنتقض قريش وتأباه ، فعنده اذن الجواب بأنها قبلت كارهة من أبى بكر أن يوصى لعمر ، ولم تنقلب عليه‌ولها العذر الحاضر للانقلاب من شدة ابن‌الخطاب، ومن بيته بين بيوتها اذا هى وزنته بميزان الأحساب !..

قيل له وهو مهيض :

« يا أمير المؤمنين .. لو استخلفت » .

فتفكر مليا فى الأمر ثم اجاب كأنما يشاور نفسه :

« ان استخلف فقد استخلف من هو خير منى ، وان اترك فقد ترك من هو خير منه .. »

ثم التفت الى محدثه ، ولمن حضره من الصحاب . وقال بنبرة الاسف :

« لو كان ابو عبيدة حيا لأستخلفته ، وقلت لربى لو سألنى : سمعت نبيك يقول انه امين هـذه الامة .. ولو كان سالم مولى

ابى حذيفة حيا استخلفته وقلت لربى لو سألنى : سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله .. »

فهلا ذكر اذن — فى هذا المقام — قليلا من الكثير الذى قيل فى ابن ابى طالب على لسان رسول الله ؟

انه بلا ريب ذكره وذكر معه كل ما حدث به من قبل ابن عباس ، ثم ذكر الى هذا وذاك قدر على — لا كما جرت به سيرته على شفاه محبيه ، بل كما علمه هو وخبره وقدره القدر الذى يعلو به على الآخرين ولكنه ايضا ذكر السياسة العليا التى استنتها لنفسها قريش ، وكان اما مترسما لها برغبته اذ يراها الصواب ، واما دفع مستكرها الى ترسمها فعداه — فى كلا الحالين — التوفيق ، ولم يلتزم النهج الأقوم .

وتقدم المغيرة بن شعبة اليه يهمس :

« اشير يا امير المؤمنين ؟ » .

« أسرع » .

« ول عبد الله بن عمر » .

فرمى اليه مسرعا بنظرة كالشهاب وصاح فيه :

« قاتلك الله ! والله ما الله أردت بهذا الأمر . أتشير على برجل عجز عن طلاق امرأته ؟ .. »

وتلفت الى الحضور يستانف خطابه :

« لا ارب لعمر في خلافتكم . ما حمدتها فأرغب فيها لاحد من اهل بيتى ، ان تك خيرا فقد اصبنا منه ، وان تك شرا يصرف عنا ، وحسب آل عمر ان يحاسب منهم واحد ، لا ها الله !.. »

وكان الجهد قد اصاب منه فوهن واغمض عينيه ، ولم ير الناس بدا من التفرق عنه لساعة صحو — فتركوه .

***

الا منذا يدرى كيف مرت بعد هذا به اللحظات ؟. لا ريب لم تطرف عين خياله لحظة واحدة عن التجول خلال امته ، وعن استكناه شأنها ، وعن تصور الاحداث كلها التى مرت به حتى الخنجر .. وهو قد كان جديرا بان يستشعر الرضا عن اعماله وجهوده لرفع هامة الاسلام .

ولكنه الى ذلك كان جديرا بأن يرهب المستقبل على امة محمد من بعده فأنى لغيره ان يسوس الدولة الناشئة ويرعاها ، كانما يمسك الناس فيها بزمام ؟...

طبيعى أن يمر كل هذا وكثير غيره بخاطر عمر ، وان يراوده ابان الساعات القلائل التى فصلت بينه وبين حفرته ، وان يعاوده أمره مرات فى يقظته هما وفى غشيته حلما .. والمشغول بشىء لا تنام عنه عينه ولا واعيته ، ويظل دواما عالقا به حتى يقضى ، وكانت الغيرة العمرية على شأن امة الاسلام أرهف الحواس عند ابن الخطاب ، وكانت هى رائده فيما صدر عنه من اعمال حتى تلك التى لم تجنبه شططا ، وانك لتستطيع دائما أن تجد عذره حاضرا امامك لو احصيت عليه اخطاءه القليلة ، لأنك ان رددتها الى اصولها بدت لك غيرته على مستقبل بلده من وراء كل أصل . وليس موقفه من بنى هاشم حين تأمير ابى بكر ببعيد عن الأذهان .

ولقد ظلت هذه الغيرة — المحمودة اذ تظاهر هدفا عاما — تنمو فى نفسه مع الأيام وتزيد شدة ، لا يهدىء من تأجج نارها تقدم سنه ، بل يرفع لهبها ويسعره قوة شعوره بواجبه ، وانه كان مع نفسه عسير الحساب . وما من رجل يمكن أن يقال فيه قد فتر حماسه لتسويد امته وهو القائل ، كما قال ابن الخطاب :

« والذى بعث محمدا بالحق ، لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات خشيت ان أسأل عنه » .

رجل هذا منطقه : وهذه غيرته على الأنعام ليس بعجيب منه أن يقول فى شأن الدولة التى أظلها حكمه :

« لئن عشت لأسيرن فى الرعية حولا ، فانى اعلم أن للناس حوائج تقطع دونى . اما عمالهم فلا يرفعونها الى ، واما هم فلا يصلون الى .. »

ولكنه لم يعش ليفعل ما أراد ويقسم العام سواسية بين اقطار الدولة ليرعى شئونها بنفسه ، وحيل بمنيته دون أمنيته . وانه اليوم وهو طعين مهيض تنزف الحياة من ثقوب جراحه مع دمه المسفوك لأشد غيرة على الرعية من قبل لانه اشد شعورا بمسئوليته امام الله ، والقبر موشك أن يفغر فاه . واحسبه ابدى واعاد ثم ابدى واعاد فى خاطره اسم الامام المرجو من بعده . وفى حياته كانت له عين فاحصة وبصيرة نفاذة علم بهما اى الأعواد اقوى واشد صلابة من بين

أولئك الذين تركوه منذ قليل . ولكن نفسه فيما يبدو ، كانت نهبا ، تتنازعها عواطف وعوامل شتى تعيى بها نفس سليم صحيح . تأرجحت به الى يمين تارة ، ثم الى اليسار اخرى ، ثم تكرر الجذب مرارا بين هذا وذاك ، وهو بينها كالقارب يتداوله اصطفاق الموج .

ودخل عليه الناس وقد عاوده الصحو .

وقيل له :

« لو عهدت يا أمير المؤمنين ... »

فحضره ما كان بينه وبين نفسه فى وحدته ، وتريث برهة ، ثم رفع عينا الى القوم واصبعا الى على وقال :

« قد كنت اجمعت بعد مقالتى أن أولى أمركم رجلا أحراكم ان يحملكم على الحق .. »

ولم يلبث أصبعه المشير الى على أن سقط ساكنا الى جواره ، وصمت ، واغض بصره . ولكنه ترك ابصار الناس تتحدث في صمت ، والسنتهم تتحرك بلا صوت ، وقد اتجهت نظراتهم الى فتى بني هاشم الذى لم يختلج محياه .

وعاد عمر يتم حديثه وفي نبراته وهن وتخاذل :

« ... ثم رهقتني غشية ، فرايت رجلا دخل جنة فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمها اليه ويصيرها تحته .. فخفت أن أتحملها حيا وميتا ... » .

واسلم نفسه ثانية للصمت .

فما أسعدها غشية رهقت عمر بعد اجماعه الرأى على تولية أبن أبى طالب ، وما اسعده حلما تنثلج به صدور قريش ! ... ان الرجل أول رؤياه — ان لم نقل على قدر عاطفته فعلى قدر معرفته . ولكنها المعرفة بالتأويل دون البرهان والدليل . فليكن ابن أبي طالب كيفما كان . وليبعد عن تولى مقاليد السلطان . وليأت من كرهوه بالأسباب والمعاذير لاقصائه عما اهلته له خصائصه ، ثم لسوف يعجزهم أن يجعلوا الأثرة التى الصقها به حلم ابن الخطاب احد هذه الأسباب ! ..

ومع ذلك فمتى كانت الاحلام — وان انبأت بالأحداث — تحدد تاريخ وقوع هذه الاحداث ؟ وكيف غلب على ظن عمر أن رجل جنته تلك هو علي وليس آخر سواه ؟ .. ثم أين بعد هذا حلمه عنه من علمه به ؟

ولكنها رؤيا أولها ابن الخطاب على قدر معرفته بالتأويل ، وحبس بها الحق عن صـاحبه المجلى بين الناس ، والمؤيد بالف دليل . ولقد يستطيع من شاء ان يغفر لعمر تأويله فلا سلطان له على حلم سرى اليه ابان غشـية ، ولكنه لن يسـتطيع ان ينفى عنه انه قرشى كأولئك القرشيين ، استبدت به عاطفته كمثلهم ولو عن غير وعى . لأننا نعرف ان الرؤى والاحلام ليست سوى وسيلة للتنفيس عن المشاعر المختزنة في النفوس ! ..

١١

ضاع العلم في طوايا الحلم ! .. فقد أوصى عمر حسبما شاءت رؤيا وشاءت حافظته وان لم تشأ معرفته وتجربته . وذهب كل ما خبره في ابن ابى طالب بددا ..

ولم يكن الرجل ـ وان أوصى ـ قد اختار ولكنه رسم حدود هذا الاختيار وحصر الامر فى ستة نفر من اصحابه لن تعدو الخلافة احدهم بحال ، ثم ترك لهم وحدهم ان ينتخبوا امير الاسلام .

ومع ذلك فمنذا يستطيع ان يقول انه لم يحدد موقفه اذ ذاك من على غاية التحديد ؟ ولم يقطع ـ بالتلميح دون التصريح ـ عليه الطرق الى ولاية الناس ؟ ولم يدل بدلوه مع الدلاء التى أخذت من حق هذا الهاشمي المحسود ؟ ان الرجل لم يناد صراحة باقصاء على عن الامارة . ولكن وضعه اياه مع اولئك الآخرين على سواء كان يصرخ بأنه ليس يبزهم ولا يعلو عليهم مرتبة في الشأن الذى اختيروا له . وما احسبه الا واضحا ما سوف تخسره قضية على بهذه المساواة !..

ثم دعنا نستعرض اسماء اولئك الانداد ونعرف اين مكانهم من صفوف ذوى الاحقاد ... ما من ريب فى ان ظلالا من الحسد قد لفتهم او اسرهم أو فروعا منها . وليكن خيرهم لعلى ـ وقد ادخلنا الانساب فى الحساب ـ ابن عمته الزبير ، ولكننا رغم هذا لا نستطيع أن نذكر خيره له الا مشوبا بالغيرة منه . وموقفه فى الماضى من على مذكور معروف . وموقفه منه من بعد دونه منايا وحتوف !..

لقد ألب عمر — عامدا أو بغير تدبير — على سليل هاشم احقاد قريش . وكتب له — اذ أودع الشورى اولئكم الخمسة — مصيرا مآله الفشل . ومن لعلى برضا بنى تيم بعد أن نافس شيخها ابا بكر وغالبه غب وفاة الرسول على ولاية الأمر ، وهذا طلحة التيمى له راى الآن فى الانتخاب قد يستغله فى الثأر ؟ .. ومن له بمحو الأحقاد الأموية على بنى هاشم من قلوب أصحابها بعد أن ظلوا أجيالا يربون هذه الأحقاد فى قلوب الأبناء والأحفاد عسى أن يثأر ذات يوم سليل لأمية من سليل غريمتهم الهاشمية ؟... قد كان يكفى أن تجمع شورى عمر بين على وبين التيمى طلحة والأموى عثمان ليبوء أول ثلاثتهم بالهزيمة والخسران !...

ولكنا نرى عهد الخليفة الطعين باديا فى صورة من الامعان فى تأليب قوى العصبية كلها ضد ابن ابى طالب . فلقد ضمت الشورى أيضا سعد ابن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وكلا الرجلين من زهرة ، ولكليهما نسب موصول ببنى امية أتى الأول من ناحية امه . حمنة بنت أبى سفيان ، وأتى الثانى من ناحية زوجه ام كلثوم بنت عقبة أخت عثمان . فاذا علمنا هذا ، فماذا بقى بعده يدع لعلى فرصة واحدة للفوز ؟ ... وأى بطن من قريش ينصف قضيته وقريش كلها خصومه وقضاته فى آن ؟...

وكذلك كانت وصية عمر بالشورى تومىء الى الرجل المغلوب كما يومىء عهد مكتوب !..

وخرج أصحاب الشورى من لدن الشيخ الجريح بوجوه غير التى دخلوا بها عليه ، فى قلوبهم الوان تباينت من المشاعر ، وفى نفوسهم أهواء شتى تصطخب وتتلاطم وكل له هم سوى هم أخيه .

وكان الناس عند الباب فى جموع تنتظم الكبير والصغير ، قد تدافعوا ينظرون الرجل الذى ظنوا أن انعقد له اللواء . ولكن الأمر بدا كأن لم ينضج ، وتعلقت آلاف العيون المتطلعة الى ذلك الربعة الضخم وهو يسير اليهم كما يتحدر السيل . وبدا لهم وجهه الأسمر النبيل ، وقد انحسر ما كان من شعر يتوجه فى الماضى عن جبهة يتحدث فى سعتها الذكاء . ونطقت عيناه ببسمة حنان تغشاها اسى وشاه الأستحياء . وهفت القلوب اليه ، ولكن هيئته أوحت لهم باصطناع السكون وكبت ما يضمرونه من حب مكنون . ولكنهم انطلقوا

نحوه مكشوفى العواطف تحت نقاب النظرات الرقيق ، فأولئكم العامة كانت نفوسهم اصفى من أن تعرف المراءاة وانقى من صفحة مرآة .. لم تفسدها الأغراض ولم تشبها ، بل كانت ان كرهت فلله ، وان احبت فلله ..

تكأكأت عليه الجموع وكلها مستضعف وزاهد وفقير .. ولئن تباينوا بين عبد وحر الا انهم فى الحرمان كانوا سواء : هذا لا يملك ما يملأ معدته ، وذاك لا يملك ان يفك رقبته ، وانما الفت بين قلوبهم عاطفة الاكبار والاخلاص لابن عم الرجل الذى جعلهم ناموسه فى صف واحد مع أعلى الناس .

ولم تكن العاطفة وحدها هى التى الفت بين قلوب الشعب على هذا الرجل الضخم الاصلع القصير ... لقد احبوه حقا بحبهم رسول الله ، وقربوه الى نفوسهم لقربه منه . ولكن سجايا له ظاهرت هذه العاطفة فى قلوبهم ومكنت لها ، وخصالا رفعته فى أعينهم كما رفعت ابن عمه الكريم ولما يهبط عليه وحى من السماء . وان الكثيرين منهم ليذكرون عليا من مهده فلا يستطيعون الا اكباره فى كل مراحل حياته ، ويحصون المحامد فى الناس مجتمعين ، ولا يسعهم الا جمعها له منفردا ، ثم تبقى له بعد هذا صفة واحدة جديرة بأن توليه عطفهم الخالص ، هى أنه مظلوم بأنداده ، محروم من تراثه الذى كان له اهلا منذ اكثر من عشرة أعوام ، وكفى بهذا الحرمان صفة تؤلف حوله قلوب أولئك الذين ذاقوا فى حياتهم مر الحرمان .

ومضى على صامتا فى زحمة الناس وهم يتهيبونه فيه غضبة ليث مشى على عرينه غريب . وكان ألمه باديا فى عينيه ، وغضبه قد نم عنه هذا العرق الضخم الذى نفر فى جبهته يكاد ان ينبجس منه الدم . ثم لم يلبث الزحام أن تفرجت صفوفه ، وانفغر عن شيخ اشيب مهيب يشق طريقه بين الناس ويوسعون له تهيبا لقدره ... حتى اذا أصبح من ابن اخيه قيد خطوة استطاع ان يسمعه يهمس :

« يا لله وللشورى !... »

فتوجس العباس . وهتف به يسأله :

« فما العهد يا أبا الحسن ؟ »

« جعلها فى جماعة زعم أنى احدهم ... »

وبان الألم في عينيه .. ولم يفه العباس بحرف كأنما قد بغته

ما سمع . ومضى الى جوار ابن اخيه يسمع منه نبأ الشورى ولايملك ان يميط الدهشة عن نفسه .. قد كان هذا اليوم اولى الأيام بعودة الحق الى صاحبه بعد ان عرف الاسلام طريقه الى النفوس ، واستقر فى القلوب أعواما كفيلة بأن تنسى الناس عصبية الجاهلية ، وتميت الأحقاد القديمة التى توارثوها . ولكنه الآن علم انه احسن الظن بطبيعة البشر .. وتكررت للمرة الثالثة امام عينيه نفس الصورة التى بدت له عند وفاة الرسول . وظهرت قريش تماما كعهدها الأول، حاقدة ناقمة على بنى بيته وبيت آبائه ، متربصة لهم تتحين السانحات ... وليس اختيار ذينكم الرجلين تباعا بعد موت محمد سوى مظهر لاستمساك القوم بشريعة الأحقاد ..

وزفر على تبرما وهو يذكر ما فات ، ثم قال باستنكار :

« متى أعترض الريب فى مع الأول منهم حتى صرت أقرن الى هذه النظائر ! ... »

أجل متى اعترض الريب فيه مع أول الخليفتين !.. الا قد كان جليا غاية الجلاء لكل مبصر ان ابن أبى طالب وشيخ بنى تيم لم يكونا على سواء ، وان الهاشمى الصغير كان اذ ذاك اولى بالأمر من أبى بكر ، لولا تدافع الأحداث مرة ، والاستجابة لهذه السخائم القديمة مرات ! .. ولقد مرت بأول الرجلين فترة اراد فيها أن يستقيل الناس بيعتهم . ثم فترة اراد فيها ان يرد الأمر مختارا الى ذويه ، ولكنه فى اللحظة الاخيرة رأى رأيا فى رجل هو بدوره فى اللحظة الأخيرة رأى رؤيا .. فكان الذى كان !..

وهز العباس رأسه هنيهة يتفكر ، ثم قال وفى صوته نبرة عزم :

« يابن اخى .. لا تدخل معهم ، وارفع نفسك عنهم »

وصمت . وتفرس على فيه يرقبه ثم اطلق لذهنه العنان يعمل مسرعا على استيعاب فكرة شيخ بنى عبد المطلب الرشيد .. قد كان رأيا كفيلا حقا بأن يضعه موضعه الحق على رأس اهل الشورى الذين يعلوهم هو ولا يعلونه ، ولن يكون متجنيا على الواقع لو جاهر بأنه يأبى ان يكون واياهم على سواء ، وانه يتوقف عن الاشتراك فى الشورى ، لانها مظهر وضع من قدره اذ سوى بينه وبين غيره .. ولكن ماذا عساه سيفيد من وراء هذا التوقف ؟.. وهل ان رفعه درجة فى عيون مريديه لن يثير عليه حفيظة نفوس أناس سيرون فى

توقفه تعاليا وصلفا ؟.. ومنذا يملك من كل هذا الشعب ان ينصره ويؤمره بعد وصية ابن الخطاب وتحديده من لهم حق الانتخاب ؟.. ثم هلا كان توقفه أدعى الى استجلاب نقمة اهل الشورى عليه — وهم الذين يملكون وحدهم أن يبرموا الأمر دونه ويثأروا منه بتاميرهم واحدا من بينهم سواه ؟..

لذلك حزم على أمره ، وقال يرد فكرة العباس ، ويتوسل فى ابائها بأرفق جواب :

« انى يا عم اكره الخلاف .. »

فتلفت الشيخ نحوه مهموما ، وقال بحرارة :

« اذن ترى ما تكره !. »

ثم مضى عنه بهمه وألمه .

١٢

لم يغب مغزى كلمات العباس عن ذهن على ، بل ان هذه النبوءة جرت فى خاطره قبل أن تجرى كلاما على لسان الشيخ ، وعلم مآل حقه من الضياع منذ اللحظة التى كان الجريح يذكر فيها اسماء الذين حصر فيهم الأمر ...

كان هذا واضحا غاية الوضوح بلا حاجة الى اعتساف دليل او سماع قول صريح يدلى به الخليفة الطعين . ولئن كان عمر قد ذكر ابن أبى طالب بين أصحاب شوراه فانه فعلا قد اقصاه ، وبحسب المرء أن يتبين الأنساب ليعرف حقيقة الجواب !..

ولكن عليا آثر أن يتناول الأمر بالرفق والتريث ، ولم يشأ أن يتولاه بالعنف الذى اراده عمه مخافة أن يرميه خصومه بحب الخلاف والصلف والاستعلاء ، او ان يتهموه — على احسن الفروض — بالعجلة والقفز الى الخواتيم قبل أن يثبن وقتها المفروض ... هذا لو كانت فى نفوسهم حياله بقية لاحسان الظنون .

قر اذن فى فهمه ما سوف يكون وبان لبصيرته ما يرجون .. لا خطرة من نفوسهم تغيب عنه ، ولا ظن يميل به عن الواقع الوشيك

الحدوث الى الوهم الذى يستحدثه الخيال . ولكنه الاستقراء الصحيح والرأى الرجيح يسيران جنبا الى جنب مع المنتظر من اربعة من المختارين — على التحقيق — كما تسير الأرقام فى العملية الحسابية فتنم بلا كبير عناء عن الجواب المرقوب .

قد كان احدهم حقا غائبا عن المدينة لم يعد بعد . ولكن اجماع الثلاثة الآخرين لا يعوزه تأييد من هذا الصاحب البعيد ، ولن ينقض طلحة امرا يبرمه هؤلاء ، ولن يكون من رأيهم الا كما يشاءون . بل لقد بدا من علمهم بموقفه — وان غاب — ما كان من حديث سعد مع ابن الخطاب .. قال عمر وهو يوصى الخمسة مجتمعين :

« .. وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر ، فان قدم الى ثلاثة ايام فأحضروه امركم ، والا فأرضوه .. ومن لى برضى طلحة ! » .

فأسرع سعد اليه بالجواب :

« أنا لك به يا أمير المؤمنين ، ولن يخالف .. »

ومع ذلك فدع هذا الغائب وطف بأولئك الباقين ، وليحضرك في هذا الطوف ولاء الاعراب لنواميس الجاهلية وان ضمهم الاسلام .. تلك النواميس التى تقدس عصبية الأسرة وتقدمها ، وتعيش فى حاضرها بهم الانتصار الموروث من عاداتها ومن ثاراتها .

لقى على بعض بنى هاشم فحدثوه عن وصية عمر ، فقال لهم ، وقد حضرته مواقف قريش من آله منذ أجيال ، وتواترت أمام بصيرته سلاسل أحقادها ومواجدها :

« ان أطيع فيكم قومكم ، لم تؤمروا أبدا !. »

فلم يعد حقيقة الحال فى الماضى والاستقبال ، وقد كانت الطاعة لقريش والإستجابة لسياستها العليا هى المظنون وقوعه من نفر الشورى الذين يمثلون قريشا أصدق تمثيل .

* * *

... ثم طف بأولئك الباقين فانظرهم — خلف الدين — عربا وقرشيين .

وسر قدما بعد هذا الى الجواب المرقوب من العملية الحسابية بلا كبير عناء ! ولتجدن الزبير نفسه ، ظهير على ، لن يصدر فى تأييده

اياه الا عن استجابة لقرابته وعصبيته ، ثم لترين الثلاثة الآخرين صفا واحدا امام سليل الهاشميين .

لا ريب كانت هذه اللحظة فرصة قريش المواتية اعادها القدر ثانية في يدها — بعد تأمير ابى بكر — لتعاود فوزها المرجو على بيت هاشم .. وكان للقوم شغف بمجالدة البيت المحسود منذ اوقعت الأيام — من قديم — بينهم وبينه النزاع على النفوذ والجاه .. وكانت امية دائما اعتى القوم واشدهم عليه موجدة ، وهى الآن ، برجلها عثمان — وشيكة ان تقتص لنفسها فتنتصر وتحقق مالم يسعها قبل اليوم تحقيقه من حلم الاجيال .

ولسنا نستطيع أن نرمى ابن‌عفان بالنهم — اذ ذاك — الى السلطان ، ولكنا لا نستطيع أيضا ان نظن له الزهد فيه .. واذا كانت طيبة قلبه وحياؤه وعلو سنه كفيلة كلها بان ترده عن طلب السطوة على الدولة ، فان حق اسرته عليه ونداء الماضى ، وعوامل الوراثة التى جرت فى عروقه مع الدم كانت تحفزه جميعا على أن يطمح حيث لا حرج عليه من الطموح ، وعلى ان يتقدم ليفوز وقد هيأ له قدره اسباب الفوز ووسائل الانتصار .

هيأ له قدره هذه الوسائل والأسباب أم ترى هيأتها له وصية ابن الخطاب ؟ لن يغير من الأمر ان نتلمس المعاذير ، ونترفق فى التقدير ، فنحسب ان الخليفة أوصى وهو لا يميل الى ترجيح واحد من الستة على من عداه .. ذلك لأن الحساب لا يجب البيان ، والظن وان نفته كياسة العقل فقد اثبته الفعل .. وما كان لامرىء من الناس الا ان يعلم مقدما بفوز عثمان بن عفان قبل فوزه وقبل ان يقر أصحاب الشورى على قرار وهو لا ريب عالم به مستيقنه من خلال أسماء الرجال الموكول اليهم الاختيار .. وكفى بعثمان أن يكون له ظهيران فيهما عبد الرحمن ، ومكان عبد الرحمن من‌الشورى ليس يعلوه مكان .

كذلك نرى عبد الله بن عباس ، لا يكاد أن يسمع بما كان من وصية عمر حتى يسرع دهشا ، جلل القلق والحيرة وجهه وخاطره ، فيقابل ابن عمه يستخبره الامر :

« اقال لكم أمير المؤمنين : ان رضى ثلاثة منكم رجلا منهم ، ورضى ثلاثة رجلا منهم ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ؟ . »

« نعم .. »

فيهتف الفتى مستنكرا في ضيق :

« قد ذهب الأمر منا ! » .

ولم يكن هذا بالجديد على علم على لانه استيقنه من البدء وقال فيه لعمه العباس :

« .. سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر لعثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن عثمان او يوليها عثمان عبد الرحمن .. »

ولكنه مع علمه هذا آثر الصبر لأنه كان يرمى الى امر ..

وقال هادئا يشرح الأمر لفتاه :

« انى اعلى يا عبد الله .. ولكنى ادخل فى الشورى معهم لان عمر قد اهلنى الآن للخلافة وكان من قبل يقول ان النبوة والخلافة فى بيت واحد لا تجتمعان .. »

أجل فقد كان هذا رأى عمر ، او هكذا كان يقول فى الماضى ملتمسا الحجة فيه لقريش على ما سبق من عدوانها على حق على ، وحرمانه ولاية الأمر بعد رسول الله .

وراح ابن ابى طالب يدلى برأيه لابن عباس :

« أردت أن أظهر ان روايته تناقض فعله .. »

وحقا نقض الفعل الرواية وان جاءا كلاهما بنفس الغاية !..

ومع ذلك فلم يرفع على نفسه عن الشورى ، ولم يمتنع عن مجلس الستة بل آثر أن يسير معهم فى الطريق المرسوم وهو يعلم الى اين سيفضى .. لا يخالجه الشك لحظة واحدة فى انه لا بد مقطوع ما بينه وبين حقه ، مبتز تراثه ، مقضى عليه بالهزيمة فى ميدان جردوه فيه من كل سلاح ..

١٣

غلب على عمر اجله ، ومضى الرجل عن فراشه بداره الى مثواه بجوار رسول الله ، محمولا على اعناق بضعة نفر من صحبه ، ولو ترجمت مشاعر النفوس الى فعال لحملته رقاب من وسعتهم الدولة الاسلامية من نساء ورجال .. ولكنه ذهب عن الدنيا عازفا عنها ، مرجوا منها ، وقطع الموت ما بينه وبين دنياه من اقبالها ومن قلاه ..

وانكفأ النـاس عن القبر بأوصاب وآراب ، تجاورت فى القلوب كسير الأمل فى اعقاب المحنة . والحياة دائما تورث الفواجع ثم تورث على اثرها المنى السـواطع .. انكفأوا عن طـريح الثرى بالبرحاء وبالرجاء . فلما غابت عن عيونهم الحفرة التى طوت العلم ، استدبروا الهم الواصب في اليوم الذاهب ، وتهيأوا ، مفتحي القلوب لاستقبال الغد المرقوب .. وما سنة البشر فى عيشها على هذه الأرض سـوى ان تطرح همها لأمسها وتصل رجاءها بغدها .

وكذلك انطلق الناس من لدن القبر ، وكلهم قد علق بالغد القريب فكره ، يود لو استطاعت بصيرته نفوذا الى الغيب فراى كيف تسير الامور بعد العاهل الصريع .. وكيف توطىء الاحداث لخلفه ؟. ومنذا فى النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض سوف يكون اميرا على المؤمنين ؟

كانت الجموع كلها تأمل ، وتسير فى قلوبها — مع الأمل — خشية المستقبل لا فرق فى هذا بين فريقى الاسلام اذ ذاك : قريش لها من فوزها بالامر دفعتين بعد وفاة محمد ، امل عريض فى ان تفوز ثالثة ، وان بدت الحال الآن على غير ما كانت من قبل بعد تفتح الأذهان لما سبق من سطوها على السلطان وابتزاز الحق من ذويه ، ولكنها ما زالت تأمل في الفوز على صاحب الحق كان تكرر انتصارها جملها تشعر انهـا جديرة بالنصر ، وان لم تكن صاحبة الامر !.. واهل المدينة من الانصار ومن لف لفهم من المهاجرين المنصفين لهم امل معقود على على وهوى أن يعود له ما سلبه اياه قومه طغيانا وموجدة ، ولكن الأمل المعقود

زالهوى المنشود ألقت عليهما شورى عمر ظلالا قد لا تستطيع معها المفول أن تنفذ الى مصيرها المجهول ، أو تستطيع ، ثم لا تعود من نفوذها الا بغير المأمول !.

على أن الذى لا يحتمل الشك هو أن الكثرة الغالبة من الناس — وفيهم قريش — لم يكن يسعها الا الاقرار لابن ابى طالب بما يميزه ويرفعه درجات على بقية المختارين . وكان هذا واضحا لكل ذى نظرة عابرة بلا حاجة الى تكلف المقارنة أو محاولة التدليل . وما من احد من الناس الا لعله الم بطرف من رأى عمر في النفر الستة ، ثم ما من أحد الا قد أخذته الحيرة من مسلكه ازاء على حين جمعه الى خمسة رأى هو انهم لا يثبتون أمامه عند الموازنة والتفضيل !.

قال عمر لصحبه وقد اجتمعوا لديه وهو طعين :

« .. ما أظن الا ان يلى أحد هذين الرجلين : على أو عثمان ، فان ولى عثمان فرجل فيه لين ، وان ولى على ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق .. »

مع ذلك فلم يوص للرجل الحرى بحملهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء ، بل آثر أن يدعه وشأنه للنفر الآخرين يستخلص منهم حقه لو استطاع !.. وانى لهذا الهاشمى أن يستطيع وقد مثلت قريش كلها في أنداده أو فى مناوئيه !.

ولكن هوى شعب المدينة كان مع على ، وما زالت قلوب أفراده مقيمة على ودها القديم له ، وان احدى عشرة سنة ليست بالستار الكثيف الذى يحجب عن ابصارهم منظر فاطمة الزهراء ، اذ خرجت تطوف بمجالس الأنصار تدعوهم ان يظاهروها لتسترد لزوجها تراث أبيها . تلك ليلة جديرة بأن تبقى على الزمن فى الأذهان ، وأن يثير ذكراها قوية ، لها كلسع الجمر فى قلوبهم ، ما كان من قعودهم عن نصرتها وهم يرون تراث نبيهم نهبا آل الى غير أهله . كم بدا طيف الزهراء فى هذه اللحظة كالشهاب الثاقب يشق ظلمة الأعوام !. انهم ليكادون يرونها الآن رأى العين ، تسير مرفوعة الرأس ، على جبينها يتألق شعاع ، قد نم محياها عن ملامح محمد أو كاد . ثم هذا الهواء المنثور حولهم يتحدث اليوم عنها ، وينطق بلسانها ، وقد مضت عليها فى قبرها أعوام حال فيها الموت بينها وبين الكلام . كأن الماضى انعكس ثانية على مرآة العيون والأسماع ، وكأن الزمن آب بعد ذهاب ! وكأن

ما ضمته النفوس من ذكرى مطوية قد نشر احداثا حية تسير فيها فاطمة بين اهل المدينة وهي تدعوهم وتقول :

« افتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره .. ؟ »

تلك دعوة صحت اليوم من سبات ، ومشت فى قلوب الشعب كخفقها تشعر بالحياة .. وما كان الناس حين ترددوا عن الانتصار لابنة رسول الله من خليفته الاول الا كالنائم على الشوك لا يلبث ان يحس وخزه ، وهم اليوم قد تفتحت عيونهم بعد طول رقاد ، ورأوا الحق القديم حيث كان ، والعدوان عليه لا يغيره تغير الأشخاص ولا اختلاف الزمان ..

ولكنهم بهتوا وهم ينظرون ، وقصرت ايديهم عن ان تنال من قلعة عمر !.. ان الرجل ليبدو وقد بنى سياجا من الفولاذ حول « ولاية الامر » لا تستطيع مشيئتهم اجتيازه ، ولئن كان الاصل فى الشورى ان يكون للشعب حق اختيار واليه ، فماذا ترك لهم عمر من حق الاختيار ؟.. واين شوراه الشكلية من الشورى الصريحة الاسلامية ؟ وكيف جرى بخاطره ان راى رجال — قد لا يعدون الثلاثة — يعادل آراء كل افراد هذا الشعب او ينطق بالسنتهم احمعين ؟

وفي الحق لقد كانت الشورى العمرية ضربا جديدا من العهود ، لا الى الشورى ولا الى الوصية ، ولم يكن لها مثيل قبلها فى الاسلام . وهى بنحوها هذا نوع من « الاختيار قبل الانتخاب » لولا انه سلب الشعب حق الانتخاب ونحله نفرا ستة ، مهما علت اقدارهم فليسوا يملكون الا ستة آراء !.. ولقد كانت لعمر — بلا ريب — مندوحة فى الشورى المثلى التى ينم عنها روح الدين وتدعو اليها شريعته التى سوت بين الناس . واذا كانت الأحداث لم تتح من قبل للمسلمين ان يأخذوا بأمثل نحو من انواع انتخاب الامير ، فقد عالجوا غب وفاة الرسول نحوا قريبا منه ، بأن اشترك فى اختيار ابى بكر كثير منهم ، لعلهم يمثلون بقية ذوى الآراء او اغلبهم على اقل تقدير ، وهم اليوم بعد انتشار الاسلام وركوز تعاليمه فى النفوس كان اولى بهم ان يلتزموا الشورى الحقة التى دعت اليها هذه التعاليم .

ولكن ابن الخطاب راى رأيا وابرمه ، وانتهج بهذا نهج صاحبه ابى بكر ، فكلا الرجلين قد آثر أن يحول بين شعبه وبين مزاولته حق انتخاب واليه ، أبى الا ان يفرض — منفردا — على الناس رأيه . ولئن

كانت هناك أسباب دعت الاول الى املاء مشيئته ، أو معاذير اضطر الثانى حيالها الى الجنوح للاملاء ، فانها جميعا لن تحجب عن الأذهان البون الشاسع بين نظرة الخليفتين ونظرة غريمهما المغبون الى حقوق الشعوب فى اختيار الولاة . وبحسبك ان تعود قليلا الى الوراء لتسمع كلمات على فى هذا الشأن ، حين أراد العباس وابو سفيان ان يبايعاه يوم وفاة رسول الله ... لقد ابى عليهما ما اراداه لانه يعلم ان راى الشعب لا يغنى منه رأى رجلين او بضعة رجال . ورفض الأكف التى احبت أن تقدم اليه السلطان ! وقال :

« لا والله !.. فانى أحب أن أصحر بها .. »

وكانت كلماته هذه مركبه الى خسران قضيته فى تلك الآونة من الزمان ، ولكنها مركبه ايضا الى العظمة التى تتسنم القمة ، لأنها — وان جارت على حقه فى الولاية — فقد اقامت الدعامة الثابتة لحق الشعوب فى تنصيب الولاة .

١٤

قصة الشورى جديرة بأن يتلكأ عندها برهة ذهن المتدبر لأن فيها — برسمها المعروف — شيات : فيها خروج على مبدأ الشورى الذى املاه على النفس البشرية حب الحرية قبل ان يمليه دين او تسنه قوانين ... وفيها تحكم الفرد في الجماعة اذ يلزمها أن تترسم رايا رآه فى نفر اختارهم وفق تقديره ان لم يكن وفق هواه ... وفيها تعسف التسوية بين ستة تجاهر المزايا والفوارق بأنهم ليسوا على درجة واحدة في شرعة المساواة .. وفيها تكتيل للقوى العصبية وللأحقاد القبلية وتجييشها صفا يرجح ميزانها ويمد لها في حبل الطغيان .. ثم فيها قبل هذا وذاك نكوص عن الراى الصائب الذى كانت تفرضه منذ البدء مصلحة الشعب ، راى متعثر لم يكن قرين الصواب ...

ما كان عمر بالرجل الذى يعمل عفوا دون أن يهدف الى غاية من وراء عمله ، أو بالغرير الذى يكل الأمور الى تصريف المقادير . ولكنه كان موفور الحنكة ، بصيرا بمواقع خطاه . ولو انه حين اختار اولئك

الســتة كان طعينا يعانى من جراحه آلاما قد تحــد من قدرته على احسان التفكير ، الا انه كان جلدا قويا على دائه الى حد لم يدع آلامه تعيى عقله .. ونحن عهدناه من قبل تغلب عليه الدفعة حتى لتركبه شططا ، فان اختياره أهل الشورى لم يكن عن دفعة بل جاء عن تريث وروية ، ليس ادل عليهما من انه كاد فى بادىء الأمر ان يوصى لعلى ثم عاد فنحاه عن فكره ونفض منه يده ..

ومع ذلك فما من حكمة يستطيع من يمعن التدبر ان يراها ماثلة وراء عهده بالشورى وحصره الخلافة فى ستة يختارون من بينهم اميرا .. وان عمر الذى تعودنا ان نرى له العذر ظاهرا فيما صدر عنه من امور تحسب عليه لا نستطيع ها هنا ان نلتمس له عذرا . فاذا قيل انه توسم فى النفر المختارين خلاصة المسلمين ، وانهم الأفراد الذين تلتقى عندهم مشيئة شعبه ، وان اختيارهم واحدا منهم يكون اقرارا من الباقين على كفايته ، وان هذا المختار سيكون له من الاقرار سند يلف حوله الناس ويجمع كلمتهم عليه فلا يشجر بينهم خلاف .. ان قيل هذا كله على انه الحكمة الماثلة وراء قصة الشورى ، والهدف الذى رمى اليه عمر اذ ذاك ، فان قائليه اذن قد فاتهم الصواب فى التعليل ولم يحسنوا التأويل !. وبحسبك أن تعلم ان عمر نفســه كان لا يرى هذا الراى حين انتهى به الأمر الى ان عهد عهده ، بل قال لأصحاب الشورى وقد دعاهم اليه غداة الاعتداء عليه :

« انى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هــذا الأمر الا فيكم ؛ وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض .. انى لا أخاف الناس عليكم أن استقمتم ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس » .

هكذا كان الرجل يخشى أن يختلفوا عند جلوسهم لانتخاب احدهم وكان محقا فى خشيته ، له من ماضيهم ومنازعهم وتقاليدهم الموروثة نبراس يضيء امامه المســتقبل القريب فيراهم قــد اجتمعوا لاتفاق وانفضوا على شقاق !..

اجل كان هــذا ماثلا امام عينيه كانه صــور مرسومة ، واضحة المعالم ، تفصح ولا تخفى وكان فى استطاعته ان يستعرضها جميعا فتبدو امامه كالمرايا ينعكس على صقالها الخلاف الوشيك الوقوع .

كان جديرا بأن يرى فى اولاها طلحة متمردا على الخمسة الباقين،

لا يقر لأحدهم بالسبق عليه لانه عاش قبل اليوم عشر سنوات يحلم بتسنم الحكم وهو بعيد عنه ، فاحرى به أن ينتصر لنفسه وهو قريب منه !.. ولئن غاب طلحة عن المدينة ابان أيام الشورى فلقد كان المظنون فى البدء أن يحضر قبل الفراغ من الاستخلاف . فأى المواقف كان لله واقفه لو استطاع الحضور ؟ ومن من بين الرهط الذين رضى عنهم رسول الله كان سيختار ؟. ان الصورة التى لا بد قد استعرضها عمر كانت تبين الرجل فى اجلى بيان ، وتبديه طامعا فى الخلافة من عهد ابن عمه أبى بكر ، متوقعا من يوم الى يوم أن يحين أجل الشيخ ، وان تقترب منه منيته قربا لا يرى معه بدا من ان يرعى حق القربة فيوصى لطلحة من بعده .. فأما وقد خالف أبو بكر ما كان مرجوا منه. وأدلى بسلطانه الى عمر ، فقد غضب الحالم الطامع وثار بابن عمه .

« ما أنت قائل لربك غدا وقد وليت علينا فظا غليظا تفرق منه النفوس وتنفض عنه القلوب ؟.. »

ثم لم تغب عنه امنيته لحظة ، وظل التفكير فى الهدف المرموق ديدنه حتى استطاع ان يتألف بعض الناس ويتخذهم حزبا يحلمون له !.. وكان لاجتماعه بهم سمات قد يظن معها التآمر والتدبير في الخفاء اذ حرصوا جميعا على التلاقى سرا والتحدث سرا ، ثم لا ينون كلما شاهدوه أن يقولوا له :

« .. لو مات عمر لبايعناك » .

وفي الحق لا يسع المنصف أن يجزم بأن طلحة كان ميالا الى ابتزاز سلطان عمر عنوة ، ولكن الجموع السياسية لا يمسكها دائما العقل ، وهى أحيانا لا تعدم ان يكون فيها من لا يقر التريث وامهال الأيام حتى تجيء له بهدفه ، بل يرى عليه حقا أن يتعجل ساعة تحقيق مأربه .. واذا كانت هيبة الخليفة اذ ذاك قد جعلت هذا الحزب يقرن البيعة لزعيمه بشرط وفاة عمر ، فانه شرط كفيلة به الأيام اذا فرغ العمر ؛ أو شرط كفيلة به دفعة شاب قد ينوء بالتريث !. والأحزاب السياسية عادة تتوسل بكافة الوسائل لنيل اغراضها ولن يعيى فردا منها ان ابطأ بغريمه الموت أن يصطنع له نوعا منه !.

على ان عين عمر الساهرة النفاذة استطاعت ان تهتك ستر السر وتكشف عما يدور في الخفاء . فارتقى المنبر وراح يحذر الناس .

« .. قوما يقولون ان بيعة أبى بكر كانت فلتة . وانه لو مات

عمر لفعلنا وفعلنا .. الا فاى امرىء بايع امرا عن غير مشـــورة من المسلمين فانهما بغرة ان يقتلا !. »

ومع ذلك فان عينه تلك شاءت ان تغلق أجفانها دون هذه الصورة ودون أخريات فيها سليل بيت النبوة ، وفيها حفيد امية وآخرون كانوا نتاج الأحقاد القرشية .. لكأن الرجل آثر ان يغضى عن هذا كله وتركه لأفراد شوراه يتعثرون فيه ـ اما وقد أوصى كما شاء فبغير اتفاق هـــذا الجميع على أصلحهم للأمر جاءت وصـــيته ان لم نقل سبقت نيته .. ولغير الصالح العام كان عهده المعهود لأنه كان يعرف منذ البدء أى الستة كان اولى بأن يوكل اليه أمر شعبه .. وعلى غير العدل المشهور عن عمر ، الموسوم به طبعه قام أس الاستخلاف ، وما على المتدبر ، وقد أعياه أن يرى خلف الشورى حكمة تتفق والمظنون بصفاء ذهن الرجل ورجاحة عقله الا أن يطرح جانبا قصة الشورى ، وذهن الخيفة وعقله ، وآيات عدله المأثور عنـــه ، ثم يبحث في طوايا النفس البشرية عن الحكمة الخفية : اجل فما عمر الا بشر له هواه ، وقد ارضاه فأرضى قريشا كلها من ورائه لأنه وطد سلطانها بشوراه !.

هذه حقيقة ناصعة ليس للريب اليها سبيل ، ولقد كان عمر فيها رجلا من قبيله وقومه ، له مشاعرهم وان جنحت الى حيف ، وكانت وصيته وســيلة لتنفيذ السياسة التقليــدية التى استنتها لنفسها قريش منذ وفاة الرسول ، ثم هى متممة للسياسة التى جرى عليها سلفه ، والتى جرى من قبلهما عليها قومهما حيال بنى هاشم بضعة اجيال .. ولا ادل على انها كانت طابعا وسموا به ونهجا التزموه ، من قول على عنهم :

« انى لأعلم ما فى انفسهم .. ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر فى صلاح شانها فتقول : ان ولى الأمر بنو هاشم لم يخرج منهم أبدا ، وما كان فى غيرهم فهو متداول فى بطون قريش » .

١٥

كان طبيعيا أن تفشـــل الشورى من اول اجتماع ، وأن يحتـــدم الجدال بين أصحابها مسعرا حسبما اوحى طبع كل منهم ، أو طمعه ، أو شـــعوره بحقه أن يطلب الأمر لنفسـه . وما كان لخمسـة اختلفت منازع أهوائهم أن يلتقوا عند رأى .

وكان أبى طلحة الأنصارى ، تنفيذا لمشيئة عمر ، واقفا قرب الدار يرقبهم وقد صف جندا على راسه المقداد يمنع عنهم الناس . وكان الشعب ينتظر فى لهفة ما سوف يسفر عنه الاجتماع ، والفضول يأكل قلبه حتى ليوشك أن يقتحم البيت لولا هذا الحرس الشاكىالسلاح . ولم تكن هنـــاك بادرة تنبىء عن قرب الاتفاق ، بل كلمـــا مر الوقت اتسعت رقعة الجدل وعاد أصحاب الشورى القهقرى الى حيثما بدأوا الحديث والحوار . ومرارا تكأكأ افراد من العامة على المكان عسى ان تلتقط آذانهم كلمة أو كلمات .. ومرة ازدلف عمرو بن العاص فجلس بالباب ثم تلاه المغيرة بن شعبة : ذانك الداهيتان أرادا أن يرفعا من منزلتهمـــا فى عيون الشعب بهـــذا القرب بعد أن عـــداهما اختيار ابن الخطاب !.. على أنهما مع هذا لم ينعما بالمكانة الموهومة طويلا لأن ابن ابى وقاص قام اليهما يقول بغلظة وهو يردهما عن الباب :

« تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى أهل الشورى !.. »

ولكن الفضول الذى حملهما ، وحمل الكثيرين من الأفراد ، على المكث قرب الدا ، لم يكن مرده الشوق وحده لمعرفة الخليفة الجديد ، بل كان هناك ما هو أولى باجتذاب اهتمام الجماهير وقد قل فيهم من لم يعلم بنبأ الأمر الذى القى به الخليفة الراحل الى المقداد وأبى طلحة حين قال :

« .. اذا وضعتمونى في حفرتى ، فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وقم على رءوسهم ، فان اجتمع خمسة ورضوا رجـــلا وأبى واحد فاضرب رأسه بالسيف . وان اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما . فان رضى ثلاثة رجلا

منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر .. فان لم يرضوا ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس » .

ما من احد من الذين تكأكأوا حول الدار الا مرت بذهنه صورة راس او رءوس توشك ان تطيح على حد سيف فجلس يترقب حلول ساعة الجلاد !.. اجل ، فلهذا تربص ابو طلحة ، وتهيأ المقداد وصف جنده وبه رسم عمر الناحية التى تتمم بمنفذ في الموت ما كان من عنفه المشهور في الحياة !..

ومع ذلك فالارهاب سلاح وقتى ضعيف لا يلبث ان ينثلم حده ، وهو ليس دائما سبيل الرضوخ والتسليم . بل لعله اولى به أن يزيد من شكاسة النفوس حينما تلوح لها الفرصة لانه يجعلها تشعر حياله بهوان تأباه . وقد اعيى القوة ان تملك حرا وان اصابت منه اذ هى ضرب من اللغات غير مفهوم عند الأباة .. وانما منطق الأحرار الحق .

وكما بقى الجمهور خارج الدار نهبا بين القلق والفضول ، فقد بقى الخمسة المجتمعون نهبا لآرائهم المتباينة لا يقرون على قرار . وطال الحديث بينهم فيما لا طائل تحته ، كلما جاء احدهم برأى سمع نقيضه من لسان غيره . ولو انهم جنحوا جميعا الى الهدى ، وتخلوا عن اغراضهم لحظة ، لتبينوا ايهم اجدرهم بامرة الناس ، ولآثروا صلاح الأمة على صلاح الأشخاص ، ولوسعهم بلا كبير عناء ان يصلوا الى الغاية المرجوة برد الحق الى صاحبه الذى حرمه مرتين .. ولكنهم كانوا بشرا قبل كل شيء ، يعيش فيهم حب الذات وتميل بهم الأهواء . واذا كان الماضى قد ألفت آثاره — التى علقت بقلوبهم — بين عثمان وسعد وعبد الرحمن ، فان عمر بن الخطاب اذ قرنهم فى الشورى بعلى ، قد ولد فى نفوسهم نوعا من الشعور جعلها به ترتفع فى اعينهم الى ما فوق القدر الذى عرفوه لها من قبل ، وما كانوا اليوم بعد شعورهم هذا ليقروا لابن ابى طالب بالتقدم والفضل !..

ان ها هنا — بلا ريب — اناسا غلبتهم على الحق الاهواء ، ومن القدم كان الهوى آفة الحكم ، ولولا ما يعتور نظرة الانسان الى نفسه من تحيز لبانت لهم أسباب تدعوهم الى التأخر عن صاحبهم وترك السبيل له .. وليكن سعد محاربا فذا وجنديا أمثل اتسعت رقعة الدولة الى المدى الذى وصله حد سيفه ، ولكنه ليس الرجل الذى يستطيع ان يسوس

أمة بعد ان عجز من قبل ومن بعد عن حكم جزء واحد من هذه الامة ، حتى عزله مرة عمر ، وعزله ثانية خلفه .. وليكن طلحة كبيرا فى قومه مسموع الكلمة ، قد حلقت به اطماعه الى السماك ، ولكن مطامع المرء لا تنبىء عن قدره ورفعته بل قد تنبىء عن ضعفه وآفته . وقديما قال فيه ابن عمه أبو بكر :

« .. أما والله لو وليتك لجعلت أنفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها !.. »

... ولتكن سابقة الزبير فى الاسلام ، وصلته برسول الله اذ هو ابن عمته صفية بعض ميزته ، ولكنه فيهذا المقام كان جديرا به الا ينسى ما ينأى به عن حكم الناس وقد اجمله له عمر حين قال :

« .. اما انت يا زبير فوعق تعس .. مؤمن الرضا كافر الغضب . ولعلها لو افضت اليك ظللت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير!. »

.. وليكن لابن عفان من كرمه ، وحلمه ، ووصله رحمه ما قد يؤهله لان يسود اسرته ، ولكنها صفات تجنح به دائما عن حد الاعتدال الى التطرف والمغالاة حتى تنقلب غلطات ، وبها تعثر بعد ان انتهى الأمر اليه ، وعلى بعضها لقى مصرعه . واللين احيانا سجاحة ولكنه فيه كان ضعفا معلوما غير خاف على أكثر صحبه ، وفيهم ابن الخطاب حتى خشى مغبته عليه فقال له :

« كأنى بك قد قلدتك قريش هذا الامر لحبها اياك ، فحملت بنى أمية وبنى أبى معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفىء ، فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحا !.. »

.. وليكن ابن عوف صورة صادقة من كلمات عمر عنه :

« .. ولو وزن نصف ايمانالمسلمين بايمانك لرجح ايمانك به ..»

ولكن الايمان وحده لا يقدمه ما دام قد جمع اليه الضعف الذى يرتد به الى نهاية صفوف المستخلفين .. وهذا وصف ابن الخطاب قد جاء فيه بفصل الخطاب :

« ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك » .

لم يكن هذا كله خافيا على الرهط المجتمعين وقد جلسوا للحوار والنقاش ، وظلوا يبدئون ويعيدون ثم لا يصل بهم حديثهم الى الحل المنشود المرضى عنه اذا قيس بمقياسالحق . وما دامت النفوس منطوية على هوى فقد تجنبت الجادة وخرجت عن الهدف المحمود .

اما علي فقد استوعب كل كوامن قلوب زملائه ، وعرف ما تضم بلا حاجة الى كلمات تنمقها افواههم ويدعون بها للاتفاق . وما كان بالذى يغره منطق اللسان وقد علم مشاعر الوجدان .. انهم الآن يضعون أقدارهم فى الأخرى ، بل يزنونه بعواطفهم ؛ وللعواطف فى نهاية الأمر الرجحان !

ولكنه مع ذلك لم يشأ ان يسير واياهم فى طريق الألفاظ ، بل تركهم قبله يتحدثون مداورين ، يحومون حول القضية التى اجتمعوا لها ولا يبدى احدهم حجة ترفع شأنه وتثب به الى مقعد الأمارة .. انتهى حديثهم الى نهاية هى البداية ، ووقف هو يتحدث بصراحته فى لب الموضوع .

قال لهم :

« الحمد لله الذى بعث محمد منا نبيا ، وبعثه الينا رسولا .. فنحن بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، وامان اهل الأرض ، ونجاة لمن طلب .. لنا حق — ان نعطه — نأخذه ، وان نمنعه نركب اعجاز الابل ولو طال السرى .. لو عهد الينا رسول الله عهدا لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجادلنا عليه حتى نموت ، ولن يسرع احد قبلى الى دعوة حق وصلة رحم » .

وكذلك بهذه الكلمات القصار رسم مزاياه ، ورسم خطة العمل التى آلى أن ينتهج دربها ان منعوه او اختاروه ، وقطع قبل هذا وذاك الألسن اللاغطة التى قد تدعى على رسول الله وصية لابن عمه ، فكان بهذا الحسم — الذى لا يدع مجالا لتأول ولا ادعاء — رجلا يؤثر الصدق ولو جاء اليه الصمت — ولا تقول الكذب — يملك الأرض .. اما وقد جاء منطقه صورة صادقة لقدره ، ولأمانته المثلى عند رسم التاريخ ، ولحرصه على وحدة أمته وان نزعوا حقه ، فقد بقى عليه اذن أن يبصرهم بسوء مغبة ما يعلم انهم مقدمون عليه عسى يستطيع ان يجنبهم التردى فى حمأة ستدفعهم اليها الاهواء .. ما كان انفذ بصيرته وأصدق نظرته !. لكأنما كان فى تلك اللحظة يتلو من كتاب مفتوح سطور الفتن والمنازعات التى غرسوا بذرتها فى أيام الشورى ، لتجنى الأمة — بعد بضعة أعوام — ثمرتها المرة ..

قال لهم محذرا وقد رنت عيناه الى بعيد :

« اسمعوا كلامى .. وعوا منطقى .. عسى ان تروا هذا الأمر

من بعد هذا المجمع تنتضى فيه السيوف ، وتخان فيه العهود ، حتى تكونوا جماعة ويكون بعضكم ائمة لاهل الضلالة وشيعة لاهل الجهالة .. »

ولو انهم آمنوا اذ ذاك بقوله ووعوه لكان خيرا لهم وللأمة جمعاء وللاسلام ولكنهم ابوا ان ينصتوا لمنطقه حتى صدمهم الزمن بحقائقه وراوا انفسهم ائمة اشياع جردوا الأسياف وظاهروا الخلاف !..

١٦

اشرف ابو طلحة الانصارى على الجمع المتفرق الآراء ، وقال لهم وقد هاله ما ظلوا عليه من خلاف :

« قد كنت لأن تدفعوها اخوف منى لان تنافسوها !.. »

وهز الرجل رأسه هزة الاسف وخيبة الرجاء .. ولكنه لم يدعهم حتى أوضح لهم عزمه على ان يلعب دوره لحرفه :

« ... لا والذى ذهب بنفس عمر !.. لا ازيدكم على الايام الثلاثة التى امرتم ... »

وأخذت فترة الزمن تضيق حلقتها ، والساعات تفر سريعا من أيديهم ونقاشهم عن الأمير المرجو حيث كان ، لا يتقدم خطوة . وراح الأجل الذى ضربه عمر للاختيار يتقلص عنهم .. وحبل الخلاف دائما طويل ممدود .

ثم جاء عبد الرحمن من لدنه بالحل الذى ظنه سيصل بهوباصحابه الى الغاية ويحسم النزاع .. قال لهم وقد اعياهم جميعا منطق الجدال .

« أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها ، على ان يوليها خيركم ؟ » .

فتطلعوا نحوه مبغوتين ، وعقدت الدهشة السنتهم آونة فلم يبادروه بجواب على سؤاله الغريب .. افكان هذا حلا موفقا حق التوفيق ؟..

ما من رجل يعلو قدر نفسه على اقدار منافسيه يستطيع ان يأخذ نفسه بالموافقة على الراى المعروض : ذلك انه بخروجه من

الأمر ـ سيهدد اولا حقه ثم يدعه مباحا لآخر ادنى مكانة واقل قدرة منه على الولاية . فاذا كان أمينا لواجبه ، ولحق أمته عليه ، فانه اذن قد تكل عن الواجب وخان الأمانة . وليس لعلى الى احدى النقيصتين سبيل ! ..

وكأنما راى صاحب الاقتراح فى صمتهم ما يكاد ان يهدد اقتراحه بالخذلان ، لأن موافقة احدهم عليه لن تكون الا على حساب كبريائه ان لم تكن على حساب حقه . وما كان بالخافى على عبد الرحمن ان يعلم ان اجدر اصحابه بالأمر لن يخرج نفسه منه فيضيع طواعية حقه المعلوم وان الباقين لابد ستدعوهم عوامل نفسية واخرى زمنية الى التشبث بحق موهوم .

رأى هذا عبد الرحمن وايقنه وهو يعيد سؤاله ولا يسمع الرد عليه . وخشى ان يفشل حله الذى أوحى به ضيق الزمن ، فلم يجد بدا ـ لينقذ وينفذ اقتراحه ـ من أن يمشى على كبريائه هو عساه يستطيع أن يحملهم على القبول .

قال بعد قليل :

« انا انخلع منها . »

فما نطقها حتى هتف به عثمان :

« انا اول من رضى »

وتتابع بعده رضاء الباقين .

ولكن عليا وحده ظل صامتا لا يكشف عن قبول . وكيف ياترى يسمه وهو الخاسر بهذا الحل الجديد على التأكيد ؟.. ان عثمان : الخصم الذى يؤبه له بين الجمع قد توطد الآن موطىء قدميه لأن مصيره ـ قبل الاقتراح ـ كان موكولا الى خمسة قد يختلف بعضهم عليه ، فاذا به الآن موكولا لفرد واحد معلوم ميله اليه !..

ومع ذلك فدأب ابن ابى طالب الا يتنكر لمبادئه وان راى استمساكه بها يجر عليه الوبال ... وما دامت هناك كثرة اخذت باقتراح عبد الرحمن فقد وجب ان يرضخ لمشيئتها ويأخذ به ، ثم له ـ بعد هذا ـ ان يتحرز للعدالة المفروضة فى الرجل الذى قبلوا ان يكون حكما يقضى بينهم بما يراه .

قال حينئذ يستوثق من صاحب القول الفصل :

« أعطنى موثقا لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم، ولا تالوا الامة ... »

فاجابه عبد الرحمن :

« على ميثاق الله »

ومضى عنهم يستشير الرءوس والاشراف فى امر رجلين اثنين من أهل الشورى ، قر فى باله انهما المتنافسان : هما على بن أبى طالب وعثمان بن عفان .

افكان هذا ميزانا عدلا ؟ ... واين راى جمهور الشعب والعامة ، وهم الكثرة الغالبة فى الأمة ؟ .. ومن يا ترى من رءوس تيم كان سيرضى بعلى منافس شيخ تيم ؟.. ومن من اشياخ امية كان سيقبل سيادة غريمتهم الهاشمية ؟ ومن عسى من زهرة كان قمينا بأن ينكل عن عثمان صهر رجلهم عبد الرحمن ؟. ثم من لعلى برضا بنى عدى ؟ .. من له وقد رات شيخها عمر قد هم أن يوليه ثم عاد فنكص ، كأنما ذكر — فى اللحظة الأخيرة — منقصة فيه توجب العدول عنه ؟..

* * *

... وطلعت الليلة التى تكمل بها المهلة ، وتأرجحت دقائقها ثقيلة على النفوس المنتظرة فان هو الا صباح ... وكان ابن عوف قد ارق واقض مضجعه الفكر فانطلق فى دروب المدينة الهاجعة يسـير ، حتى اذا بدا له فى نهـاية المطاف باب ، ذهب يطرقه على ساكنيه ...

واستجاب له بعد قليل ابن اخته المسور قد هب على الطرقات من مرقده وما زالت جفونه يثقلها النوم .

« ... اراك نائما ولم اذق هذه الليلة كثير غمض ؟ »

« انى قائم معك انى شئت يا خال » .

« فانطلق فادع الزبير وسعدا ... »

وانفرد هو فى مؤخرة المسجد بصاحبيه — وقد لبيا دعوته — يحدث واحدهما بعد الآخر ... قد راى انه اجدى على غايته أن يستطلع رأى كل منهما وحده ، فلما عرف ما اراد ، قال للأول :

« خل ابنى عبد مناف وهذا الأمر »

ذلك انه ايقن أن القوم لا يعدلون بعلى أو بعثمان ، فلم يعد هناك مجال لمنافسة يعقبها خلاف ينشب بين الباقين . وكان هذا رأى

عمر قبله ، صرح به ولم يكتمه عن اصحاب الشورى ، ولكنا لا ندرى اكان عبد الرحمن قد اخر الاخذ به حتى يستوثق ، أم يا ترى لانه ظن — في البدء — نفسه حقيقا بالخلافة ثم عاد فخذله الظن الآن ؟ . .

وقال له الزبير وقد حميت في عروقه دماء القربى :

« نصيبى لعلى . . . »

فمضى الى سعد يشرح له غرضه في اللقاء ، ويحضه أن يدع التنافس مقصورا على ابنى عبد مناف . ثم قال له وهو يحاول أن يختم الحديث :

« . . . انا وانت كلالة ، فاجعل نصيبك لى فأختار »

وكذلك وضح ان مقياس هذا الاختيار الخطير لم يكن قدرة الشخص الجدير بأن يقع عليه الاختيار . . ولم تكن آراء ناخبيه فيه توجهها مكانته او يوحيها فضله بقدر ما كانت قرابتهم منه او صلات ارحام بعضهم ببعض قادرة على التوجيه . وبحسبك أن رايت الزبير يمالىء عليا للقربى ، وعبد الرحمن يأخذ من سعد نصيبه فيالانتخابات لانهما كلالة وابنا عم . . بحسبك هذا لتعرف ان الشورى لم تكن ميزانا وزن فيه التفضيل والتقديم بالقسطاس المستقيم !..

وقال سعد يجيب ابن عمه :

« . . ان اخترت نفسك فنعم ، وان اخترت عثمان فعلى احب الى . . »

ولكنه على اى حال تفضيل لا يرجح كفة المقضى عليه بالخسران ما دام يبقى بعده الراى الذى يخسرها ، وهو راى عبد الرحمن !..
ثم هو أيضا تفضيل موقوت بأجللانه كان رهينا بعاطفة عابرة متوهجة كلمعة البرق ثم خبت في لحظات . ذلك أن سعدا ذكر في مقامه هذا أن عليا — وقد خشى منه الميل الى عثمان — جاءه من قليل وقال :

« . . اتقوا الله الذى تساءلون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيبا . . اسألك برحم ابنى هذا من رسول الله ، وبرحم عمى حمزة منك الا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا على ، فانى ادلى بما لا يدلى به عثمان » .

أجل كان سعد — فيما بدا — ما زال واقعا تحت التاثير العابر الذى ولدة في نفسه هذا الحديث . ولكن الاثر لم يلبث حتي ; ابله ولما

يزايل هو موقفه امام عبد الرحمن !.. وعاد قلبه ثانية سيرته الاولى ، لأنه ما نطق بكلماته لابن عمه حتى سارع يردفها بهذا الاستدراك :

« .. أيها الرجل ، بايع لنفسك ، وارحنا ، وارفع رءوسنا ! »

فما اعجبه اذن من كلام يؤيد به عليا ثم يعدل عنه في آن !..

واجابه عبد الرحمن ولم يعد بوسعه أن يستجيب لتحريضه :

« انى قد خلعت نفسى منها على ان اختار ، ولو لم افعل وجعل الخيار الى لم اردها » .

وبهذه الكلمات كشف الرجل عن خبىء نفسه ، ودل على ضعف ثقته ضعفا لا يستطيع معه تحمل تبعة حكم الناس .

وعاد بعد قليل يستانف الحديث :

« .. يا أبا اسحق . انى رايت كروضة خضراء كثيرة العشب ، فدخل فحل لم ار قط اكرم منه ، فمر كأنه سهم لا يلتفت الى شىء مما في الروضة . ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج من الروضة.. ثم دخل فحل عبقرى يجر خطامه ، يلتفت يمينا وشمالا ويمضى قصد الأولين حتى خرج .. ثم دخل بعير رابع فرتع فى الروضة — ولا والله لا أكون الرابع ، ولا يقوم مقام ابى بكر وعمر احد .. »

فرمقه سعد بنظرة محذرة ، وقال له :

« انى اخاف أن يكون الضعف قد أدركك » .

❊ ❊ ❊

وهكذا — مرة أخرى — تحدد الرؤى — والأحلام اتجاه الأشخاص ومع ذلك فمنذا لا يقول انها ليست وحيا يوحى بقدر ما هى خلجات المشاعر التى تملكهم ؟.. انها بلا ريب الصدى لما في النفوس والصورة المنعكسة البادية من خباياها ، وليس لها — ها هنا — تأويل ظاهر اقرب الى الصواب سوى أن عبد الرحمن بن عوف ، بعد اعمال فكر ، تبين بوضوح صدق راى عمر فيه فعلم الآن عن يقين انه حقا اضعف من أن يسوس دولة ، ولم تعد له فى نفسه ثقة باقية تحمله على الطموح الى خلافة سلفيه .. وكعذر عن تجنبه تحمل تبعة الامرة التى آمن بأنها عبء يعييه ، اسعفته واعيته برؤياه ليراها تعيى ايضا كل امير سواه !..

١٧

مال عمرو بن العاص على أذن على ، وهمس له :

« يا ابا الحسن .. ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، ومتى اعطيته العزيمة كان ازهد له فيك ، ولكن الجهد والطاقة فانه ارغب له فيك .. »

وتفكر على مليا ثم ابتسم لنفسه فلم يات الرجل بجديد .. على نحو ما ، هذا راى يتفق وميله لأن المبدا الذى يستلهمه كان حرية العقل وطلاقة التفكير . وعلى قدر جهد الراى من حكيم بصير ياتى الخير ، وليس على قدر اسلاس القياد جزافا لراى الغير ..

ثم مضى ابن العاص الى عثمان بن عفان يناجيه :

« يا ابا عبد الله .. ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، وليس والله يمبايعك الا بالعزيمة ، فاقبل منه » .

كذلك راح الداهية يوجه وجاء بوجه . ونصح لثانى الرجلين أن يستمسك بما نصح اولهما أن يقلع عنه !..

افكان عمرو ذكيا الى الحد الذى يستطيع معه أن يقرأ ما فى قلوب الرجال الثلاثة ؟..

كان قمينا ، بحق ، ان يعلم سلفا راى عبد الرحمن في تردده وضعفه وقلة ثقته بنفسه .. وان يعرف ان الضعيف دائما هياب ، لا يسلك السبيل الا اذا امه سواه . واذا وثق بهذا فقد آمن ان ابن عوف سيتخذ من يد غيره تكأة يستند اليها ليأمن العثار ، ويشق بعونها سبيله .. وهذه اليد اسعفت بها رؤياه ..

نعم اسعفه حلمه وزوده بما لا يعجز بعده عن الاضطلاع بالمهمة التى وكل امرها اليه . وما عليه الا أن يغمض عينيه آونة يستعيد فيها الرؤيا الى ذهنه ، ويلمح الروضة الخضراء ، ويلقى ببصره الى الفحل الكريم حتى يقطعها ، ثم يستقبل من بعده البعير الأول ، فالثانى على اثره يمضى قصد سابقيه .. حتى اذا اكتملت لديه الصورة بذلك الذى رتع فى الروضة فاساء حيث أحسن الآخران . سارع ففتح عينيه ليبعد منهما ظله .. وما دام هذان قد نهجا نهجا مباركا فليكونا

اذن مثــلا أعلى لما يمكن أن تقاس به كرام الاباعر !.. وليحفظ دائما صورتهما فى مخيلته ، وليتوخ ان يكون على غرارهما ذاك التالى المرجو ويلزم نفسه بانتخابه خلفا لهما يتأثر خط سيرهما خطوة خطوة !..

كان قمينا بعمرو ان يقرا هذا فيما جبلت عليه طبيعة ابن عوف من تردد وضعف . وكان من الذكاء بحيث يجعل من هذه النفس ، التى تنقصها الثقة ، منظارا يرى من خلاله ما سوف يكون من تصريف ذينك الرجلين المتنافسين : على وعثمان ، حسبما يوحى لهما خلقهما ويدعوهما استعدادهما النفسى الى تناول الحياة .. اما عثمان فأمره ميسور لأنه لا يكاد ان يكون نسخة ثانية من ذلك الحكم الضعيف فأحرى به أن يتأثر خطاه .. وأما على فان اعتداده بنفسه ، وفكره الطليق ، وتكوينه الخلقى الذى صاغ شخصيته على اساس من القوة متين — كلها نمت مقدما على انه لن يلعب امام سواه دور الظل !..

ولكن هذا ليس وحده دليل الذكاء فى ابن العاص ، ولن يكون عمرو ابنا لأمه لو خطفت امام عينيه فرصة تبرق ولم ير على التماعها مصلحة يلتقطها ! وفى العام الماضى استطاع هذا الجزار القديم أن يحول أنفه دائما ليستقبل مهب الريح ، ويتنسم ما فيها . وكان دائما ككلب الصيد يشم الفريسة ثم يتحرك بعد هذا الى حيثما تسير .. وهو اليوم لم يعد طبعه ، ولم تتخل عنه سليقته ولا داب التاجر الذى يزن الأمور بميزان الذهب قبل اى ميزان .

اجلساير عمرو طبعه . والقى بنصحه للجهة التى أرشدته اليها الريح ! — القاه الى الرجلين ، المتنافسين اللذين لن يكون غير أحدهما بعد قليل خليفة المسلمين ويكون ابن العاص فى نظره المشير الأمين ! وهو بهذا قد ضمن المثوبة ممن يملكها ، وليس يفيده حنق المنقلب بالخسار ..

وكذلك راهن ابن النابغة على الجوادين فى آن ..

❋ ❋ ❋

واوشكت الليــلة الباقية من مهلة عمر على زوال . واتت لحظة الفصل او هى تطرق الباب ، فانطلق عبد الرحمن الى ابن اخته ..

قال له :

« يا مسور .. اذهب فادع لى عليا وعثمان » .

« بأيهما ابدأ يا خال ؟ » .

« بأيهما شئت » .

ولم يغب الرسول سوى قليل ، ثم عاد بالرجلين الى المسجد ، وكان عبد الرحمن قائما فى القبلة فتريثوا به حتى اتم ، فلما لمحهم سارع منطلقا الى ناحية ابن أبى طالب لا يريم .

كاد لهذه اللفتة أن يغيض امل عثمان !. ولكنه لا يملك ان يحتج او يثور ولا يملك ان يدعوه ليبــدأ به ، فليدع اذن ما بدا من ميــل عبد الرحمن — او ما ظنه هو ميلا — الى منافسه .. ليدع الرجلين يتساران .. وليمل هو الى آخر المسجد يقبع فيه مستحييا ، محاولا ان يخفى قدر وسعه ذلك اللون الباهت الذى رســمه على محياه شعوره بقرب الاخفاق .

وقال عبد الرحمن لعلى وهما بمنحى :

« .. انى قد سألت عنكما وعن غيركما ، فلم اجد الناس يعدلون بكما » .

ثم تمهل برهة عاد بعدها يستأنف الحديث :

« يا ابا الحسن .. هل انت مبايعى على كتاب الله ، وسنة رسوله، وفعل أبى بكر وعمر ؟ » .

فرمقه على بنظرة نفاذة ، وقال ولم يتردد :

« بل على كتاب الله وسنة رسوله ، واجتهاد رايى » .

كان هذا هو الجواب الحاسم ، الجدير بأن يلفظ به من له قوة خلق على واعتداده بنفسه ، ولن يضيره أن يفقد صولة أو ملكا بقدر ما كان يضيره لو آثر ان يصل الى السلطان عن غير طريق حرية رايه وجهره بما يعلم أنه حق أبلج لا تعتريه شبهة ، وما كان لامرىء أن ينكر على أبى الحسن علمه وحكمته ، ونضج آرائه وغيرها من سجاياه المثلى التى تؤلف من بينها أقوى دعامة يمكن أن يستند اليها حكم فاضل قويم ، ما كان لاحد أن ينكر عليه هذا أو بعضه وان كان أبا بكر ، او كان ابن الخطاب بعد أن خبرا فيه نواحيه واستعانا دائما برايه الصائب اثناء اقتعادهما اريكة الحكم ..

ومع ذلك فان عبد الرحمن شاء أن يبدو كمن ينكر عليه ما أقر به صاحباه وآثر أن يسبق الاختيار باختيار التزم فيه نهجا لم يرسمه له

عمر قبل موته ، ولم يدع الى الأخذ به منطق مقبول ، جاء من لدنه بشرط للبيعة كان أولى به أن يعفى عليا منه ، وان وجب أن يلزم به كافة الناس سواه ، ولكن هكذا شاء الحكم العدل لأنه جاء وفى خاطره بعيران يحاول أن يجد على نحوهما ذاك الذى يجمل به أن يتأثرهما كما لم يرسم — وان أوحى — الحلم !.. شاء هذا عبد الرحمن ، فضرب به مثلا عجبا لأصل بتبع فرعه ، وحسناء وخيالها ، هو يبرزها نابضة بالحياة وليست هى التى تعكسه صورة صامتة على صقال مرآة !..

***

ماذا عسى كان ابن عوف يريده بشرطه ؟. ليحذر السياسة العليا للدولة ؟ — ذاك مرده بلا جدال الى صاحب الأمر ، له طريقته وله خطة العمل التى يراها كفيلة بأن تسير آلة الحكم بانتظام الى الأمام ، وهو رهين أبدا بالظروف والأوقات ، لكل زمن نهج تعالج به مشكلاته ، قد لا يستقيم به علاج مثيلاتها فى زمان سواه .. ولئن بدا لعبد الرحمن أن يثبت من الأسس التى يزمع على أن يقيم عليها حكمه أفلم يكفه أن يكون ذلك الأساس كتاب الله وسنة الرسول ؟.. وأى دستور وضعى يستطيع أن يسع ، من النظم التى تضىء العدل وتضىء القوة ، ما وسعه دستور السماء ؟.. وفيم اذن ولم الشرط بتأثر خطى أبى بكر وعمر ما دام المشروط عليه قد أقر على نفسه بالتزام أوضح نهج وأقوم تشريع ؟..

ولكن ابن عوف — فيما يبدو — لم يرضه هذا الاقرار بالتزام الأصول بقدر ما كان يرضيه أن يجمع اليه التزام التفاصيل ... وعجب أن تكون هكذا نظرته ويكون شرطه ، هو العالم بأن الدستور الالهى فيه غناء عن فعل ذينك الشيخين أيما غناء ؛ وأنهما آدميان ، بلا قداسة ولا تنزيه ، قمينان بالأصابة وبالوقوع فى الأخطاء . ولو أن الرجل تفكر قليلا لعلم استحالة قبول على شرطه .. وكان حريا به حقا أن يتفكر لو أنه قدر سياسة حكم الدولة حسبما أشارت عليه رؤياه . أغمض عينيه عن الواقع الملموس وعاش فى اغفاءة حلمه ! ونسى فى هذه الآونة — التى نصبه القدر فيها صانعا للحكام — أن

بعيريه الأمثلين لم يتأثر ثانيهما خطوات سابقة تمام التأثر ، بل خالف نهجه ، وخالف أيضا نهج رسول الله فى كثير من الأمور .. ولو كان عبد الرحمن قد محص رؤياه حق التمحيص لعلم انها غررت به ولم تشر عليه بصواب .. على اى حال ، لا بد ان يكون قد عرف أن رجلا جاء ذات يوم الى عمر بن الخطاب يقول :

« يا امير المؤمنين .. عنبت أمتك منك اربعا . ذكروا أنك حرمت العمرة فى اشهر الحج ، ولم يفعل ذلك رسول الله ولا أبو بكر ، وهى حلال .. وذكروا انك حرمت متعة النســاء وكانت رخصة من الله ، نستمتع بقبضة ونفارق عن ثلاث .. وذكروا انك اعتقت الأمة — ان وضعت ذا بطنها — بغير عتاقة سيدها .. وشكوا منك نهر الرعية وعنف السياق » .

هذه امور — على هوانها — تومىء الى ناحية من عمر اغفلتها رؤيا عبد الرحمن !.. ولكنا ها هنا لا نناقش الخطأ والصواب فيما رآه ابن الخطاب . بل نلمس الدليل الحاسم على انه راى حقا لعقله عليه فتركه يعمل ويأتى بالنظرة المخالفة نظرة سلفه الى الأمور ما دعا الى هذا تغير الظروف واختلاف الأحوال . وحتى تلك النواحى التى لها خطرها من السياسية العامة للدولة قد امتدت يده اليها بالتبديل والتعديل ، وتناول منها النظام المالى المعروف فهدمه واقام آخر مغايرا على انقاضه ، لم يمنعه عن ذلك علمه برأى رسول الله وعمله ، أو عمل خلفه ابى بكر بذلك المبدأ القديم .

كان عمر فى هذا حاكما له سياسته التى آمن بصلاحيتها ، فلم يقف امام سلفيه مكتوف اليدين او معقود اللسان ، ولم يدع الماضى يحول بينه وبين غرضه . بل سار قدما الى شوطه ولما ينصرم من الوقت الا قليــل على وفاة أول خلفاء رســول الله . وجاءت السنة الخامســة عشرة من الهجرة بنحو جديد لتقســيم العطاء على الناس ، لم ينحه محمد او ابو بكر بعده ، فألغى عمر المســاواة — اساس التقسيم — وفرض الأعطيات بدرجات .

فأى السياسات اذن أراد عبد الرحمن ان يلزم بها عليا قبل أن يدلى اليه بالبيعة ؟ وعلى اى الدساتير المستقاة من فعل الخليفتين الســابقين كان عليه أن يسير ؟ وباى الشــيخين كان يقتدى والأمور

لديهمـــا تختلف منازلها هكـــذا وفق ما يوحى اليهما من اختـــلاف النظرات والآراء ؟..

اما انها اذن لرؤيا حجبت كثيرا من الحقائق عن ذهن ابن عوف حين اراد ان يلزم عليا شرطه !.. ام هو يا ترى قد آمن بأنه لن يقبل شرطه ، فشرطه !..؟

١٨

الأفق البعيد كاد أن يبدو صافى الزرقة من وراء ستار رقيق شابه سواد ، والأنجم غاب عنها بريقها ، كعيون وسنى ، والسكون تحت السماء أضجره النوم ...

وكانت رمال المدينة صـــديا ، يفيض فيهـــا — كقطرات مياه — دبيب الأقدام القليـــلات التى مشت على الدروب .. وبين آونات كانت ترن فى الصمت من هنا ومن هناك جلاجل قافلة تمر بالبطاح ، أو ترنيمة حاد يحث ابله ، أو رغاء وثغاء .. ولكن اللحظات أخـــذت تترى ، وكاد الرمل أن يبلغ ريه حتى لم تعـــد له طاقة على ابتـــلاع خطرات الأرجل ، قد سارت الآن فى ركاب الزمن علائم الحياة ..

ومن الظلمة الممدودة اخذت تلمح أطياف ضوء واهن وتنشق بها أسجاف الليل . اذا رنت نحوها العين رأتها محيا رائقا خلف نقاب من دقائق السحاب ، تكاد غرته أن تسفر وتهب الدنيا بشير النور . وفي السماء كان اللألاء هو الدعوة الصامتة الى البشر لاستقبال الفجر ، وعلى الأرض تردد النداء جليلا رافعا ، باسم الله ، للصلاة ..

ولكنه ليس فجرا كسواه يبدأ يوما كبقية الأيام ، وليس نداء ككل نداء . انه مستهل المجهول المأمول ، وبداية المرقوب المرهوب .. كل أولئك الذين لبوا الدعوة جاشت بخواطرهم الرهبة مع الرجاء ، ومشت الأرجل تحتهم مضطربة كأنما تحاذر — جهدها — أن تنهال تحتها الرمال ، وتسارعت دقات قلوبهم دراكا كأنما تطاردها خشية واشفاق او تحثها منى وآمال ..

« الصلاة جامعة ! »

حتى هذه الأحرف اعتورتها هزة !.. أمن خوف المستقبل رجفت شفتاه أم من شوق لعهد قابل تمناه ـ ذلك الداعى في أعقاب السحر ؟. انه هو ايضا من قومه ، صورة لكل مجيب لدعوته ، قد عاشت فيه ذات العواطف التى ملأت جوانح من قدموا على ندائه ، فملأوا رحبات مسجد الرسول وفاضت بهم ، فى الفضاء حوله . جموعا تزخر ..

ولم تطل بهم الصلاة وان بدت بلا نهاية فى حساب الافكار ، وكانت الاعين موكولة بالمنبر ترسل نظراتها اليه وتتعلق بكل من يخطر نحوه . ومضت اللحظات دانية فى تمهل ، والقوم سكون ينظرون حتى بدا عبد الرحمن بن عوف الى جوار قبلة الأنظار ..

آن اذن وقت الفصل ، وجاء أوان اللحظة الحاسمة فى تاريخ هـذه الفترة من الزمان .. واتسـعت الأعين واشرابت الأعناق الى الرجل الذى يهم أن يرسم مصير امته بكلمات . كان يكاد ان يغمض عينيه ، ساهما لا تتعلق نظراته بشيء ، صامتا كصمت المكان . ولكن سمات القلق التى سرت فى اعضاء الجمهور لم تسر اليه ، وهمهمة الهمس التى تنقلت من افواه لآذان لم تصب بعدوى النطق شفتيه .

ظل ساكنا فى موقفه هنيهة ، لا ينبس بكلام . وطال على النفوس المتلهفة اطراقه ، وطالت به حيرة الناس ، وظللت جبينه سحابة . وانعقد الوجوم على راسه حينا . ثرثرت فيه السن كل من عداه .. اما هو فبقى ، في حسبانهم ، كمن اصابه حصر ـ هو داعيهم لالقاء اذان وسماع بيان !..

ثم استطاع بعد جهد ان يرفع راسه ، ويمد البصر الى الجمع الحاشد فى جنبات المسجد وحوله .. ووسعه أخيرا أن يقول بصوت خافت لم تتمكن أن تتلقفه كل الأسماع وان تمكنت لجج الهمسات ان تطويه :

« .. ان الناس قد احبوا ان يلحق اهل الامصار بأمصارهم وقد عرفوا من اميرهم .. »

« انا نراك لها اهلا » .

هـذه نبرات صوت جاءه من اسفل المنبر يقطع عليه الحديث . وبحركة هدب مالت بها نظرات عينيه . استطاع عبد الرحمن أن يلمح رجله ـ تصيره المهيب به أن يتقلد سيف السلطان !.. كان هذا نسيب بنى الخطاب : سعيد بن زيد ختن عمر على أخته فاطمة .

ولكن ابن عوف لم يعد فى مقدوره الآن ان يستجيب لاغراء الدعوة ، بل تأبى وقال :

« بل اشيروا على بغير هذا .. »

ثم التفت ثانية يخاطب القوم :

« انى قد سألتكم ، سرا وجهرا ، فلم اجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين : اما على واما عثمان .. »

وكرة اخرى قطع عليه الخطاب ، ولكنه الآن بجرس داو رج المسجد :

« ان اردت الا يختلف الناس فبايع عليا .. »

فاستدارت الوجوه الى حيث انطلق الصوت ، وانتهبت عيونهم ذاك الآدم الأشهل . جاء حقا بدعوة حق !.. وكالنار اذا علقت بهشيم جاف ، سارت دعوته سراعا الى الشفاه والحلوق تتردد عنها حرفا حرفا .. لكأنما كلمات عمار بن ياسر كانت المفتاح الذى فض اقفال الأفواه !. من كل ناحيــة أتت الصيحات داعية الى الأخــذ برأيه ، وتجاوبت فى أرجاء المسجد كأنها صدى ما نطق به عمار .. ومن بين هذا الهتاف جاء صوت المقداد :

« صدق عمار .. وان بايعت عليا سمعنا واطعنا » .

وكاد أن ينتقض الصفاء على ابن عوف ، ويضطرب الأمر . وهمت أن تخرج من يده سلطة اختيار الخليفة الجديد بأن تسلبه اياها ارادة الجمهور . ولعله فى هذه اللحظه قد اشتبه عليه الرأى فلم يدر لأى الرجلين يجدر به أن يلقى الأمانة التى لديه ، على أى الحالات قد حلت به فترة ــ وهو قائم على منبر النبى ــ لم يكن هو فيهــا سيد الموقف .

يا ترى هل كتبت على امية أن تنخذل ثانية أمام هاشم ؟. كان حــريا أن تجرى الرياح بغير ما تشــهى ــ فى قبره ــ ذاك القمىء الدميم ، وبغير ما يشتهى الحاضرون من بنيه .. وكادت أن تبغتهم قلوب الشعب التى اختلط بدمائها حب الهاشــميين حبين : بأبيهم الذاهب صيته ومجده الى السماء رفعة ، وبابنهم رسول الله النبى الكريم . فأى الخواطر جالت بأذهان سلالة عبد شمس وامية اذ ذاك؟. وكيف استقبلوا ثورة العاصفة النفسية العاتية التى فاضت بها نفوس الشــعب . فكادت أن تطفىء نارهم ، وتكفىء قــدورهم كما فعلت

بهم — وبقريش المتألبة معهم على محمد فى يوم الخندق — تلك العاصفة الجوية التى أرسلتها عليهم السماء ؟.. احسبهم اصابهم العى الى حين ، وتلفتوا ينظرون بعين المبهوت حتى حمل لواء الدفاع عنهم دعى لصاحبهم ، ربطه واياه ثدى امراة ، فقام يصيح :

« يا عبد الرحمن !.. ان أردت الا تختلف قريش فبايع عثمان » .

فكانما وضعت هذه الصيحة شقا من الناس على اهبة الكفاح !.. اكبروا بادىء الامر جراة ابن ابى سرح اخى عثمان فى الرضاع وتقبلوا منه دفاعه حامدين .. ثم لم تلبث ان حميت فيهم دماء العصبية لكبير بينهم الذى وضعته الاقدار ، ورجل بنى هاشم فى كفتى ميزان .

ولكن ابن ياسر لم يدع الصائح بلا جواب ، بل انبرى له يسأله فى تهكم مرير :

« ابن ابى سرح !.. ومتى كنت تنصح الاسلام واهله !؟ »

وانه لاستنكار جدير بان يزم الشفاه ويكمم الافواه .

اجل صمت داعية امية وعقد الخزى لسانه ، فما زال كما كان فى نظر الناس ، قد تجمل عليه كل ثياب الا ثوب الناصح الأمين للاسلام . وان رجلا على شاكلته خان ثقة رسول الله فيه ، وعبث بالوحى الذى وكلت اليه كتابته لاولى به أن يبتعد عن الحياة العامة عسى الأيام ان تسدل على خيانته ستر النسيان . ولكنه من ناحية اخرى اراد ان يجزى احسانا باحسان ، ويرد للبد التى دفعت عن عنقه سيف الجلاد كفاء بعض فضلها عليه ، وما دام عثمان قد استأمن له محمدا عند فتح مكة وترضاه حتى قبل ان يبقى عليه ، فان اقل القليل منه اليوم أن يقف داعية ينتصر لعثمان ..

الجمه الخزى فأطاش جوابه وصوابه وقبع يجتر حنقه ، ولكنه كان قد استطاع بكلماته القصار ان يعيد الى اصحابه الحياة .. لم تعد القضية الآن بين على وعثمان ، ولا بين هاشم وامية وحده ، تشكلت بشكل جديد . انها كيان قريش كلها قبل كيان الافراد والأشخاص ، قريش التى كانت سياستها العليا دائما حسد بنى هاشم واقصاءهم قدر الطاقة عن مقعد الحكم ..

وقام منها رجل حفزه غضبه ينتصر لابن أبى سرح ويصيح بعمار :

« عدوت طورك يا بن سمية !. وما انت وتأمير قريش لانفسها ! »

وكاد بعد هذا أن يفلت الزمام تماما من ابن عوف . علا الصخب فى كل مكان ، وارتفع الجدل بين الفريقين ، وأوشك ان يقع بين الناس ما تخشى عقباه ..

وأهاب سعد بن أبي وقاص بصاحبه يحثه !

« يا عبد الرحمن .. افرغ قبل أن يفتتن الناس » .

كانت السرعة حقا جديرة بأن تحسم النزاع وتقف به عند حد مأمون . ولكن الحكم العدل لم يغب تردده عنه وبقى كدابه .. فى حديثه منذ قليل مع على وعثمان حزم امره على أيهما يختار ، ودعا لاجتماع الناس اليه ليسمعهم قراره ، فلما جاءت لحظة الفصل التى أعد لها عدته وشى به طبعه الضعيف وغلبه التردد .. وللمرة الثانية دعا اليه عليا ودعا عثمان ليسمع منهما الجواب المألوف على شرطه المعروف ..

قال له أول الرجلين بثبات :

« بل على كتاب الله ، وسنة رسوله ، واجتهاد رأيى » .

وقال الثانى وهو مسلس القياد :

« نعم » ..

فصفق بكفه على يده وقال أ

« اللهم انى قد جعلت ما في رقبتى من ذاك فى رقبة عثمان !. »

وكذلك — بين الصخب والضجيج واضطراب الآراء — فاز سليل أمية بالمجد الذى حلم به أجداده طويلا ، وتمت له امرة الناس — لا بالناس — انما بمشيئة رجل فرد من قريش كان هو الآخر يترجم فعله عن عاطفة قبيله . تلك لحظة من الدهر بدت فيها الأنانية العصبية كما لم تبد بمثل وضوحها فى غيرها من لحظات الاسلام السوالف ، ولسوف تكون عنوانا على عهد تقدم فيه الشخصيات على الجماعيات . ولئن لم يكن عثمان متهما اذ ذاك بحبه ذاته فلقد كانت من ورائه أسرة تدفعه أمامها كما يدفع الريشة نوء ، وانى لها أن تصمد له !..

١٩

اهذه حقيقة ماثلة ؟..

اولئك الذين فجأتهم كف عبد الرحمن اداروا أعينهم فيما امامهم كأنما استيقظوا لتوهم من كابوس ! قد كان الرجل أسرع الى قطع الأمر وهم يقطعون الوقت بينهم وبين غرمائهم فى جدال ، وسبقت كفه الى يد عثمان تشد عليها قبل ان يسبقوا بحجتهم حجة الحزب الآخر ، فلما استطاعوا أن يعودوا الىالوعى وتبينوا الموقف راوا عثمان قد اقتعد من منبر رسول الله الدرجة التى وقفت عليها قدما عبد الرحمن واقبل الناس عليه يبايعون ..

اهو التسليم يا ترى ام هى الثورة ؟.. قد كان فى مقدور الفئة المغلوبة ان ترفع علم العصيان بل كان أولى بحالتها النفسية اذ ذاك ان تعلن التمرد ، وكان رجالها — لو فعلوا — من جند الحق . كلهم ذو قدم في الاسلام وذو يد عملت جاهدة لرفع صرح الدولة ، وما فيهم — هم الذين حملوا ارواحهم على الأكف ابان اصطراع الشرك والايمان — الا المشوق الى الموت في سبيل مبدأ ، الزاهد فى الحياة مع الطغيان . وانهم لكتائب الله الأولى التى آزرت نبيه ، واندفعت معه من شعاب مكة — افرادا — بقوة اليقين حتى غطت اقطار الأرض ، لم تنحلها النصر عدة السلاح بقدر ما قطفته يانعا من أشواك انكار الذات ، ولو انهم اعوزتهم الأسنة لحاربوا العالم اجمع — في سبيل قضيتهم — وغلبوه بالظفر وبالناب .. ولكنهم اليوم ليسوا عزلا تماما .. وان فى أيديهم لعدة تترجم عن ايمانهم باللغة التى يفهمها الغرماء ، وفى عدادهم المقداد راس الجند الموكول اليهم حفظ النظام ..

ولكنهم جهدوا ، وجاهدوا انفسهم حتى الزموا التريث . وتعلقت ابصارهم برجلهم المحبوب المغلوب .. فى هذه الآونة لمحوا عبد الرحمن يشير اليه بعين ويدعوه . فيم الدعوة هذه ؟ — من البين لكى يبايع . وتلبثوا ينتظرون ، وحبسوا الأنفاس وارهفوا الآذان .

في صوت خافت كأنما يحدث نفسه ، قال عبد الرحمن :

« ومن نكث فانما ينكث على نفسه .. »

أدعوة هذه يا ترى أم وعيد ؟

وجاءه الجواب من ابن أبى طالب صريحا واضحا كسجيته :

« حبوته حبو دهر ! »

والتفت صوب قريش الملتئمة الجمع حوله ، المتالبة الاحقاد عليه ، وقال بنبرة المرور :

« .. ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .

ما كان له في مثل هذا المقام الا ان يحكم الله فانه غالب على أمره ، ان شاء عفا أو شاء عاقب ، ولكن لا يستطيع مطلقا أن ينصب من نفسه خصما وحكما لعبد الرحمن في آن ، ولا يقره على ههنا طبعه .. وحتى ان احس الغضبة في قلبه تثور لحق سلبوه اياه ، فان منطق العقل عنده كان يسبق دائما منطق عاطفته . ولو انه أراد لأثار فتبعه جموع وجموع ، ولكن الاسلام كان أكرم عليه من ان يثير الفرقة بين اهله من أجل حقه المغصوب . وقديما وقف هذا الموقف الضنك فآثر أن يبوء بالخسران وامته موحدة عزيزة الجانب ..

ولم يملك عبد الرحمن أمام هذا الاتهام الصريح الا أن يبرر تصرفه فيقول :

« ... انى قد نظرت ، وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان » .

ففيم اذن كان عرضه الأمر على إبن ابى طالب لو صح ما قال ؟.. وفيم المساومة على أمر تبين له وظهرت خواتيمه ؟ وهب عليا قبل منه شرطه أفكان اذن جديرا بأن يقلده الأمر على غير رضا من الناس ؟.

وجاءه الجواب قاطعا كالسيف :

« والله ما وليت عثمان الا ليرد الأمر اليك .. »

فسرت الهمهمة في انحاء المسجد . أما على فقد عاد ثانية يواجه الخصوم بشجاعة قلبه ، ويخاطبهم بمنطقه السليم عن المبدا القويم الذى ألزم به نفسه ، قائلا :

« لقد علمتم أنى أحق الناس بها من غيرى .. والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور الا على خاصة ، التماسا لأجر ذلك وفضله ، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه .. »

وشق طريقه فشد على يد عثمان ، ثم غادر المسجد وعلى شفتيه هذه الكلمات :

« سيبلغ الكتاب أجله ! »

* * *

أجل كل بدء الى نهاية ، وكل مستهل الى غاية ، ولن تكون العواقب الا كما تنبىء البدايات ..

استقبل الرجل عهده بخلاف وانهاه بخلاف . ومضت ايامه فى التاريخ مثلا للفرقة التى مشت ديدانها فافسدت جماعة كانت مثلا للألفة ، وقضت على كيان صلد متين ... حقا لم تتمزق الدولة ابان حكمه ، ولم يصبها الوهن ، ولكنها اضحت دولة كالأخر لا تمسك اجزاءها الا القوة ، وكانت من قبل تشدها الى بعضها البعض الأخلاق ... والخلق دعامة ركينة تهب القوة ولا تحطمها قوى السلاح فى ميدان صراع وكفاح ...

هذه خواطر جرت بأذهان بعض الحشد القائم فى المسجد يتأهب لبيعة عثمان ، وكادت تتجسم امام ابصارهم وهم يرونها بعين البصيرة ... اولئكم اصحاب العقائد والمبادىء والمثل العليا . الذين وهبوا حياتهم للحق وعاشوا به ، لا يخشون بطش السيف ولا حدة السلاح.

قام بينهم عمار بن ياسر ، وقد غلبت غضبته على ادمة وجهه حتى كاد ان يتلون بحمرة الدم ، وصاح ينذر تلك القبيلة التى عادت على حق صاحبه وسلبته اياه بالعصبية لا بالجدارة :

« يا معشر قريش ! اما اذا صرفتم هذا الأمر عن اهل بيت نبيكم ، ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فما انا بآمن ان ينزعه الله فيضعه فى غيركم ، كما نزعتموه من اهله ووضعتموه فى غير اهله . »

وهتف من بعده المقداد :

« ما رايت مثل ما أوذى به اهل هذا البيت بعد نبيهم ... »

وكأنما خشى ابن عوف مغبة هذه الثورة النفسية التى ما زالت نارها تضطرم بين الجوانح فسارع يحول بينه وبين الاستمرار فى حديثه ... حتى بكلماته تلك كشف « صانع الحكام » من غيرته على المجد الذى طوق به جيد قبيلته ، ورفع الغطاء عن عصبيته ... قال بلهجة السادة المترفعين عن طبقات الناس :

« وما انت وذاك يا مقداد »

فابتسم له « ابن الشعب » بسمة كالعبسة . وصاح به :

« انى والله لأحبهم بحب رسول الله ، وان الحق معهم وفيهم . يا عبد الرحمن ... اعجب من قريش وانت تطولهم على الناس !..

اهل هذا البيت قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله بعده من ايديهم ... »

وعلا جرس صوته ، ورن داويا كالزئير وهو يتم كلامه :

« أما وايم الله ، يا عبد الرحمن ، لو اجد على قريش انصارا لقاتلتهم كقتالى اياهم مع رسول الله يوم بدر ! »

فأى استقبال حافل هذا الذى قابل به خير صحابة رسول الله عهد عثمان ؟ وبأى الأحاسيس ملأت أحاديثهم المرة قلبه ؟.. بدت مشاعره على وجهه سمات معلومة تقرأها الأعين المتطلعة ، حين وقف بعد قليل على المنبر ويقول أولى خطبه لشعبه ... كان حسن الصورة مليح المحيا رغم تقدم عمره ، ولكن لونه غلب عليه شحوب عابر أحاله باهتا كالفضة ، وحتى هذه النكتات التى خلفها الجدرى على خديه ، وكانت قمينة أن تظهر سمراء ، كادت تخفى عن عين الرائى . وكان وجهه مرآة الحزن ، طافت الكآبة بقسماته لكأنما استطلعت نفسه ضمير الغيب !.

وحتى كلماته أيضا !... لقد كانت تقطر بما يحسه ويعتمل بقلبه من هم واصب جره عليه شعوره الحزين ، وما كان لامرىء أن يصف بغير كآبة النفس من يقول مثل ما قال :

« ... انكم فى دار قلعة ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ... »

ولكن هذا الشيخ المهموم ، المنقبض الصدر فى ساعة ظفره ، الذى زوده بالحزن شعور غامض ، اجتمع له سوء الطالع الى جوار همه ، وأبى النحس الذى حالفه من بعد طوال عهده الا أن يسير فى ركابه منذ اللحظة التى دفع قدمه الى المنبر ليخطب الناس ... لم يكن هو ملقيا باله الى خطواته بل تقدم بلا وعى يعلو درجات المنبر حتى وقف على نفس الدرجة التى كانت تطؤها أقدام الرسول . كان هذا جديرا بأن يثير عليه الاستنكار وغضب الناس وقد علموا أى مكان كان يقفه أبو بكر ويقفه عمر من درجات هذا المنبر . ما جال يوما بذهن السلفين أن يضعا أقدامهما وقدمى رسول الله على سواء كما يفعلُ هذا الخليفة الجديد . أهو الكبرُ والصلف والاستعلاء ؟...

بل هو نحس نجمه وسوء طالعه . ابيا عليه الا ان يستفتح عهده بالخلاف وهمس الاستهجان والانكار بدل الترحيب والهتاف ساعة الانتصار ...

٢٠

الكآبة التى احس بها عثمان لم يكن لها صدى الا في قلبه . كان خافض الرأس مهموما اذ يسير الى داره قبيل غروب يوم نصره . لم يحس فرحا أو راحة لاختياره سيدا للناس . ولكن الفرحة التى لم يستشعرها فاضت بقلوب ذويه ... حفوا به من كل ناحية ولفوا حوله كالسوار ، وانطلقوا معه ، خفافا يكادون أن يسيروا على الهواء . هذا يوم خالد على الزمان !...

اجل انه هو اليوم الذى اطلع — فى خواطرهم — امية من قبره ، ونشره حيا فى شوكة مجده : ذهب عنه خزى النفى الى الشام وما ذاق من مرارة الهزيمة التى جرعه كأسها عمه هاشم ، واستطال شرفا — هذا اليوم — على غالبه القديم ... أما ذلك الماضى وما كان له من ذكرياته فقد غاب وتوارى وجهه ، وبقيت منه هنات توافه لا تعلق بالنفس الا لتحفزها على التشبث بالغد المرقوب — ذلك الغد الذى استخفت اشراقته بنى امية حتى انطلقوا حول عثمان خفافا كأنما يسيرون على الهواء !...

وضمتهم معه الدار . كل من فيها طافت به نشوة الظفر الا ذاك الذى لبس تاجه ... ومن ناحية أقبل رجل مشتعل الرأس بالشيب شوه الجدرى وجهه فزاد من قبحه ، وتغورت احدى عينيه فبدت كالفجوة . وكان بدينا بادى القصر ، يتلمس طريقه فى ظلام بصره — ذاك أبو سفيان بن حرب قد شاخ وفقد ضياء ناظريه ...

أقبل على بنى بيته ، منفرج الفم عن بسمة سبقت فيها الشماتة فرحته ... وقال يسأل :

« افيكم أحد من غيركم ؟ »

« كلا »

فنصب قامته ، ورفع من احناءة راسه التى خفضها العمر ، لعل أحلام شبابه كلها حضرته فى هذه الآونة وهو يهيب بالحاضرين :

« يا بنى أمية ... تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت ارجوها لكم . ولتصيرن الى صبيانكم وراثة !.. »

وانها لدعوة !... وانها لحلم نفذ من الأجيال المتعاقبة خلال عبد شمس وامية وحرب ثم استقر الآن حقيقة ماثلة امام اذهان احفاده الحالمين به ! .. فما أسعدها اليوم حقيقة ! وما اجلها غاية أتى بها الزمان !..

كادت الحناجر ان تدوى بالهتاف للشيخ ثناء عليه ، وتنطلق داعية كما انطلقت نفوسهم — فى قراراتها — مؤيدة ملبية ... فهذا المجد الجديد الذى اشتاقوه من قديم جدير بأن تهفو قلوبهم اليه ، وتعض انيابهم عليه !

ولكن عثمان لم يكن صافى المزاج فى اثناء الدعوة فلم يتلقها بقبول ، انه لم يسغ للامرة طعما شهيا حتى يلح بها على ذوقه !.. ولم يكن فى الحق بالرجل الذى يملك حب الحكم عليه نفسه — لا عن زهادة فى المنصب ، بل بعدا عما يعييه الاضطلاع به . ولكن كان طالعه قد نصبه على راس امته ، فما احسبه احب ان تنزلق الامرة من بعده الى أسرته .

على ان رغبته وحدها ليست بالثقل الذى يرجح الميزان . أو العامل الفعال ذى التاثير الأخير فى سير الأمور . فما من امرىء يستطيع ان يعثر على اثر واضح للرجل فى شأن أتاه ابان حكمه الا وملح اصابع آخر . او آخرين من آله ، قد دفعته اليه .. لم يكن عثمان صاحب مشيئته او سيد عزمه ، بل كان رخوا دائما فى اكف أسرته .. او كان الثوب الذى استطاع ان يلبسه بنو امية قبل أن يحين لهم لبس أمثاله من ثياب ! ولا احسبه منافيا لحقيقة الحال ان يؤرخ لهذا الرجل كأول عاهل فى دولة الأمويين ! ...

* * *

نهر عثمان أبا سفيان ، ولكن البذرة التى وضعها امية جاء أوانها لتثمر ، وبدات مع الزمن تنبت من ارض الحقد . وكانت كلمات الشيخ هى العهد الذى جدد به — امام بنى بيته — طموح اسلافه . ولم يكن هناك

هاشم يفض من حولهم الناس بكرمه . ولم يعد هناك محمد أيضا ، الذى قهرتهم شريعته ، وايدته في كفاحه باطلهم يد الله ... ولكن الباقى في المعسكر المناوىء لهم كان شابا أوفى على رجولته بحساب العمر ونضج واكتمل نماؤه بمقياس الفكر ، ليس بذى جاه يجذب اليه من استهواهم الجاه ، ولا بذى مال ، يشترى النفوس ويملكها سلعة ... وانما كان صاحب حق في آونة كاد طابعها أن يكون استباحة الحقوق..

ومع ذلك فقد انطوى على نفسه كما فعل من قبل وآثر ان يغض البصر عن تراثه المسلوب ، وان يصبر ، ويركب اعجاز الابل وان طال السرى وامتدت الشقة واجهدته المشقة .

هكذا كان الرجل الذى اقصاه عبد الرحمن وكانت سماحة طبعه : لم يلتمس حقه مطلقا عن طريق عنف أو ثورة وكان بمقدوره ان يسترد لو اراد . ولكنه كان من طينة اخرى غير التى جبل منها خصومه ، لا ينقض وعده وان ضاع حقه بالوفاء . وكان ممدود النظر الى ابعد الآفاق .. وبينما كان هو يتوخى دائما صلاح أمته على حساب نفسه كانوا هم يحرصون على صلاح انفسهم بدافع من العصبية وحب الأهل أو حب الذات ... وكانوا دائما امامه يحملون لواء العداء تماما كما ارتسمت لهم سنة الأسلاف لأنهم كانوا يناجزون فيه هاشما قبل أى انسان .

هذه حقيقة وعتها نفوسهم وانطوت عليها وان حاولت جهدها أن تنكرها الألسن ، لا فرق فيهم بين رفيع أو وضيع المقدار ، لأنها كانت جرثومة الحقد ، التى سرت في دمائهم موروثة عن الأجيال المتعاقبة من الآل ...

***

وهل كان التاريخ الا صورة مكررة ؟

ذات يوم مضى ، شفى أبو سفيان من جسد غله .. وكان الجسد على الأرض لقى شائها ، مست فيه سكين امراته التى فاقت ضراوتها وحشية لباة الغاب ، وعبثت أصابعها بأحشائه بعد أن بقرت بطنه ، ولاك فمها هنيهة كبده المرير ثم لفظته ، ومضت عنه .. واقبل من بعدها زوجها يشتفى .. أهذه صورة أخرى من هاشم على ثرى أحد ؟..

ثم راحت السنون ، واستبدل الرجل بشركه الاسلام . فالى اى مدى يا ترى خفف الدين الجديد من غلوائه والان قلبه ؟..

انه ليسعى الآن امام العين كمثل سعيه الأول ، على ذات الأرض ، بسفح احد .. ولكنه اليوم قد وهن قوى ، ودب بخطو مضطرب ، يكاد به أن يتعثر فيما يصادف قدميه لولا غلام الى جانبه يقوده .

كان عائدا لتوه من دار عثمان ، فى قلبه قد اصطخب الفرح ونشوة النصر ، يتمايل عن تيه وخيلاء . وكانت المدينة قاعدة امير المؤمنين الجديد وراء ظهره ، ومكة بلدة البيت قبلة خطوه .. فلم تكن به حاجة الى التزام هذه الناحية من الطريق ، ولكن هاتفا بقلبه دعاه أن يفعل فراح يسير بين القبور ..

أهى روح عزيز لديه دعته أن يمر بمثواه ؟. بدا هذا ، فقد مال على أذن الغلام وهمس له ، وتقدم يحث خطاه . امشوق ؟ اهاجت بقلبه ذكريات أيام حلوة قضاها فى شبابه وصاحب المقبرة ؟ مشوق حقا لأنه يكاد أن يثب وثوبا رغم عماه .

وتوقف بعد قليل .. ها هنا حمزة الشهيد — عم رسول الله ، مسجى تحت الحصى والرمال . وقف امامه ابو سفيان يتطلع ببصره الجاف .. عسى الرجل أراد ان يكفر عما فات من قسوته ، وتمثيله بعد امرأته — أيام كفره — بهذا الجسد الطاهر ، أشنع تمثيل !.. لعل اسلامه قد ألان قلبه !.. لعل نازعته صلات القربى فجاء يترحم على هذا الثاوى فى طوايا التراب !..

وتقدم ثانية خطوة أو اخرى ، والقى ببصره المتغور على القبر ، ثم حرك شفتيه بالكلام .. فأى كلام ؟

انفرج فمه الأدرد القبيح عن أقسى بسمة تستطيع ان تصوغها شفاه لتعبر بها عن الحقد والشماتة ، ثم خرج من جوفه حديث كأنه فحيح أفعى ، وقال :

« يا أبا عمارة !.. ان الأمر الذى اجتلدنا عليه بالسيف امسى فى يد غلماننا يتلعبون به ! »

وركل برجله القبر ، ثم مضى مثلوج الصدر اذ اصاب ثاره !..

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤٤٠